الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر"باتنة"

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

قسم التاريخ وعلم الآثار

رقم التسجيل:..............................

الشعبة:..................................

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

تخصص تاريخ إسلامي

تحت عنوان

دور أهل الذمة في الدولة الإسلامية في العصر العباسي
من 132 هـ -447 هـ/ 749 م- 1055م

إعداد الطالب

طبــي سميــر

إشراف الدكتور

د. كمال بن مارس

لجنة المناقشة

اللقب والإسم	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
غازي جاسم مهدي الشمري	أستاذ محاضر	رئيس	جامعة وهران
كمال بن مارس	أستاذ محاضر	مشرف	جامعة باتنة
مسعود مزهودي	أستاذ التعليم العالي	عضو مناقش	جامعة باتنة
محمد فرقـــاني	أستاذ محاضر	عضو مناقش	جامعة الأمير عبد القادر —قسنطينة—

السنة الجامعية 2007- 2008 / 1428هـ-1429 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَب ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسرْ لِيٓ أَمْرِي *
وَٱحْلُلْ عُقْدَةً من لسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾

صدق الله العظيم

الآيات 25-28 سورة طه

الإهـــــداء

إلى والدّي العزيزين واعترافا بفضلهما وتوسلا للحصول على رضاهما،وإلى زوجتي الفاضلة وفاء لدعمها وابنتي إيمان، وإلى إخوتي وعلى رأسهم الأخ البكر،وإلى جميع أفراد الأسرة.

إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا العمل المتواضع

سمير

الشكــــر والتقديــــر

بعد أن من الله علي بالتوفيق بإكمال هذه الرسالة، لا يسعني إلا أن أتوجه إلى المولى العلّي القدير بالحمد والثناء ، وإلى كل من ساعدني بالشكر الجزيل، وعلى رأسهم الدكتور المشرف " **كمال بن مارس** " على ما أولاه لي من نصائح وارشادات وتوجيهات قيّمة لفائدة هذا الموضوع ، وكذلك إلى الأستاذ الدكتور الفاضل "**مزهودي مسعود** " الذي لم يبخل بملاحظاته ومساعداته ، كما لا يفوتني في هذا السياق أن أوجه جميل الشكر إلى رئيس القسم الأستاذ الدكتور الفاضل " **محمد زرمان** " الذي لم يتوان طرفة عين في تقديم جميع المساعدات الضرورية، وإلى كل أعضاء إدارة المعهد وعمال المكتبة في باتنة وقسنطينة والجزائر، وإلى كل الزملاء ، فجزاهم الله عني خير الجزاء في الدنيا والآخرة .

فهرس الموضوعات

المقدمـــــــة

أهمية الموضوع:

يدخل هذا البحث في مجال اهتمامنا الشخصي بتاريخ الدولة الإسلامية وإلى رغبتنا الشديدة في إبراز دور غير المسلمين-أهل الذمة- في تاريخ الدولة وتطورها.

إن الخوض في هذا المعترك ليس بالأمر الهين، لأن دراسة النظم بقدر ما فيها من عنصر التشويق بقدر ما تحتاج الدراسة التطبيقية فيها إلى إلمام وإحاطة هذا من ناحية، ومن جهة أخرى يصعب التصرف فيها لأن حوادثها محصورة في المكان و الزمان وأي تعدّ يعتبر تجني على الحقيقة، ومع ذلك حاولت الدراسة إبراز مدى تفاعل فئة أهل الذمة داخل المجتمع الإسلامي ودورها في البناء المؤسساتي للدولة الإسلامية في العهد العباسي- من قيام الدولة العباسية حتى نهاية العصر البويهي-، فضلا عن إسهاماتها الثقافية والاقتصادية انطلاقا من الإحاطة والتدقيق التي خصها به التشريع الرباني والفقه الإسلامي.

إن التاريخ العربي الإسلامي بحاجة إلى قراءة جديدة على ضوء المعطيات والأدوات الفكرية الحديثة، وذلك ليس فقط لمصلحة الإسلام والمسلمين في نفض الغبار على ذلك التراث الضخم بما يمثل من عمق حضاري في تفهم الحريات والحقوق وبسط وسائل حمايتها وتعميق مفاهيمها، بل لمصلحة سائر الطوائف من أهل الذمة التي ساهمت في صنعه من خلال استجاباتها المختلفة لحركة التفاعل التاريخي والعطاء الفكري والسياسي والاقتصادي من خلال ما سنقدمه من وقائع وأمثلة.

ورغم أهمية الموضوع وحيويته فإن معظم الدراسات السابقة حول أهل الذمة حسب إطلاعاتنا المتواضعة قد ركزت على معاملات وأحكام أهل الذمة ومناطق تواجدهم في دار الإسلام على غرار:

اليوزبكي توفيق سلطان: تاريخ أهل الذمة في العراق، دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، 1972.

عامر فاطمة مصطفى: تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، دكتوراه، كلية البنات، جامعة عين شمس، القاهرة، 1972.

فاطمة سعيد: معاملة المسلمين لأهل الذمة في العراق، ماجستير، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، السعودية، (د.ت).

ولذلك ارتأيت أن تأخذ دراستي هذه عنوان: **دور أهل الذمة في الدولة الإسلامية في العصر العباسي من 132هـ-447هـ/ 749م-1055م**، وقد ركزت على الدولة العباسية لما مثلته من تنوع في الجسم الاجتماعي وتمازج ثقافي وتسامح ديني باعتبار أن العباسيين لهم الفضل في تقريب العديد من أهل الذمة إليهم للنهوض بدولتهم، حيث حملت الدعوة شعار المساواة بين العرب والموالي، ولما قامت الدولة وفوّا خلفاءهم بذلك فاستوزروا الموالي وأهل الذمة وأدخلوهم ديوان الجند وأسندوا لهم المناصب العليا في الدولة.

وقد تناولت الفترة الزمنية الممتدة 132هـ-447هـ/749م-1055م، من قيام الدولة العباسية إلى العصر البويهي وبذلك فهي تغطي أو تشمل ثلاثة عصور عباسية.

العصر العباسي الأول: 132هـ - 232هـ/749م-846م، ويبتدئ بقيام الدولة العباسية وينتهي بخلافة المتوكل على الله، ويتميز بحرية الفكر والتسامح الديني، حيث قرب خلفاء بني العباس إليهم جميع الطوائف على غرار المنصور حين بنى بغداد 145هـ، ويعتبر العصر الذهبي في تاريخ الدولة العباسية من حيث نقل العلوم القديمة إلى العربية.

العصر العباسي الثاني: 232هـ-334هـ/846م-945م، ويبتدئ بخلافة المتوكل على الله وينتهي بقيام الدولة البويهية واستقلالها بالسلطان، وقد تميز هذا العصر بتعاظم النفوذ التركي وتراجع حرية الفكر فقد أخرست ألسنة الفلاسفة وعلماء الكلام، وضيّق على أهل الذمة.

العصر العباسي الثالث: 334هـ-447هـ/945م-1055م، ويبتدئ بالسيطرة البويهية على الخلافة بدخول طغرلبك السلطام السلجوقي إلى بغداد سنة 447هـ/1055م للقضاء على مؤامرة البساسيري الذي أراد تحويل الخلافة العباسية إلى الفاطميين، وقد تميز هذا العصر بشيئين مختلفين أولهما: اضطراب الحياة السياسية وانتشار حمى الاستقلالات، والثاني: حسن الحالة الفكرية من قيام المدارس وازدهار العلوم والآداب.

هذا من حيث الإطار الزماني أما المكاني أو الجغرافي فقد ركزت في دراستي على مركز الخلافة وما جاورها من بلاد الشام وفارس ومصر، على اعتبار هذه المناطق الأكثر حيوية وتأثيرا في حياة الدولة الإسلامية في العهد العباسي والأكثر استقطابا لطوائف أهل الذمة.

الإشكالية:

تتمثل إشكالية هذا البحث في تحديد طبيعة دور أهل الذمة في الدولة الإسلامية في العصر العباسي، من خلال وجودهم في هياكل الدولة وأثرهم في الحركة الثقافية والاقتصادية، والتي يمكن عرضها من خلال التساؤلات التالية:

- ما طبيعة الوظائف التي تقلدوها في هياكل الدولة؟، وما مدى استفادة الدولة الإسلامية من صنعتهم؟.
- إلى أي مدى كانت سياسة التسامح الديني عاملا في عطاء أهل الذمة وازدهار الحياة الثقافية والاقتصادية؟، وهل كانت سببا فيما أظهروه من تسلط؟.
- ما حدود أو درجة تأثيرهم في الحياة العقلية والفكرية الإسلامية؟، وهل ما وصل إليه المسلمون من إبداع فكري وازدهار ثقافي كانت أرضيته ما قام به أهل الذمة من نقل وترجمة؟.
- كيف كانت مساهمتهم في الحركة الاقتصادية؟، وماذا أضافوا في نظام المعاملات المالية والتجارية؟، وما هي مآخذهم وانحرافاتهم؟.
- إلى أي مدى كانت آراءهم الفكرية ومعتقداتهم الدينية سببا في تطور النزعة العقلية لدى المسلمين وتسرب العديد من البدع إلى عقول العامة؟.
- إلى أي حد يمكن القول أن ثورة العامة ضدهم سببها تمكنهم من الدولة من خلال مناصبهم المتنفذة واستئثارهم بمواردها؟.
- ثم هل استطاعت الدولة الإسلامية التوفيق بين العمال والمتصرفين من أهل الذمة والتشريعات الإسلامية التي كانت تنظم وتسير الخطط السلطانية؟.

هي جملة من التساؤلات التي سنحاول الإجابة عنها من خلال مسار البحث.

منهج البحث:

اعتمدت في بحثي على المنهج التاريخي التحليلي كمنهج أساسي للموضوع، إلى جانب المقارنة والاستنباط بين المصادر واستخلاص النتائج مستعين في ذلك بآراء واستنتاجات بعض المؤرخين المعاصرين.

عرض وتحليل أهم مصادر البحث:

وكان لدراسة هذا الموضوع لا بد من الإطلاع على جملة من المصادر والمراجع كان أهمها:

المصادر الأساسية

أولا: كتب الفقه

1- **القاضي أبو يوسف:** أبو يوسف بن يعقوب بن إبراهيم الأنصاري(ت 182هـ/798م) كان صاحبا للإمام أبي حنيفة وأخذ عنه الفقه، تولى القضاء في بغداد في عهد المهدي والهادي والرشيد، **كتاب الخراج** ألفه للخليفة هارون الرشيد ويعد من أهم المصادر الأساسية لكونه عاصر الدولة العباسية، وقد تضمن الكتاب وصفا دقيقا للحالة الاقتصادية وطريقة جباية الأموال، وأحكام فقهية، وقد أفاد البحث خاصة في التمهيد ودراسة الجوانب الاقتصادية بما أورده من أحكام فقهية تخص أهل الذمة وكذلك تصنيفه لأصحاب الحرف والمهن.

2- **الماوردي:** أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الفقيه الشافعي(ت 450هـ/1058م)، كتاب **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، يبحث في الإمامة وشروطها والوزارة وأقسامها والجزية والخراج وترتيب الدواوين، وقد وضفته في الفصلين التمهيدي والخطط السلطانية من خلال التفاصيل التي أوردها عن الوزارة وأنواعها وشروط تقلدها ونظام الدواوين وأحكام الجزية التي تخص أهل الذمة.

3- **الكاساني:** علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي الملقب بملك العلماء (ت587هـ/1191م)، كتاب **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، ويتضمن الكتاب مجموعة

من الأحكام الفقهية في العبادات والمعاملات، وقد أفاد ولا سيما الجزء السابع منه الفصل التمهيدي من خلال تطرقه إلى مفهوم أهل الذمة وشروط إقامتهم في دار الإسلام وواجبات الدولة حيالهم.

ثانيا: كتب الرحلة والجغرافيا

1- اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت 284هـ/897م)، كتاب **البلدان**، وهو من أمهات الكتب الجغرافية لأنه غير منقول عن كتاب آخر، وقد جمع فيه أحوال البلدان والأمصار في عصره من خلال تنقلاته وأسفاره حيث زار بلاد الشام والمغرب والأندلس، وقد اعتمدت عليه الدراسة عندما تعرضنا للجوانب الاقتصادية من خلال حديثه عن مدينة بغداد وأسواقها-سوق الكرخ- وأصناف المهن وأصحابها من أهل الذمة.

2- ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300هـ/912م)، كان مجوسيا وأسلم على يد البرامكة، وكتابه **المسالك والممالك** ضمنه إحصاء جباية الدولة العباسية وأهم المسافات والطرق بالدولة العباسية وخارجها، وخاصة عند تعرضه لمسالك تجار اليهود وكذلك أنواع البضائع والتي كانت تحمل إلى أسواق الحواضر الإسلامية.

3-المقـــدسي: شمـس الديـن أبو عبد الله محمد بن أحمد ولد في بيـــت المقـــدس (ت 388هـ/998م)، كتاب **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ضمنه أخبار وأحوال أغلب بلاد الإسلام في عصره، وقد تطرق إلى مناطق تواجد اليهود ومهن أهل الذمة وأسواق الرقيق وأهم المراكز التجارية.

4-الإصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت341هـ/952م)، كتاب **المسالك والممالك**، تضمن أخبار عن السامرة ومعتقداتهم، ومسالك التجار وأنواع البضائع المتداولة بين أسواق الدولة العباسية، وقد وضفتّه في فصلين التمهيدي والاقتصادي.

ثالثا:كتب التاريخ

1-الطبري: أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ/922م) شافعي المذهب يعتبر عمدة المؤرخين ومرجعهم، كتاب **تاريخ الأمم والملوك** المعروف "**بتاريخ الطبري**" يعد من أهم كتب التاريخ وأوثقها، حيث اعتمد في أخباره الإسناد إلى رواتها بالتسلسل،

وهو تاريخ عام يبدأ بالخليقة وينتهي لسنة 302هـ، واستخدم في معظم فصول البحث من خلال تعرضه إلى أحوال أهل الذمة وأعلامهم الذين خدموا رجال الدولة العباسية وقد استخدمت الأجزاء 1، 2، 4 ، 5 .

2- المسعـــودي:علي بن الحسين بن علي من ذرية عبد الله بن مسعود (ت 346هـ/957م) كان كثير التنقل والأسفار فجمع من الحقائق التاريخية والجغرافية لم يسبقه إليه أحد [1]، كتاب **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ضمنه قصص الأنبياء وتواريخ الأمم القديمة ودولة الإسلام إلى غاية 335هـ، وأفرد تفاصيل عن الجدل الديني والمذهبي الذي عرفته الدولة العباسية إلى جانب دور الجواري في قصور الخلفاء وكذلك أعياد أهل الذمة واحتفالاتهم.

مسكويـــه: أبو علي الخازن أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب بمسكويه (ت 421هـ/1030م) كان مجوسيا فأسلم، اشتغل بالفلسفة والمنطق والأدب ويذكر له صاحب معجم الأدباء كتب كثيرة في الفلسفة والتاريخ[2] ، كتاب **تجارب الأمم وتعاقب الهمم** وهو عبارة عن تاريخ عام يبدأ بالخليقة وينتهي لسنة 369هـ في شكل حوادث مرتبة زمنيا، وينفرد مسكويه عن غيره بقربه من رجال الدولة المشهورين في عصره مما تسنى له الحصول على المعلومات من مصادرها، ورغم خدمته للبويهيين فإنه لا يخفي جرائمهم بل يقسو في أحكامه عليهم[3]، وقد خصص من خلال دراسته جانبا لأهل الذمة في دواوين الدولة وعلاقتهم بوزرائها وخلفائها، ونشاطهم الاقتصادي.

4-الصابـــي: أبو الحسن هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابي (ت 448هـ/1056م) أسلم في آخر عمره، كتاب **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** اشتمل على أخبار الدولة العباسية من 360هـ إلى 447هـ، وربما أراد الصابي أن يكمل بكتابه

1- شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ج2، ص52.

2-ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ط1، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ج2، ص 495-496.

3-مرغوليوث: دراسات عن المؤرخين العرب، ط1، ترجمة حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2001، ص 123.

ما انتهى إليه الجهشياري في تأليفه للوزراء والكتاب، وقد أفاد البحث من خلال تعرضه إلى الإدارة العباسية والمتصرفين فيها من كتاب وجهابذة من أهل الذمة وعلاقتهم برجال الدولة العباسية، وقد خدم البحث في فصليه الأول والثالث.

5- **ابن العبري:** أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون بن توما الملطي (ت685هـ/1286م) يعقوبي النحلة، كتاب **تاريخ مختصر الدول** وتتمثل أهميته في كونه مختصرا من تاريخه المطول -تاريخ الزمان- إلى جانب أنه كتب باللغة العربية أصلا عكس كتاب تاريخ الزمان الذي ترجم من السريانية إلى العربية لذلك توجد بعض الاختلافات بينهما[1]، كما يأتي صاحبه في ختام سلسلة المؤرخين الكبار مما سمح له اقتباس وتصحيح ما أمكن من أخبار، وقد تضمن الكتاب أخبار الأمم القديمة من دولة ملوك بني إسرائيل والكلدانيين والفرس، لينتهي بدولة ملوك المغول، وقد اعتمدته كثيرا في الفصل الثاني لما تضمنه من معلومات حول علماء النصارى السريان من أطباء ومترجمين وفلاسفة وأثرهم في الحضارة العباسية.

رابعا: كتب التراجم والطبقات

1- **صاعد الأندلسي:** أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي قاضي طليطلة (ت 462هـ/1069م)، كتاب **طبقات الأمم** يعد هذا المصدر من الكتب النادرة في اللغة العربية التي تتعرض لوصف العلوم عند الأمم بعد كتاب الفهرست لابن النديم، وقد وضفته في الفصل الثاني لما تضمنه من تطور العلوم عند الأمم القديمة ولاسيما اليونان والسريان، كما تطرق الكتاب إلى علماء أهل الذمة في الدولة العباسية وإسهاماتهم الفكرية والعلمية من خلال عملية الترجمة والنقل.

2-**الخطيب البغدادي**:الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي (ت463هـ/1070م)، كتاب **تاريخ بغداد** وبه اشتهر وهو معجم للتراجم بصفة رئيسية، وتكمن أهميته في أنه احتوى على تفاصيل دقيقة حول مدينة بغداد من تاريخ بنائها وأقسامها ودورها وقصورها وأسواقها، وقد أفادني الكتاب خاصة في الفصلين الثاني

---

[1]-شاكر مصطفى: المرجع السابق، ج2، ص 455.

والثالث من خلال تطرقه إلى محلات بغداد وأسواقها وأصحاب الحرف وأخبار أعلام أهل الذمة ومآثرهم الفكرية، فضلا عن المناظرات العقائدية التي حدثت بين المتكلمين، وقد استخدمت الأجزاء التالية11،6،3،1.

3- **ابن أبي أصيبعة:** موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي(ت 668هـ/1269م) طبيب العيون، كتاب **عيون الأنباء في طبقات الأطباء،** ويعد من أذخر كتب التراجم لاحتوائه على معلومات قيمة ومفصلة لكبار الأطباء والمفكرين في العالم في ذلك العصر ومن سبقهم -من عصر اليونان إلى عهده-، وقد اعتمدت عليه الدراسة في الفصل الثاني من البحث من خلال تعريفه بأطباء وعلماء أهل الذمة ولاسيما السريان النصارى وكتبهم ونشاطاتهم العلمية وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين.

4-**ابن خلكان:** أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت681هـ/1282م)، كتاب **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** وهو عبارة عن مجموعة من التراجم تخص الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء والشعراء والكتاب وكل من كان له شهرة بين الناس، إلى جانب نصوص ورسائل وردت عن هؤلاء الأعلام، وقد أفاد البحث في هذا الجانب.

المراجع الحديثة

أولا: المراجع العربية

1- **أحمد أمين:**ضحى الإسلام وهو كتاب في ثلاثة أجزاء يتناول جوانب مختلفة من الحضارة الإسلامية، واستخدمت الجزء الأول الذي خصص جانبا لفئة أهل الذمة في المجتمع العباسي ونشاطهم الفكري والاقتصادي.

2- **عبد العزيز الدوري:**تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، وقد حوى الكتاب على تفاصيل مهمة حول النظام الاقتصادي والمالي للدولة العباسية في القرن الرابع الهجري، واعتمدت الدراسة عليه من خلال استعراضه لأصناف الحرف والمهن وطبيعة النظام المالي ودوره في تنشيط الحركة التجارية والاقتصادية.

3-أحمد الطايش: الفنون الزخرفية الإسلامية المبكرة في العصريين الأموي والعباسي، ويتضمن الكتاب معلومات خاصة عن أسس وقواعد فن الزخرفة الإسلامية وعوامل تطورها في سياق التطور الاجتماعي والعمراني، وقد أفاد البحث من خلال تعرضه لبدايات تبلور الفن الإسلامي في إطار معطيات المجتمع الجديد.

4-فهمي سعد: العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة، البحث عبارة عن رسالة ماجستير منشورة وصادرة عن دار المنتخب العربي، بيروت، 1993، وقد تناولت بنية المجتمع البغدادي وواقع العامة الاجتماعي، وقد استخدم الكتاب في الفصل الثالث لما أورده من معلومات تتعلق بالمهن والحرف التي اختص بها عامة أهل الذمة ودور هذه الأخيرة في النظام الاقتصادي العام وموقف عامة المسلمين منهم.

5-محمد عبد الرحمان مرحبا:الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، وقد استعنت به في الفصل الثاني من خلال استعراضه لأنواع العلوم التي عرفتها النهضة العربية الإسلامية في العهد العباسي من علم الفلك والطب والهندسة وإسهامات علماء أهل الذمة فيها.

6- يحي الكعكي:معالم النظام الاجتماعي في الإسلام من الهجرة النبوية إلى الدولة العباسية، ويتناول الكتاب الوضعية الاجتماعية للحواضر العربية ونظامها الإداري والقضائي، وقد اعتمدت عليه الدراسة من خلال تطرقه في بعض جوانبه للتركيبة الاجتماعية للمجتمع العباسي ووضع أهل الذمة فيه علاقتهم بالدولة.

7-عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، وتضمن الكتاب مجموعة من الجوانب الحضارية للدولة العباسية من خلال تعرضه لنظامها السياسي والإداري ، كما أفرد جانبا عن أحوال أهل الذمة، ودورهم في دواوين الدولة.

8-عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، ويتناول الكتاب تاريخ الفكر منذ نشأته من عهد اليونان إلى أيام ابن خلدون (ت 808هـ/1406م)، وقد أفاد الدراسة من خلال حديثه عن نشأة الفكر العربي ونضجه في العصر العباسي بفضل عملية الترجمة والنقل التي مست الكتب اليونانية، إلى جانب تعرضه إلى المدارس العلمية القديمة ودورها في النهضة العربية.

ثانيا: الدوريات والمجلات

كما اعتمدت على بحثين نشرا في مجلة الحضارة الإسلامية عدد خاص بالملتقى الدولي حول المصطلح العلمي للتراث الإسلامي العدد الثالث، وهران، نوفمبر 1997، الأول للدكتور وهبة الرحيلي "العلوم الشرعية بين الوحدة والاستقلال"، وتضمن المقال في بعض جوانبه نشأة علم الكلام وتطوره وعلاقته بالفلسفة اليونانية، والثاني للدكتور محمد يعقوبي بعنوان "النشأة الإسلامية لمصطلحات علم الكلام والفلسفة الإسلامية".

كما وفرت الموسوعات ودوائر المعارف مادة خصبة خدمة البحث على غرار موسوعة الأديان القديمة التي تناولت المسيحية واليهودية والزرادشتية، والموسوعة الإسلامية والعلماء المسلمين التي تضمنت تراجم لأطباء وعلماء إلى جانب دائرة المعارف الإسلامية التي أسهبت في مفهوم أهل الذمة.

ثالثا: المراجع والدوريات الأجنبية

كما استفاد البحث كذلك من مراجع وبحوث أجنبية أهمها:

Louis Gardet : la cité Musulmane (vie sociale et politique).

حيث تحدث الكتاب عن أوضاع النصارى واليهود في الخلافة العباسية، من خلال خضوعهم للقانون الإسلامي، ودورهم المالي والاقتصادي، وكتاب

D. ET J.Sourdel : la civilisation de l’Islam classique.

وقد اشتمل الكتاب على جوانب من الحضارة الإسلامية في عهدها الأول من البعثة النبوية إلى أواخر الخلافة العباسية، وقد أفادني الكتاب من خلال استعراضه إلى التطور السياسي والإداري والاقتصادي والفني الذي عرفته الدولة الإسلامية، وإسهامات أهل الذمة في هذا التطور، كما يتضمن الكتاب صور لقصور الخلفاء مثل القصر الجعفري بسامراء، وكذلك كتاب:

Henry de Morant : Histoire des arts décoratifs des origines a nos jours.

ويعد هذا الكتاب موسوعة من خلال الدراسة الكرونولوجية التي اتبعها للفن التزين والتصوير والنحت منذ بداياته الأولى من الحقبة اليونانية إلى الفترة المعاصرة، وقد خدم البحث فيما تعلق بتطور الفن الإسلامي وتأثره بالحضارات المجاورة والقديمة، وما يؤاخذ عليه تحجيمه للفن الإسلامي واعتباره وليد تمازج الحضارات الأخرى.

كما استفدت من مقالات نشرت في مجلة « colloque de Strasbourg » عدد جوان 1961، الصادرة عن المطبوعات الجامعية، باريس، فرنسا، مقال لـــ:

Francesco Gabriel : « la zanadaqa » au 1^er siècle abbasside، لقد أفادني المقال من خلال تعرضه إلى فكرة الزندقة وعوامل انتشارها في الخلافة العباسية وموقف الخليفة المهدي منها، وكذلك مقال لـــ:

Louis Gardet : philosophie et religion en islam avant l'an 330 de l'hegire ، وتضمن المقال في بعض جوانبه تعريف الزندقة وظروف نشأة علم الكلام عند المسلمين وبعض أعلام مدرسة المعتزلة.

الخطة المتبعة في البحث:

على ضوء المادة العلمية المستقاة من هذه المصادر والمراجع أمكن دراسة الموضوع ولم شتاته في أربعة فصول منها فصل تمهيدي تناولنا فيها:

في **الفصل التمهيدي:** وعنوانه **أهل الذمة في الدولة الإسلامية.**

فقد اعتنينا فيه بضبط وتحديد مفهوم الدولة وميلاد الدولة الإسلامية وتطورها، ثم مفهوم مصطلح الذمة من الناحية اللغوية والشرعية، ثم عرجنا على أصناف أهل الذمة من يهود ونصارى وصابئة ومجوس وفرقهم المختلفة ومعتقداتهم ومناطق تواجدهم في الدولة الإسلامية، وأفرد عنصر عن حقوق وواجبات أهل الذمة في الدولة الإسلامية بإبراز مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات من خلال عقد أهل الذمة.

الفصل الأول: فعقد بعنوان **دور أهل الذمة في الخطط السلطانية.**

وتناولنا فيه دور أهل الذمة في إدارة وتنظيم الشؤون الديوانية والخطط السلطانية- الإدارة العباسية-، من كتاب ومتصرفين وعمال بما اتصفوا به من ملكات مهنية ومعرفية، كما تعرضت الدراسة إلى تدرجهم إلى أعلى المناصب في الدولة على غرار الوزارة وديوان الجيش، وفي ختام الفصل كان لا بد من التعريف بدور الذميين في البيوت السلطانية كمتصرفين ومسيرين ومستشارين وأطباء وجواري، وإبراز إسهاماتهم بقدر

المستطاع في البناء المؤسساتي الذي عرفته الدولة العباسية، والذي أضحى أكثر من ضروري بعد اتساع رقعتها الجغرافية وتعدد مواردها.

أما **الفصل الثاني**: والذي كان تحت عنوان **دور أهل الذمة في الحياة الثقافية**.

حيث استهل بإبراز دورهم في العلوم العقلية ولا سيما علم الفلك والطب والهندسة من خلال عملية النقل والترجمة والتدريس والتأليف، دون أن أنسى العلوم النقلية من خلال كتاباتهم المذهبية والأدبية والتاريخية، والتي عكست بحق درجة التنوع الثقافي والعرقي والمذهبي ومن ثمة تنوع روافد الثقافة العباسية، وفي ختام الفصل تعرض البحث إلى جهود أهل الذمة في إشاعة لبعض الفنون التي كانت محظورة على الفنان المسلم على غرار التجسيم والتصوير وإسهاماتهم في علم الموسيقى، من خلال نخبهم أو عامتهم على غرار الجواري والحرفيين، الذين كانت تأثيراتهم واضحة في الثقافة العربية الإسلامية.

وفي **الفصل الأخير**: تناولنا **دور أهل الذمة في الحياة الاقتصادية**.

وقد استهل بدراسة ما اختصوا به من مهن و صنائع ودورهم في ترقيتها هذا من جهة وتلبية حاجيات السوق من جهة أخرى، كما تعرضنا إلى نشاطهم التجاري من خلال احتكارهم للبيوع والسلع ودورهم في الأسواق وحركتهم عبر الأمصار، ثم إلى دورهم في المعاملات المالية من خلال تأسيس البيوت المالية- المصارف- واحتكارهم لعمل الجهبذة والصيرفة والثروة وعلاقتهم برجال الدولة.

وفي **الخاتمة** توصلنا إلى جملة من النتائج والاستنتاجات كان أهمها:

- أن سياسة التسامح الديني وانفتاح الدولة العباسية على رعاياها دون تعصب ساعد على تمكين أهل الذمة ومن احتلال مواقعهم في المجتمع العباسي.
- وبقدر ما شكل نشاطهم الثقافي رافدا من روافد الثقافة العربية الإسلامية، بقدر ما ساهم البعض منه في تشويش عقول العامة وإشاعة بعض البدع والألفاظ الأعجمية.
- كما سمحت مواهبهم وعلاقاتهم التجارية من توسيع نطاق التجارة الإسلامية وتعاظم إرادات الدولة رغم مآخذهم الربوية.

الصعوبات التي واجهتني:

أما بالنسبة للصعوبات التي واجهتني ففي الحقيقة أنها تصادف كل باحث يتقدم على خوض هذا الغمار، ويمكن تحديد البعض منها فيما يلي:

- صعوبة الحصول على المادة العلمية من مصادرها الأساسية، حيث تفتقد مكتباتنا على بعض المصادر التاريخية الأصيلة.
- أن الفترة الزمنية التي يتناولها الباحث في الموضوع تزيد عن ثلاثة قرون مما حتم علينا دراسة معظم الأحداث والشخصيات التي لها صلة بالموضوع.
- صعوبة ضبط تراجم بعض أعلام وشخصيات أهل الذمة ولاسيما أن المصادر التاريخية لا تسهب في ذكر أخبارهم خاصة فيما تعلق بإسلامهم أو ردتهم.
- صعوبة تغطية الفضاء الجغرافي للدولة العباسية، فضلا عن تغير حدود الدولة العباسية من مرحلة إلى أخرى.
- عامل الوقت والمتمثل في قصر المدة الزمنية.

وفي الأخير أتمنى أن أكون قد وفقت نسبيا في الإلمام بالموضوع والإجابة عن التساؤلات والفرضيات التي وضعتها في مقدمة هذا البحث، والموضوع بقدر ما هو مشوق بقدر ما يحمل في ثناياه الكثير من الجدل والآراء المتباينة وحسبي أنني بذلت ما تيسر من الجهد وما التوفيق إلا من عند الله.

الفصل التمهيدي: أهل الذمة في الدولة الإسلامية.

تمهيـــــد

1- التعريف بأهل الذمة

2- أصناف أهل الذمة في الدولة الإسلامية

3- حقوق وواجبات أهل الذمة في الدولة الإسلامية

تمهيـــد:

يعرف رجال القانون الدولة بأنها: "جماعة من الناس تقيم على وجه الدوام في إقليم معين وتقوم فيهم سلطة حاكمة تتولى تنظيم شؤونهم وتدبير أمرهم في الداخل والخارج"[1]، أو هي"جماعة من الناس تقيم دائما في إقليم معين ولها شخصيتها المعنوية ونظامها الذي تخضع له ولحكامها ومستقلة سياسيا".[2]

ومفاد ذلك أنه لابد لقيام الدولة من توافر أركان ثلاثة:

الشعب: وهو مجموعة من أفراد يقيمون بصفة دائمة على أرض الدولة ويطلق عليهم رعايا.

الإقليم: الرقعة من الأرض التي يقيم عليها شعب الدولة أيا كان الرباط الذي يجمع بين أفراد هذا الشعب، كما يعد من الجانب القانوني المجال الذي تمارس فيه الدولة سيادتها.

السلطة الحاكمة:وهي من يتولى تنظيم الإقليم وتسيير شؤون رعاياه، وإصدار ما يلزم من تشريعات واستغلال موارده والدفاع عنه ضد أي اعتداء خارجي.[3]

وانطلاقا من هذا المفهوم الذي يوضح أركان الدولة ومقوماتها فإنه يمكن القول أن جزيرة العرب قبل البعثة لم تعرف كيانا أو نظاما مستقلا يصح أن يطلق عليه اسم دولة، فالشمال الشرقي للجزيرة كان خاضعا لسيطرة الفرس، والشمال الغربي للجزيرة كان خاضعا للروم، أما الجنوب فكان يعيش في ظل نظام قبلي.

1–علي منصور: الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1965، ج1، ص 89.

2–محمد كامل ليلة: المبادئ الدستورية العامة والنظم السياسية، ط1، دار الكتاب العربي، القاهرة،(د.ت)، ص 225.

3–محمد سلام مدكور: معالم الدولة الإسلامية، ط1، مكتبة الفلاح، الكويت، 1983، ص 57، علي منصور: المرجع السابق، ص 121.

وقد كانت هجرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى المدينة سنة 622م بداية واضحة لبدء ظهور الدولة الإسلامية، حيث وضع الرسول -صلى الله عليه وسلم- دستورا ينظم شؤون الحياة في المدينة ويحدد شكل الدولة وطبيعة العلاقات فيها وبين من جاورها، وقد عرف هذا الدستور بالصحيفة، حيث آخى بين المهاجرين والأنصار وسالم اليهود بالمدينة وعاهدهم على المناصرة.[1]

كما قام بتنظيم الإدارة والموارد وحدد وجوه الصرف والإنفاق، ونظم شؤون الدفاع والقضاء واعتمد المشورة على أهل الرأي من الصحابة، فضلا عن وجود شعب يكون أمة واحدة ويتبعه من دخلوا في ذمته، وإقليم هو أرض يثرب، وسلطة حاكمة تقضي بما أنزل الله.[2]

وإن اعتقد البعض أن الدولة الإسلامية لم تكتمل مقوماتها إلا في عهد الخلفاء الراشدين وعلى وجه الخصوص في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- (13هـ-23هـ)، لما تم في عهده من تكامل أركان الدولة ونظمها كتدوين الدواوين وإنشاء الإدارات والسجلات وتنظيم الولايات، وقبله لم تنشأ له دولة بالمعنى الصحيح.[3]

وقد أدت فتوحات الإسلام في بلاد الشام الخاضعة للروم وبلاد العراق الخاضعة لدولة الفرس، وفي مصر وبلاد المغرب والأندلس، أن توسعت هذه الدولة وازدادت رقعتها فقد امتدد سلطانها في أوائل العصر العباسي من قلب الهند إلى شواطئ بحر الظلمات-المحيط الأطلسي-[4]، وبذلك شكلت فضاء رحبا مترامي الأطراف ضم شعوبا وقوميات وديانات مختلفة.

---

[1]-ابن كثير: البداية والنهاية، ط2، تحقيق عبد الرحمان اللاذقي، محمد غازي بيضون، دار المعرفة، بيروت، 1997، ج3، ص468.

[2]-نبيه عاقل: تاريخ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، مطبعة أبي العلاء، دمشق، 1976، ص 86.

[3]-عبد اللطيف حمزة: الأعلام في صدر الإسلام، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1971، ص22-23.

[4]-غوستاف لوبون: حضارة العرب، ط2، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1948، ص 178.

وقد أدرك المسلمون منذ أن وطئوا هذه الأراضي الجديدة أن أمان الناس على أنفسهم وأموالهم أول ما يجب أن يشع في نفوس السكان، وتحريرهم من الخوف والظلم الذي عانوا منه يأتي في مقدمة ما تهدف إليه الشريعة السمحاء.

فكانت الأنفس والأموال والعقيدة في عرف المسلمين آمنة ولها مكانتها في المجتمع الجديد لا يضطهد ضعيفها ولا يهمل مريضها ولا تنسى فيه حقوق ولا واجب، فمنهم من استجاب إلى الإسلام ومنهم من بقي على دينه فخضع لأحكام الملة فأصبح من رعية الدولة الإسلامية وفي ذمتها.[1]

التعريف بأهل الذمة:

تشكل المجتمع الإسلامي من عدد كبير من أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى والمجوس، والصابئة والسامرة، وكان يطلق عليهم أهل الذمة.

الذمة في اللغة: وعرفها ابن منظور: العهد والآمان، والذمامة: بالكسر الحق والحرمة، رجل ذمي معناه: رجل له عهد[2]، وفي الحديث النبوي قوله:"**يسعى بذمتهم أدناهم**"[3] – وتفسيره الآمان–، وفي التنزيل العزيز قوله: ﴿ **لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً** ﴾.[4] الإل: الحلف، والذمة: العهد.[5]

والذمي شرعا: الكافر الذي يدخل في ذمة الدولة الإسلامية بصفة مؤبدة بعد إعطاء الجزية[6] والتزام أحكام الملة[7]، وقيل: الذمي **Le dhimmi**: رجل من أهل

1–بدران أبو العينين بداران: العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين في الشريعة الإسلامية واليهودية والمسيحية والقانون، دار النهضة العربية، بيروت، 1984، ص 17.

2 –ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج12، ص 221، الفيروز أبادي: القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت، (د.ت)، ج 4، ص 115.

3 –البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، الباب 10، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، م2، ص 401.

4 –سورة التوبة: الآية10.

5 –القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج8، ص 79.

6 –الجزية: ضريبة الرأس وهي الأموال المأخوذة من أهل الذمة جزاء المنة عليهم بالإعفاء من القتال، الماوردي: الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت،(د.ت)، ص183.

7 –الكاساني: كتاب بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، م7، ص112.

الكتاب[1]، « **l'homme de livre** » قبل بأحكام الإسـلام فـي دار الإسـلام فوجـب حمايته[2]، والذمي **«client»** : هو كل من دخل في ذمة المسلمين أي صار تحت رعايتهم وحمايتهم وعهودهم، سواء كان من أهل بلاد استولوا عليها أو أجنبيا دخل بلادهم وصـار تحت أمانهم.[3]

وأهل الذمة: وهم أهل الكتاب الذين يعيشون مع المسلمين في ظل الحكم الإسلامي وقيل لهم ذلك لأنهم دفعوا الجزية فآمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم[4]، إشارة إلى أنهم في ذمة الإسلام ورعايته وعهده.

وإن الذمة في جوهرها عقد مع الغير إذا هو قبل وارتضى ورغب فيه أصبح لازما[5]، ومؤبد[6]، فالمسلمون يعطون عهدها للمغايرين لا للمماثلين، وعقد الذمة يجوز مع أهل الكتاب، سواء كانوا من العرب أو العجم[7]، لأن الجزية لا تؤخذ على النسب وإنما هي على الدين الشيء الذي لا يحصل مع مشركي العرب[8]، لأنهم أهل التقليـد وعـادة –

---

1 –أهل الكتاب: نسبة إلى الكتاب المقدس التوراة والإنجيل وهم اليهود والنصارى ويجري المجوس مجراهم في أخذ الجزية وإن حرم أكل ذبائحهم والزواج بنسائهم، وتؤخذ من الصابئة والسامرة إذا وافقوا اليهود والنصارى في أصل معتقدهم، الشافعي: الأم، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، م4، ص 245، الماوردي: المصدر السابق، ص 183.

2 – Louis Gardet : la cité musulmane (vie sociale et politique), librairie philosophique, j, vrin, paris, p 87.

3 –بطرس البستاني: دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، م8، ص 353.

4 –أحمد الشنتناوي وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، م9، ص 390.

5 –لازم: الالتزام والانقياد لأحكام الإسلام من أداء حق وترك محرم، الكاساني: المصدر السابق، م7، ص112.

6 –مؤبد: لا يبطل ويصبح الذمي أحد الرعايا الدولة الإسلامية، البهوتي: كشاف القناع عن متن الإقناع، دار الفكر، بيروت،1982، ج3، ص117.

7 –الكاساني: المصدر السابق، م7، ص110.

8 –عبدة الأوثان، أو المرتد، أو الدهري، الماوردي: المصدر السابق ،ص183.

تقليد الآباء-، بل يعتبرون ما سوى ذلك سخرية فلا يشتغلون بالتأمل والنظر في محاسن الشريعة ليقفوا عليها، فوجب دعوتهم إلى الإسلام بحد السيف[1]، لقوله تعالى: ﴿ **فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ** ﴾ إلى قوله:﴿ **فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ** ﴾ [2]، ويقول الطبري في تفسير هذه الآية[3]: أن لفظ المشركين لا يتناول أهل الكتاب وأمر بقتالهم وعدم تخلية سبيلهم إلا عند توبتهم باعتناق الإسلام وترك الأوثان.

ووجه الفرق بين مشركي العرب وغيرهم من أهل الكتاب أن أهل الكتاب إنما تركوا للذمة وقبول الجزية لا لرغبة فيما يؤخذ منهم أو طمع في ذلك، بل للدعوة إلى الإسلام ليخالطوا المسلمين فيتأملوا في محاسن الإسلام وشرائعه، فيرغبون فيه فكان عقد الذمة لرجاء الإسلام.[4]

وقد أوصى النبي-صلى الله عليه وسلم- بأهل الذمة خيرا، حيث روي عنه قال: "**إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما**"[5]، إشارة إلى أن أم إسماعيل أبي العرب كانت منهم. وروي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال:"**أوصيكم بذمة الله فإنه ذمة نبيكم ورزق عيالكم**".[6]

وكان الخلفاء الراشدون إذا أنفذوا جيشا للفتح أوصوا قوادهم بأهل الذمة خيرا، ولا سيما النصارى ورهبانهم، وإذا جاءهم أهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية في مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤوسهم مثل عهد خالد ابن الوليد الذي كتبه لأهل الشام في سنة 13هـ، الذي أبقى على كنائس النصارى وبيع اليهود داخل المدن وخارجها ولا يهدم منها شيئا ولا يغير من حيزها ولا من رموزها ــ الصليب ــ.[7]

---

1 -الكاساني: المصدر السابق،م 7، ص111.

2 -سورة التوبة: الآية5.

3 -جامع البيان في تأويل أي القرآن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج6، ص 320.

4 -الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، ط1، دار المعرفة، ، بيروت، 1997، ج4، ص321.

5 -الطبراني: المعجم الكبير، حققه عبد المجيد السلفي، رقم الحديث 111، مطبعة الأمة، بغداد، (د.ت)، ج23، ص61.

6 -البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب2، م2، ص397.

7 -الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ج2، ص35، القاسم بن سلام: كتاب الأموال، ط1، شرح عبد الأمير علي مهنا، دار الحداثة، بيروت، 1988، ص 216.

أصناف أهل الذمة

يكاد يتفق المفسرون على أن أهل الكتاب الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم يشمل الناس المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين ومن جرى مجراهم، مصداقا لقوله تعالى: **﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّابِئُونَ وَٱلنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾** [1].

وكان العرب في جاهليتهم وبعدها يسترشدون بما عند أهل الكتاب من علم وحكمة، ويسمعون أقوال حكمائهم وعقلائهم[2]، وفي الحديث النبوي عن أبي هريرة قال: (كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها لأهل الإسلام بالعربية فقال الرسول –صلى الله عليه وسلم–: **"لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد"**)[3].

وتألف أهل الذمة من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس والسامرة، وقد عاشوا في ذمة المسلمين بموجب عهود كانت ترعى مصالحهم مقابل جزية يؤدونها عن رؤوسهم.[4]

اليهـــود:

في الأصل هم أتباع موسى –عليه السلام– الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة[5]في زمانهم[6] وقيل جاءت تسميتهم من كلمة هاد: تاب ورجع[7]، وقال ابن منظور: هود:

---

1 –سورة المائدة: الآية69.

2 –أحمد أمين: فجر الإسلام، ط11، دار الكتاب العربي، بيروت، 1975، ص25.

3 –البيهقي: السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب من رد شهادة أهل الذمة، دار المعرفة، بيروت، 1992، ج10، ص163.

4 – أبو يوسف: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ص123.

5 –التوراة: أول كتاب أنزل من السماء على موسى–عليه السلام–، "أي ما أنزل من قبله كان صحفا"، ويتكون من 5 أسفار: سفر التكوين أو الخلق، سفر الخروج، سفر اللاويين –الأحبار–، سفر العدد، سفر التثنية، الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار الجيل، بيروت، 1986، ج1، ص211.

6 –أحمد راتب عرموش وآخرون: موسوعة الأديان الميسرة: دار النفائس، (د.ط) ، بيروت، 2002، ص503.

7 –الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص210.

الهـــود: التوبة، هاد، يهود، هودا، وتهود: تاب ورجع إلى الحق فهو هائد[1]، وفي التنزيل العزيز قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَـــآ إِلَيْكَ﴾ [2]–تبنا ورجعنا–، وقيل:"لأنهم هادوا عـــن عبـــادة العجل أي تابوا، أو لنسبتهم إلى يهوذا [3]"[4].

وكان عدد اليهود غير قليل في الدولة الإسلامية فقد كـــانوا مبثـــوثين فـــي بـــلاد السواد[5]، في الحلة[6] و سورا[7] وحلوان[8] ، وببغداد قنطرة اليهود[9] ودرب اليهـــود[10]،

---

1 –ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص439.

2 –سورة الأعراف: الآية 156.

3 –يهوذا: ابن يعقوب ابن إسحاق –عليهما السلام– أمه ليا الابن الرابع بعد روبيل وشمعون ولاوي، لما كبر يعقوب وهو إسرائيل جعل يهوذا حاكما على إخوته الإحدى عشر سبطا، إلى أن قدم نبختنصر وخرب القدس وجلا جميع بني إسرائيل إلى بابل عام 586ق.م، فعرفوا هناك بين الأمم ببني يهوذا وتلاعب العرب بالأسماء الأعجمية فقالوا بالدال يهود وبهذه التسمية نزل القرآن، المقريزي: الخطط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ج4، ص 378، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، 1995، ج1، ص30.

4 –البهوتي: كشاف القناع عن متن الإقناع، ج3، ص118.

5 –بلاد السواد: يراد بها العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب(13هـــ–23هـــ)، وسمي بذلك لسواد الزرع والنخيل والأشجار، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ط1، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ج3، ص309.

6 –الحلة: مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد تسمى الجامعين، ملجأ التجار وأفخر بلاد العراق، المصدر نفسه، ج2، ص338.

7 –سورا: موقع بالعراق من أرض بابل وهي مدينة لسريانين وهي قريبة من الحلة وقد نسبوا إليها الخمر، المصدر نفسه، ج3، ص316.

8 –حلوان: قصبة صغيرة قرب الجبل بها بساتين وأعناب ولها أسواق وبها درب اليهود ودرب اليهودية، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط1، تعليق محمد الأمين الصناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص114.

9 –على نهر كرخايا هو نهر كان ببغداد يأخذ من نهر عيسى، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص507.

10 – المصدر نفسه، ج5، ص518.

وبخراسان يهودا كثيرين ونصارى قليلين[1] وكان بهمذان[2] ثلاثــون ألفــا وبأصــفهان[3] خمسة عشر ألفا[4] وبها قرية أو محلة تعرف باليهودية[5]، وكان أغلب الماليين في الــشام يهود[6] وقد قدر عدد اليهود في العراق وحدها في القرن الرابع الهجري حوالي ســتمائة ألف[7] .

وتمتع اليهود في العصر العباسي بكثير من صور التسامح الديني، ومــن مظــاهر ذلك عدم التدخل في شؤونهم الدينية، وحرية تنظيم شؤونهم الداخلية، حيث كــان رئــيس الطائفة اليهودية يعرف باسم رأس الجالوت[8] ، ويقيم ببغــداد ويتمتــع بتقــدير الخلفــاء واحترامهم، وكانوا يدعونه في كثير من الأحيان للنظــر فــي بعــض المــسائل الدينيــة

1 –المقدسي: المصدر السابق، ص115.

2 –همذان: بلد واسع جليل القدر كثير الأقاليم افتتح سنة 23هــ، وخراجه ستة آلاف درهم، اليعقوبي: البلدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص82.

3 –أصفهان: مدينة عظيمة سميت بأصبهان بن فلوج بن سام بن نوح –عليه السلام–، وقيل اسم فارسي تعني بلاد الفرسان، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص245.

4 –متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ج1، ص78.

5 –اليهودية: نسبة إلى اليهود في موضعين: أحدهما محلة في جرجان والأخرى بأصبهان، وقيل: أن نبختنصر لما دخل بيت المقدس عام 586 ق.م سبى أهلها وأخذ معه يهودها وأنزلهم أصبهان– وهي من بلاد فارس–، ولما طاب لهم المقام بنوا لهم في طرف جي محلة عرفت باليهودية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص518.

6 – المقدسي: المصدر السابق، ص155

7 –متز: المرجع السابق، ج1، ص78.

8 – رأس الجالوت: رئيس الجالية الذين جلوا عن أوطانهم ببيت المقدس عام 586 ق.م، وهو صاحب كل يهودي في الدنيا والمتملك عليه، مطاعا في جميع الأمصار نافذ الأمر عليهم في أكثر الأحوال، البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص16.

وغيرها[1]، وكان يظهر وهو في طريقه إلى لقاء الخليفة في ملابس من الحرير المطـرز وعلى رأسه عمامة بيضاء تسطع بالجواهر تحيط به كوكبة من الفرسان[2].

ومع ذلك عرف اليهود بالتكبر والانطواء، ولكن الذلة والقلة مانعتان مـن ظهـور كبرهم[3]، وأن حظ اليهود من الاحترام كان أقل من حظ النصارى، وارتبطت صـنائعهم بالوضاعة فلا تجد اليهودي إلا صباغا أو دباغا أو قصابا[4]، ومن مظاهر استخفاف العامة باليهود زعمهم أن الفأرة كانت ساحرة يهودية، كما زعمت أن الضب يهوديا، حتى أن أحد القصاصين قال لرجل أكل ضبا: أعلم أنك أكلت شيخا من بني إسرائيل[5].

وانقسم اليهود إلى طوائف وفرق[6] من بينهم السامرة[7] وهم قوم يـسكنون جبـال بيت المقدس، ويتقشفون في الطهارة أكثر من تقشف سائر اليهود، وأثبتوا نبـوة موسـى

[1] – ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج15، ص264.

[2] – يحي أحمد الكعكي: معالم النظام الاجتماعي في الإسلام، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، 1992، ص188.

[3] – الجاحظ: الحيوان، تحقيق يحي الشامي، ط3، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1997، ج6،ص382.

[4] –الجاحظ: رسالة الرد على النصارى، تعليق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)،ج3، ص239.

[5] –الجاحظ: الحيوان، ج6، ص385، كمال الدين الدميري: حياة الحيوان الكبرى، ط1، وضع حواشيه وقدم له أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، ج2، ص 333–334.

[6] – اليهود الذين قطعهم الله في الأرض أمما أربع طوائف أو فرق هم: الربانيين: وهم الذين يأخذون بالتلموذ، والقرائين: الذين يأخذون بالتوراة دون التلموذ، والعانانيين: وهم نسبة إلى عانان بن داود رأس الجالوت، يخالفون غيرهم في السبت والأعياد ويصدقون –عيسى عليه السلام– في مواعظه وقالوا أنه لم يخالف التوراة، والسامرة، المقريزي: الخطط، ج4، ص 381–382–383، محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 1970، ص19 ، حسن ظاظا: الفكر الديني اليهودي، ط4، دار القلم ، دمشق، سوريا، 1999، ص 205–206.

[7] –السامرة: قبيلة من قبائل بني إسرائيل، الذين تفرقوا في البلاد بعد وفاة سليمان بن داود –عليهما السلام– عام 975ق.م، وهم قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم، وإليهم نسب السامري الذي عبد العجل الذي سمع له خوار، ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص280، المقريزي: المصدر السابق، ج4، ص383.

وهارون ويوشع[1] –عليهم السلام–، وأنكروا نبوة من بعدهم من الأنبياء إلا نبيا واحدا وقالوا: "التوراة ما بشرت إلا بنبي واحد يأتي من بعد موسى يصدق ما بين يديه من التوراة ويحكم بحكمها ولا يخالفها البتة"[2].

وزعموا أن التوراة التي بين يدي اليهود ليست التوراة التي أوردها موسى –عليه السلام–، وأن التوراة الصحيحة هي التي بين أيديهم[3]، ويعتقدون أن مدينة القدس هي نابلس[4]، ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه[5] وقبلتهم جبل يقال له جزريم[6] وافترقت هي الأخرى إلى مجموعة فرق، واعتبروا أهل ذمة إذا لم تكفرهم اليهود والنصارى ولم يخالفوهم في أصول دينهم[7].

النصارى:

هم أمة المسيح[8] إبن مريم رسول الله وكلمته –عليه السلام–، وهو المبعوث حقا بعد موسى –عليه السلام– المبشر به في التوراة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ**

---

1 –يوشع: لما مات موسى –عليه السلام– قام بتدبير بني إسرائيل، وهو يوشع بن نون بن اليشاماع بن عميهوذ بن لعدان بن تاحن بن تالح بن راشف بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب –عليهما السلام–، وأقام ببني إسرائيل في التيه ثلاثة أيام، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ط1، تعليق محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ج1، ص39.

2 –الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص219.

3 –المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط1، شرح مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج1، ص58.

4 –نابلس: مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة كثيرة المياه بينها وبين بيت المقدس 10فراسخ، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص288.

5 –الاصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحني، دار القلم، القاهرة ،1961، ص44.

6 –جززيم: بيت عبادة للسامرة من اليهود بنابلس، يزعمون أن الذبح فيه كان، وأن الذبيح هو إسحاق –عليه السلام–، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج4، ص522.

7 –الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، ج4، ص324.

8 –المسيح: كلمة أرامية تعني الممسوح بزيت الكهنوت والملك، وقيل سمي بالمسيح لأنه كان يمسح بيده على العليل والأكمة والأبرص فيبرئه بإذن الله، أو لأنه كان سائحا في الأرض لا يستقر، وقيل كذلك خرج من أمه ممسوحا بالدهن، ابن منظور:لسان العرب، ج2، ص594، رفائيل نخلة : =

عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [1] وجاء بالإنجيل[2]، وكانت له آيات ظاهرة وبينات زاهرة مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمة.[3]

وسموا بالنصارى نسبة إلى قرية بالشام يقال لها نصران أو ناصرة[4] وقيل إلى أنصاري[5] لقوله تعالى: ﴿ **قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ**﴾[6]، وقيل كذلك: لتناصرهم فيما بينهم[7]، ومهما يكن مصدر هذه اللفظة فإنها كانت علما على كل الذين يدينون بالمسيحية.

وتمتع النصارى في العهد العباسي بحرية لا تشوبها شائبة، حيث توثقت صلتهم بكل طبقات المجتمع فكان منهم كتاب السلاطين وفراشوا الملوك وأطباء الأشراف وصيادلة[8]، وكانت معظم المدن العباسية عامرة بهم، فكانت الرها[9]

= غرائب اللغة العربية، ط2، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960، ص 206، أبو الفدا: المصدر السابق، ج1، ص 62.

1 -سورة النساء: الآية 171.

2 -الإنجيل: كتاب الله منزل على عيسى-عليه السلام-، وهي كلمة يونانية معناها: البشارة، رفائيل نخلة اليسوعي: غرائب اللغة العربية، ص 254، وهو كتاب يتضمن أخبار المسيح -عليه السلام- من ولادته إلى وقت خروجه من هذا العالم، كتبه أربعة أنفر من أصحابه وهم: أنجيل متى كتبه بفلسطين بالعبرانية، مرقوس كتبه ببلاد الروم باللغة الرومانية، ولوقا كتبه بالإسكندرية باللغة اليونانية، ويوحنا كتبه بأفسيس باليونانية، ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم النصر وعبد الرحمان عميرة، دار الجيل، بيروت، 1985، ج1، ص 4-5، وكذلك البيروني: المصدر السابق، ص33.

3 -الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص220.

4 -ابن المنظور: لسان العرب، ج5، ص212، وكذلك البهوتي: كشاف القناع عن متن الإقناع، ج3، ص118.

5 -القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص434.

6 -سورة آل عمران: الآية 52.

7 - أحمد راتب عرموش وآخرون: موسوعة الأديان الميسرة، ص116.

8 -الجاحظ: رسالة الرد على النصارى، ص116.

9 -الرها: Edessa مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، سميت باسم الذي استحدثها هو الرها ابن البلندي بن مالك بن دعر، وتعد من أقدم المدارس السريانية النسطورية، التي كان يعلم فيها اللاهوت=

وتكريت[1] أكثر أهلها نصارى[2]، كما اختصت بهم كذلك محلات بغداد كمحلة الشماسة[3] ومحلة الروم[4] وقطيعة النصارى[5] وبذلك عاشوا متجاورين مع المسلمين عكس اليهود.

وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل، وصار النصارى أحب إلى العوام من المجوس وأسلم صدورا عندهم من اليهود وأقرب مودة وأصغر كفرا[6]، وأطلق الخلفاء لرؤسائهم الروحيين مباشرة أمور وشؤون أبناء ملتهم، وكان رئيس النصارى في بغداد يسمى "الجاثليق"[7]، يعينه الخليفة بعد استشارة الأساقفة[8]، ويتم تعينه بعهد أو منشور

= والثقافة اليونانية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص120، عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي إلى أيام بن خلدون، دار العلم للملايين، بيروت، 1972، ص 155.

1 –تكريت: بلدة بين بغداد والموصل وهي إلى بغداد أقرب، وقيل سميت بتكريت بنت وائل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص45.

2 –ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص204 – 205.

3 –الشماسة: منسوبة إلى بعض شماسي النصارى وهي مجاورة بدار الروم في أعلى مدينة بغداد وإليها ينسب باب الشماسة، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص409.

4 – محلة الروم: وبها دير الروم، وهو بيعة كبيرة حسنة البناء، وهي ببغداد بالجانب الشرقي منها، المصدر نفسه، ج2، ص58.

5 –قطيعة النصارى: محلة متصلة ببغداد بنهر طابق، من محلات بغداد، المصدر نفسه، ج4، ص 429.

6 –الجاحظ: رسالة الرد على النصارى، ص240.

7 –الجاثليق: كلمة مقتبسة عن اليونانية، وتعني الأعلى مقاما، وهو رئيس من رؤساء النصارى وهو عندهم عبارة عن صاحب الصلاة ويليه في الرتبة المطران، ثم الأسقف، ثم القسيس، ثم الشماس، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تعليق وشرح محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1987 ، ج5، ص 444، طيبة صالح الشذر: ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ، دار قباء، القاهرة، 1998، ص563، رفائيل نخلة اليسوعي: غرائب اللغة العربية، ص 256

8 –الأساقفة: أسقف ويعني ناظر الكنيسة عند النصارى، أو من كان فوق الكاهن، وهي كلمة يونانية: بمعنى الرقيب والساهر والمحافظ، القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص 444، طيبة صالح الشذر: المرجع السابق، ص562.

يتضمن الحقوق والامتيازات التي تمنحها الدولة له[1]، فكان الخليفة الهادي(269هـ-270هـ)، يستدعي إلى قصره رئيس الطائفة النصرانية، ويحاوره في مجال الدين ويجيبه بما يتفق مع وجهة نظره[2].

وافترقت النصارى إلى اثنين وسبعين فرقة، أبرزهم ثلاثة فرق[3]، اليعقوبية[4]، وترى أن المسيح هو الرب وأن الرب والإنسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح-إن روح البارئ اختلطت ببدن عيسى -عليه السلام-، اختلاط الماء باللبن-[5]، وقيل: انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هو المسيح والظاهر بجسده بل هو هو[6]، وعنهم أخبرنا القرآن الكريم: ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ** ﴾ [7]، وأكثر اليعاقبة في مصر والنوبة[8] والحبشة والأرمن[9] واشتغل كثير منهم في ظل الدولة العباسية بنقل الفلسفة اليونانية وكتبها إلى السريانية.

---

1 -عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999، ص142.

2 -يحي الكعكي: معالم النظام الاجتماعي في الإسلام، ص188، جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ط1، ترجمة حسني زينه، دار المشرق، بيروت، 1990، ص 81.

3 -الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص221.

4 -اليعقوبية: نسبة إلى يعقوب البردعي، وهو راهب سوري عاش بين عامي (505م-578م)، ويلقب بالزلزل لأنه زلزل الإيمان الكاثوليكي في بلدان آسيا، واعتقاده أن جسد المسيح غير قابل للآلام وأن ما ذاقه من الآلام في الصلب كان خياليا لا حقيقة له، عكس نسطور القائل أن المسيح تألم وصلب ومات وقبر، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص338، عمر فروخ: المرجع السابق، ص 154.

5 -فخر الدين محمد بن عمر الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ط1، تعليق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب، بيروت، 1986، ص115.

6 -الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص225.

7 -سورة المائدة: الآية 72.

8 -النوبة: بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر وهم نصارى أهل شدة في العيش، بلادهم بعد أسوان، ويغتسلون من الجنابة ويختتنون، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص356.

9 -الأرمن: نسبة إلى أرمينية افتتحت في خلافة عثمان بن عفان سنة 24هـ، بجانب أذربيجان، اليعقوبي: البلدان، ص208.

والفرقة الثانية الملكانية[1] وقولهم: إن الرب عبارة عن ثلاثة أشياء: أب، ابن، وروح القدس، كلها لم تزل وأن عيسى-عليه السلام-: إله تام وإنسان تام كله وليس أحدهما غير الآخر[2]، وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك، وأن مريم ولدت الإله والإنسان وأنهما معا شيء واحد[3]، وعنهم أخبرنا القرآن الكريم: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [4]، وهو مذهب جل نصارى إفريقيا وجمهور الشام وبلاد الروم[5].

والفرقة الثالثة النسطورية[6] خالفت الملكانية في اتحاد الكلمة، فلم يقولوا بـامتزاج بل أن الكلمة أشرقت على جسد المسيح كإشراق الشمس في كوة أو على بلور، وقالت: أن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته[7] -أن المسيح إنـسان يحمـل إلها فله طبيعة بشرية وطبيعة إلهية-، وهي فاشية في العراق وبلاد فارس والهند[8].

الصابئة

صبأ في لغة العرب: خرج من دين إلى دين آخر، كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها، والصابئون قوم يزعمون أنهم على دين نوح-عليه السلام-، وقبلتهم نحو مهب الجنوب، ويقال الرجل إذا أسلم في زمن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد صبأ[9].

---

1 -الملكانية: أصحاب ملكا الذي ظهر في الروم واستولى عليها، وقيل نسبة إلى ملك الروم، فخر الدين محمد بن عمر الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص199.

2 -ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص111.

3 -الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص222.

4 -سورة المائدة: الآية73.

5 -البيروني: المصدر السابق، ص288.

6 -النسطورية: أصحاب نسطوريوس الذي عاش بين (380م -440م)، الذي نصبه الإمبراطور ثيئودوسيوس الثاني (408م- 450م) بطريكا على القسطنطينية سنة 428م، اعترض على تسمية مريم العذراء بوالدة الإله فكفر وعزل من منصبه بعد مجمع أفسيس المسكوني سنة 431م، المسعودي: التنبيه والإشراف، دار صادر، بيروت،(د.ت)، ص148، أحمد سوسة: ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ط1، مطبعة أسعد، بغداد، العراق، 1978، ص 94-95.

7 -أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج1، ص143.

8 -البيروني: المصدر السابق، ص288.

9 -ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص107.

وقال الشهرستاني: صبأ الرجل إذا مال وزاغ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصابئة، ويقال: صبأ الرجل إذا عشق وهوى[1]، وقيل صارت لقبا وعلما على طائفة من الكفار يقال أنها تعبد الكواكب في الباطن وتنتسب إلى النصرانية في الظاهر[2].

والصابئة قوم موجودون منذ زمن بعيد قيل لما بعث الله إبراهيم -عليه السلام- كان الناس على دين الصابئة[3]، فاستدل إبراهيم في حدوث الكواكب كما حكى الله عنه قوله: ﴿ **لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ** ﴾ [4]، ويعتقد أنهم المتخلفون من الأسر البابلي الذي نقلهم نبختنصر[5] من بيت المقدس وأثروا المقام ببابل ولم يكونوا من دينهم بمكان -اليهود-، فسمعوا أقاويل المجوس وصبوا إلى بعضها، فامتزجت مذاهبهم من المجوسية واليهودية[6].

وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم وأدرج اسمهم مع أهل الكتاب مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّابِئُونَ وَٱلنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [7]، وقال كذلك: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّابِئِينَ وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُل شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [8].

واختلف أهل التأويل في دين الصائبة اختلافا كبيرا واضطربت أقوال الفقهاء فيهم، فعند أبو حنيفة: هم قوم يؤمنون بكتاب فإنهم يقرؤون الزابور ولا يعبدون الكواكب ولكن يعظمونها كتعظيم المسلمين الكعبة في الاستقبال إليها إلا أنهم يخالفون غيرهم من أهل

---

1 -الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص5.

2 -الفيومي: قاموس المصباح المنير، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ج1، ص332.

3 -فخر الدين محمد بن عمر الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين،ص126.

4 -سورة الأنعام: الآية76.

5 -نبختنصر: اسمه بخترشة، رجل من العجم ابن جوذرز عاش دهرا طويلا وكان في خدمة الهراسب الملك الذي وجهه إلى بيت المقدس ليجلي عنها اليهود عام 586ق.م، الطبري: تاريخ الأمم والملوك ، ج1، ص318.

6 -البيروني: المصدر السابق، ص318.

7 -سورة البقرة: الآية 62.

8 -سورة الحج: الآية 17.

الكتاب في بعض دياناتهم، ولا يرى القرطبي مانعا في أكل ذبائحهم والزواج بنـسائهم[1]، وقيل عن مجاهد الصابئون بين المجوس واليهود لا تؤكل ذبائحهم ولا تـنكح نـساؤهم[2]، وأفتى أبو سعيد الإصطخري[3] بكفرهم[4] وأمر بقتلهم حين سأله القاهر بالله[5] (320هـ-322هـ)، وأمر الخليفة على ذلك فجمعوا مالا جزيلا وقدموه فعف عنهم[6].

والنتيجة من هذا السياق أن الصابئة قوم يعبدون الكواكب ويقدسونها، وقد أخلطـوا عقيدتهم ببعض مذاهب الديانات الأخرى، ولهذا قالوا فيهم:"ليسوا يهودا ولا نـصارى ولا مجوس، وهم نوعان صابئة مشركون وصابئة حنفاء".[7]

فالمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة والبروج الإثنى عشر ويتخـذون لهـا أصناما وهياكل على غرار كنائس النصارى وبيع اليهود ويقدمون لهـا القـرابين ولهـا صلوات خمس في اليوم والليلة[8]، ولذلك صنفوا في خانة الوثنيين.

والحنفاء هم الناجون وقيل هم قوم إبـراهيم -عليـه الـسلام- ويعظمـون مكـة ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير، وجبلوا على الطهارة ويقولون لا إله إلا الله ولـيس

---

1 -القرطبي:الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص434، الكاساني: المصدر السابق، م2، ص271.

2 - الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، م1، ص360.

3 -الإصطخري: هو الحسن بن أحمد بن يزيد بن عيسى بن الفضل بن سيار أحد أئمة الشافعية كان زاهدا وناسكا ولي القضاء بقم ثم الحسبة ببغداد وله كتاب القضاء، توفي 328هـ، شمس الدين محمد الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت ، (د.ت)، ج15، ص252.

4 -بكفرهم: لأنهم يقولون أن الفلك حي ناطق وأن الكواكب السبعة آلهة فهم عبدة الأوثان، القرطبي: المصدر السابق، ج1، ص435.

5 -القاهر بالله: هو محمد بن المعتضد -وهو أخو المقتدر- بايعه القضاة والأمراء والوزراء ولقبوه القاهر بالله، وخلع وسمل سنة 322هـ، ابن كثير: البداية والنهاية، ج11، ص 203.

6 -الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دار الفكر للطباعة، القاهرة، (د.ت)، ج7، ص269.

7 -ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ط1، تحقيق يوسف بن أحمد البكري، وشاكر بن توفيق العاروري، دار ابن حزم، بيروت، 1997، ج1، ص242، الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص 7.

8 -ابن النديم: الفهرست، ط1، تحقيق ناهد عباس عثمان، دار قطري، الدوحة، 1985، ص 635، 637، فخر الدين الرازي: المصدر السابق، ص 126.

لهم كتاب ولا نبي[1]، وبعد الفتوحات الإسلامية صالحهم قادة المسلمين على ما هم عليه وصنفهم كثير من الفقهاء كالمجوس أهل شبهة كتاب[2]، والحكم فيه دفع الجزية مع عقد الآمان[3]، وازدهر أمرهم في أواخر القرن الثاني الهجري في عهد الخليفة العباسي الأمين(193هـ-198هـ)، وكانوا مبثوثين في أرض العراق خاصة في الرقة[4] وحران[5] وقيل بهذه الأخيرة تل عليه مصلى يعظمه الصائبون وينسب إلى إبراهيم -عليه السلام-[6]، وخرج منهم علماء وفلاسفة ومنجمون.

المجوس:

مجوس كلمة فارسية تطلق على أمة من الناس تعبد النار، ويقال: تمجس الرجل إذا صار مجوسا[7]، ومجوس كصبور رجل صغير الأذنين وضع ديننا ودعا إليه ومجسه تمجيسا صيره مجوسيا والنحلة المجوسية[8]، والمجوسية نسبة إلى قبيلة المجوس من

---

1 -ابن قيم الجوزية: المصدر السابق، ج1، ص242، الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج1، ص360.

2 -شبهة كتاب: روي عن علي بن أبي طالب قال:"أنا أعلم الناس بالمجوس كان لهم علم يعلمونه وكتاب يدرسونه، وأن ملكهم سكر فوقع على ابنته أو أخته فاطلع عليه بعض أهل مملكته، فغير دين المجوس، فرفع كتابهم من بين أظهرهم"، أنظر البيهقي: السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب المجوس أهل كتاب، ج9، ص189.

3 - ابن قدامة: المغني ويليه الشرح الكبير، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983، ج7، ص 502، أحمد راتب عرموش وآخرون: موسوعة الأديان الميسرة، ص249 .

4 -الرقة: هي أكبر ديار مضر تقع شرقي الفرات، حسنة الأسواق، بينها وبين حران ثلاثة أيام، فتحت عام 17هـ عن طريق عياض بن غنم قائد الجيش الذي أرسله سعد بن أبي الوقاص، ابن حوقل: صورة الأرض، ص 203، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص 67.

5 -حران: وهي قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وهي طريق الموصل والشام، وقيل سميت بهاران أخي إبراهيم -عليه السلام-، لأنه أول من بناها فعربت فقيل حران، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص271.

6 -الإصطخري: المسالك والممالك، ص54.

7 -الفيومي: المصباح المنير، ص574.

8 -الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج2،ص250.

سكان بلاد فارس، وهي من أوائل من آمن بدعوة زرادشت[1]، المتوفي عام 600م، ولذلك يقال لهذه الديانة زرادشتية أو مجوسية، وكتابها الأفستا[2] المقدس.[3]

وتسمى الدين الأكبر والملة العظمى، والمجوس اختصوا بالتثنية حتى ثبتوا أصلين إثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد، ويسمون أحدهما النور والآخر الظلمة، وبالفارسية يزدان وأهرمن[4]، إلا أن المجوس الأصلية زعموا: أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين، بل النور أزلي والظلمة محدثة، ثم اختلاف في سبب حدوثها وهم فرق كثيرة[5].

ولم يكن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- آخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أخذها من مجوس هجر[6]، وقال:"**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**"[7]، لأن لهم شبهة كتاب.

في القرن الرابع الهجري اعترف بالمجوس بأنهم أهل ذمة إلى جانب اليهود والنصارى وكان لهم رئيس يمثلهم في قصر الخلافة[8]، وكان المجوس أكثر ملل أهل

---

1 -زرادشت: بن أسبيمان ظهر في زمن كشتاسب بن الهراسب من ملوك الفرس أبوه من أذربيجان، وهو نبي المجوس الذي أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند عوام الناس، واسمه عند المجوس الأفستا ظهر قبل الإسكندر بنحو 300 سنة توفي تقريبا في عام 600ق.م، المسعودي: التنبيه والأشراف، ص 85، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص235، البكري: المسالك والممالك ، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2003، ج 1، ص 89-90.

2 -الأفستا: كتاب الزرادشتية المقدس، من أقدم الكتب الأدبية في بلاد فارس، وهو مجموعة أقوال قديمة ترجع إلى زرادشت، وهي عبارة عن تراتيل دينية ترتل عند تقديم الذبائح وكذلك عند الصلوات الكهنوتية وطقوس العبادة، محمد إبراهيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ط1، دار الجيل، بيروت، 1999، ص 316.

3 -أحمد راتب عرموش وآخرون: موسوعة الأديان في العالم، ص267.

4 -الشهرستاني: المصدر السابق، ج1،ص232.

5 -ابن قيم الجوزية: المصدر السابق، ج1، ص80.

6 -هجر: قصبة بلاد البحرين، بينها وبين سرين سبعة أيام، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص453.

7 -البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، الباب الأول، م2، ص395، القاسم بن سلام: الأموال، ص 39-40.

8 -متز: المرجع السابق، ج1، ص73.

الكتاب في بلاد فارس والعراق ولا تخلو ناحية ولا مدينة بفارس إلا القليل من بيوت النيران[1].

وتمتع أهل الذمة في الدولة الإسلامية بحقوق وفرضت عليهم واجبات، فما هي الحقوق التي كفلها الشرع لأهل الذمة وما هي واجباتهم؟

حقوق وواجبات أهل الذمة

1-حقوق أهل الذمة:

إن عقد الذمة وتوابعه يكسب أهل الذمة حقوقا ليست لغيرهم من الكفار، يمكن تقسيم أهم هذه الحقوق وحصرها فيما يلي:

حق الحماية:

حق الحماية المقرر لأهل الذمة يتضمن حماية دمائهم وأنفسهم وأبدانهم وأموالهم وأعراضهم، فدماؤهم وأنفسهم معصومة باتفاق المسلمين، وقتلهم حرام بإجماع لقوله – صلى الله عليه وسلم-:"**من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وأن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما**"[2]، وعلى المسلمين واجب الدفاع عنهم وفديتهم والقتال في سبيل فك أسرهم إن حدث ذلك من عدو كما ولو كانوا مسلمين، والموت لتحقيق ذلك يعد صونا لمن هو في ذمة الله ورسوله –صلى الله عليه وسلم-.[3]

ومثل حماية الأنفس والأبدان حماية الأموال فمن سرق مال ذمي قطعت يده ومن غصبه عزر وأعيد المال إلى صاحبه، ومن استدان من ذمي فعليه أن يقضي دينه، وهذا من رعاية الإسلام لحرمة أموالهم وممتلكاتهم.[4]

وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال:"**إنما بذلوا الجزية لتكون دمائهم كدمائنا وأموالهم كأموالنا**"[5]، وكما رعى الإسلام عرض الذمي وكرامته كعرض المسلم فلا يجوز لأحد أن يسبه أو يتهمه بالباطل أو يفتري عليه الكذب أو يغتابه ويذكره بما يكره في

---

[1] -الإصطخري: المسالك والممالك، ص68.

[2] -البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، الباب الخامس، م2، ص398.

[3] -السرخسي: شرح كتاب السير الكبير، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، م5، ص112.

[4] -ابن قدامة: المغني ويليه الشرح الكبير، ج10، ص498.

[5] -البيهقي: السنن الكبرى، كتاب الجنايات، ج8، ص34.

نفسه أو في نسبه أو في خلقه[1]، وفي الحديث النبوي الشريف قال: "**من ظلم معاهدا وانتقصه وكلفه فوق طاقته وأخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه فإني حجيجه يوم القيامة**"[2].

حرية العقيدة والتدين:

لقد صان الإسلام لغير المسلمين معابدهم ورعى حرمة شعائرهم خاصة في المناطق التي فتحت صلحا[3]، مثل عهد عمر بن خطاب لأهل إيلياء[4] سنة 16هـ، حيث أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، وكنائسهم وصلبانهم ولا يكرهون على دينهم[5]، وفي أيام هارون الرشيد (170هـ-193هـ)، كان النصارى يخرجون في بغداد يوم عيد الفصح[6] في موكب كبير وبين أيديهم الصليب ويقيمون حفلاتهم الدينية بحرية تامة، وفيها يظهر اللهو والطرب ويشاركهم المسلمون في هذه

---

[1] -القرافي: كتاب الفروق، ط1، تحقيق محمد سراج، علي جمعة محمد، الفرق التاسع عشر والمئة، دار السلام، القاهرة، 2001، م2، ص702.

[2] -البيهقي: السنن الكبرى، كتاب الجزية، ج9، ص205.

[3] -فتح الصلح: هم الذين صالحوا المسلمين على أن يكونوا في دارهم سواء كان الصلح على مال أو غير مال، ويعرفون بالمعاهدون بالفتح، أو أهل الأمان، ويكون العهد على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ودور العبادة، في حين تصير الأرض للمسلمين، عكس الفتح الذي يتم عنوة، الشرواني وابن القاسم: حواشي الشرواني وابن القاسم على تحفة المحتاج بشرح المنهاج، ط1، ضبطه وصححه عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ج12، ص 151.

[4] - إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس، وقيل معناها: بيت الله وسمي البيت المقدس إيلياء، وبيت المقدس كان في يد الروم ففتحه الله في زمن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- سنة 16هـ، وكان أبو عبيد بن الجراح-رضي الله عنه- أمير الجيش، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص 348، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط3، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب، بيروت، (د.ت)، ج2، ص 501 ، البكري: المصدر السابق، ج2، 38-39.

[5] -الطبري: المصدر السابق، ج2، ص449.

[6] -الفصح: وهو العيد الكبير عند النصارى ويزعمون أن المسيح -عليه السلام- قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام ويعتبرونه عيد السرور والفرح، ومن ثمة كانوا يشربون ويطربون فرحا بعودة المسيح، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب، القاهرة، 1933، ج1، ص 191.

الاحتفالات[1]، كما يذكر جاك ريسلر: إن جميع الأديان كانت ممثلة في بغداد، فكان للمسحيين أديرة وللملة اليهودية محاكمها الخاصة.[2]

البر والإحسان لهم عند الفقر والشيخوخة:

لقد أباح الإسلام البر لأهل الذمة والإحسان إليهم لقوله تعالى: ﴿ **لاَّ يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ من دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوۤاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي ٱلدينِ وَأَخْرَجُوكُم من دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ** ﴾ [3]، وهذا يحقق الحكمة التي لأجلها شرع عقد أهل الذمة وهي الإطلاع على محاسن الإسلام.

ومن وجوه البر بهم الرفق بضعيفهم وإطعام جائعهم وإكساء عاريهم، ويجوز صرف صدقات التطوع إليهم لأنهم من دار الإسلام[4]، حيث روي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنه: مر بشيخ من أهل الذمة يسأل أبواب الناس فقال:" **ما أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية في شبابك ثم ضيعناك في كبرك**" ، ثم أخرج عليه من بيت المال ما يصلحه[5]، كما ورد إلى الطبيب سنان بن ثابت بن قرة الصابي[6] المتوفي عام 331هـ توقيع من الوزير علي بن عيسى بن الجراح[7] في خلافة المقتدر (295هـ-320هـ)

---

[1] -الشابشتي: الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، 1951، ص 9، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: المرجع السابق، ص143.

[2] -جاك ريسلر: الحضارة العربية، ط1، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، 1993، ص 148.

[3] -سورة الممتحنة: الآية 8-9.

[4] -الكاساني: المصدر السابق، ج7، ص111.

[5] -ابن قيم الجوزية: المصدر السابق، ج1، ص143.

[6] -أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة الحراني: طبيب ماهر دعاه القاهر (320هـ-332هـ) للإسلام فهرب إلى خراسان ثم عاد وتوفي ببغداد، ابن النديم: الفهرست، ص 600، كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة السيد يعقوب بكر، رمضان عبد التواب، دار المعارف، القاهرة، 1975، ج4، ص 179.

[7] -أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح: وزر للمقتدر (295هـ/320هـ) ثلاث دفعات وعزل آخرها عام 316هـ كان بمنزلة الرياسة، كاتبا فاضلا توفي عام 334هـ، له كتاب ديوان الرسائل وسيرة المملكة والخلفاء، ابن النديم: المصدر السابق، ص 251.

يأمر فيه أن يبعث إلى السواد أطباء وخزانة للأدوية لمعالجة المرضى من وباء انتشر بها، ولما انتهت البعثة إلى سورا والغالب على أهلها اليهود كتب إلى الوزير يطلب رأيه في معالجتهم فأجابه:"ليس بيننا خلاف في معالجة أهل الذمة والبهائم، ولكن الذي يجب تقديمه والعمل عليه معالجة الناس قبل البهائم والمسلمين قبل أهل الذمة"[1]، وعليه فبرهم والإحسان إليهم مأمور به وودهم وموالاتهم منهي عنه حسب ما جاء في الآية الكريمة.

حرية العمل والكسب:

بما أنهم في دار الإسلام فقد صاروا في المعاملات كالمسلمين إلا ما ثبت استثناؤه، كعقد الربا فإنه محرم عليهم كالمسلمين، واستثنى بعض العلماء ما يتعاطونه من بيع الخمر والخنزير وأجازه لأثر عن عمر –رضي الله عنه– عندما بلغه أن بعض عماله يأخذون في الجزية الميتة والخنزير والخمر، فقال:" **لا تفعلوا ولكن ولوا أربابها ببيعها ثم خذوا الثمن منهم**"[2].

ولم يكن التشريع الإسلامي يغلق أمام أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال، وكانت قدمهم راسخة في الصنائع والتي تدر الأرباح الوفيرة، فكانوا تجارا وصيارفة وأطباء وأصحاب ضياع، كما تولوا وظائف في الدولة الإسلامية مثل: كتاب الدواوين ووزارة التنفيذ خاصة في زمن العباسيين[3].

واجبات أهل الذمة:

هذه الحقوق التي منحت لأهل الذمة ليست على أساس باب التأبيد، بل يفي لهم بها المسلمون إذا استقاموا على العهد والتزموا الصغار[4] وأقاموا الواجبات، ويمكن إيجاز أهم واجباتهم فيما يلي:

---

1 –ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق وشرح نزار رضا، دار الحياة، بيروت، (د.ت)، ص 301.

2 –الرملي: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، ج 8، ص104، القاسم بن سلام: كتاب الأموال، ص 59.

3 –متز: المرجع السابق، ج1، ص97.

4 –الصغار: معناه التزام أهل الذمة بجريان أحكام الإسلام، ويقول ابن حزم: الصغار هو جري أحكامنا عليهم فإذا تركوا يحكمون بكفرهم فما أصغرناهم بل هم أصغرونا، ابن حزم: المحلى، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ج9، ص 426، الشافعي: الأم، ج4، ص 298، الماوردي: المصدر السابق، ص 182.

دفع الجزية:

وتأتي الجزية كأبلغ تعبير عن قبول حكم الإسلام ولزوم الصغار، بل هي أهم ركن من أركان عقد الذمة وهي ثابتة بالكتاب لقوله تعالى: ﴿ **قَاتِلُواْ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلاَ بِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَلاَ يُحَرِمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَق مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ [1].

والجزية مأخوذة من الجزاء لأنهم لما كفروا وأصروا على الكفر ورضوا بالذلة والصغار، قابلهم المسلمون بإعطاء الأمان، فهي جزاء على كفرهم أو جزاء على بذلنا الأمان لهم[2]، فالجزية إذن هي ضريبة تضرب على رقاب أهل الذمة وتتمثل في مقدار زهيد من المال يدفع نقدا أو عينا، ولا تجب على الرجال الأحرار وتسقط على المرأة والصبي والمجنون والعبد والمريض[3]، كما لا تؤخذ من المسكين الذي يتصدق عليه ولا من الأعمى ولا من الشيخ الكبير الذي لا يستطيع العمل وكذلك المترهبون في أديرتهم.[4]

واختلف الفقهاء في مقدار الجزية وفضلوا أن ينظر لكل بلد إلى حال أهله، أما أبو يوسف فقد صنفهم إلى ثلاثة أصناف:

-أغنياء تؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما.

-وأواسط يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهما.

-وفقراء يؤخذ منهم اثنا عشر درهما.[5]

وتؤخذ منهم كل سنة مرة واحدة بعد انقضائها بالشهور الهلالية، وقد رعي في دفعها اليسر والتقسيط والقدرة[6]، أي رفع المشقة والحرج عملا بتسامح الرسول-صلى الله عليه وسلم- بأهل الذمة بألا يكلف ما فوق طاقتهم، حيث روي عنه قال:"**من ظلم معاهدا**

1 -سورة التوبة: الآية 29.

2 -البهوتي: كشاف القناع عن متن الإقناع، ج3، ص117.

3 -الكاساني: المصدر السابق، ج7، ص 111، ابن قيم الجوزية: المصدر السابق، ج1، ص 119.

4 -أبو يوسف: المصدر السابق، ص 122.

5 - المصدر نفسه، ص 122.

6 -الكاساني: المصدر السابق، ج7، ص 111.

أو انتقصه وكلفه فوق طاقته وأخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة".[1]

وكانت تجمع بالتنسيق مع رؤساء طوائف أهل الذمة حيث كان الجوالي –جامع الجزية–في كل سنة يلزم رئيس اليهود وقسيس النصارى ورئيس السامرة بكتابة أوراق يسمونها الرقاع[2] يحدد فيها أسماء أهل الذمة كل من اهتدى بالإسلام أو هلك بالموت، أو خرج على جهة أخرى أو ترك عملا وما حدث من نوائب.[3]

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن الجزية عدت ذات صبغة سياسية أكثر منها مالية نظرا لقلة مقدارها وإعفاء الكثيرين منها، فكانت في الحقيقة يرمز دفعها من أهل الذمة إلى إخلاصهم للدولة الإسلامية وخضوعهم لأحكامها والوفاء بما عاهدوا عليه.

احترام شعور المسلمين:

إن إظهار شعار الكفر لا يجوز في دار الإسلام مطلقا، وأن يحترموا شعور المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم، وأن يراعوا هيبة الدولة التي تظلهم بحمايتها ورعايتها، ولا يجوز لهم أن يتظاهروا بشرب الخمر وأكل الخنزير والأكل في نهار رمضان، وإسماع المسلمين شركا كالثالث ثلاثة، لما في ذلك من إفساد للمجتمع الإسلامي[4]، وروي عن عمر بن الخطاب أنه أخبر أن ذميا نخس بغلا عليه مسلمة فوقعت فانكشفت عورتها فأمر بصلبه في ذلك الموضع، وقال:"**إنما عاهدناهم على إعطاء الجزية على يد وهم صاغرون** "[5].

التميز عن المسلمين:

ولما كانوا مخالطين للمسلمين فلا بد من تميزهم عنهم، حتى لا يعاملوا معاملة المسلمين في التوقير والإجلال، فيؤخذ أهل الذمة في الإسلام بالتميز في اللباس، بأن يلبسوا الغيار، وهو أن يخيطوا على ثيابهم الظاهرة ما يخالف لونه لونها، وألزم اليهود باللون الأصفر والنصارى بالأزرق، والمجوس بالأسود، وتؤمر الذمية إذا خرجت

---

[1] –البيهقي: السنن الكبرى، كتاب الجزية، ج9، ص 205.

[2] –الرقاع: جمع رقعة وهي قطعة نسخ أو ورقة للكتابة، رفائيل نخلة: غرائب اللغة العربية، ص183.

[3] –النويري: المصدر السابق، ج8، ص 242.

[4] –الرملي: نهاية المحتاج، ج8، ص104.

[5] –القرافي: كتاب الفروق، الفرق ثمانية عشر ومئة، م2، ص699.

بتخالف خفيها ولبس الزنار[1]، وإذا دخل ذمي حماما فيه مسلمون وتجرد عن ثيابه جعل في عنقه أو نحوه خاتم[2].

ولا يساوون المسلمين في الطريق عند المزاحمة ولا يمشون إلا فرادى متفرقين، ويلجؤون إلى أضيق الطرق، ويمنعون من ركوب الخيل، لما فيها من العز والفخر، وإن العز ينافي الذلة المضروبة عليهم في سائر الأمكنة، ولا يعلو في بنيانهم على أبنية المسلمين ومن جاوز ذلك يهدم بناؤه[3].

ويمنعون من اتخاذ السلاح بشتى أنواعه، ومن تعلم الرمي وسائر الفنون القتالية والحربية، لأن تمكينهم من ذلك هو تمكين لهم من إعداد القوة التي ترهب المسلمين، وهذا يتنافى مع مقصود الشارع الحكيم، ولا يكشفوا عورة أو ضعف لأعداء المسلمين[4].

يمنعون من الإقامة بالحجاز:

يمنع أهل الذمة أن يتخذوا أرض الحجاز[5] سكنا أو وطنا، لقوله الرسول–صلى الله عليه وسلم –:"**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**"[6]، أما غير الحرم منه فيمنع الكتابي وغيره من الإقامة، وله الدخول بإذن الإمام لمصلحة كأداء رسالة أو حمل متاع يحتاج إليه المسلمون، وإن دخل لتجارة فيها كثير حاجة لم يؤذن له إلا بشرط أن يؤخذ من تجارته شيئا ولا يمكن الإقامة أكثر من ثلاث أيام[7].

---

1 –الزنار: خيط غليظ فيه ألوان يجعله في الوسط، تشده المرأة في وسطها، الرملي: نهاية المحتاج، ج8، ص103.

2 –أبو زكريا يحي النووي: روضة الطالبين، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، م7، ص513، Louis Gardet : op. cit. p 346 .

3 –الماوردي: الأحكام السلطانية، ص185، Louis Gardet : op. cit. p 348.

4 –الشرواني وابن القاسم: المصدر السابق، ج 12، ص169، وكذلك أبو زكريا يحي النووي: روضة الطالبين، ص513.

5 –الحجاز: تشمل على مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها –قراها –، الاصطخري: المسالك والممالك، ص21.

6 –البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب 6–7، م2، ص399.

7 –ابن قيم الجوزية: المصدر السابق، ج1، ص392–393.

التزام أحكام الإسلام:

الواجب على أهل الذمة أن يلتزموا أحكام الإسلام التي تطبق على المسلمين، لأن بمقتضى عقد الذمة أصبحوا رعية الدولة الإسلامية، فعليهم أن يتقيدوا بقوانينها والتي لا تمس عقائدهم وحريتهم الدينية.

فمن سرق من أهل الذمة أقيم عليه حد السرقة، كما يقام على المسلم، ومن قتل نفسا أو قطع طريقا، أو تعدى على مال، أو زنى بامرأة أو رمى محصنة، أو غير ذلك من الجرائم أخذ بها، وعوقب بما يعاقب به المسلم[1]، وكل ما جاز من بيوع المسلمين وعقودهم جاز من بيوع أهل الذمة وعقودهم، وما يفسد منها عند المسلمين يفسد عند الذميين، إلا الخمر والخنزير عند النصارى فقد استثناهما كثير من الفقهاء باعتقادهم حلهما في دينهم على أن ألا يجاهروا بهما[2].

هذا عن بعض جوانب عقد الذمة والتي لم تحترم قواعده في كثير من الأحيان، حيث كانت علاقة أهل الذمة بالسلطة العباسية متقلبة ولا تستقر على قاعدة تتغير بتغير الخلفاء والعمال، فقد بلغ تسامح بعض الخلفاء مع أهل الذمة إلى حد المبالغة والجور على حقوق المسلمين، مما جعل المسلمين في بعض الأوقات يشكون من تسلط اليهود والنصارى عليهم بغير حق بحكم مراكزهم المتنفذة.

ففي سنة 403هـ توفيت بنت أبي نوح بن أبي نصر بن إسرائيل أحد كتاب النصارى، فأخرجت جنازتها نهارا ومعها الطبول والرموز والصلبان والشموع، فقام رجل من الهاشميين فأنكر ذلك فضربه أحد غلمان أهل الذمة مما تسبب في فتنة أدت إلى تدخل العامة وانتهت بإلزام أهل الذمة الغيار[3]، ويذكر جاك ريسلر أيضا:"أن الذميين بدؤوا سنة 370هـ يتجولون على ظهر الحصان".[4]

كما تحكمت الظروف السياسية والأمنية جانبا في التضييق على أهل الذمة، فقد ألزم المتوكل (232هـ-247هـ) أهل الذمة لبس الغيار ومنع إظهار الصليب وتسوية قبورهم على الأرض، عندما كان يعاني من صراع على السلطة مع الأتراك، فكانت

---

[1] -القرافي: كتاب الفروق، الفرق الثامن عشر ومائة، م2، ص695-696.

[2] - أبو يوسف: كتاب الخراج، ص126.

[3] -ابن الجوزي: المصدر السابق، ج15، ص 91.

[4] -جاك ريسلر: المرجع السابق، ص 148.

إجراءاته هذه إحدى الوسائل التي لجأ إليها تقربا من العامة، والأمر نفسه فعله سلفه الخليفة هارون الرشيد(170هـ-193هـ) عندما كان في مواجهة البزنطيين سنة 191هـ.[1]

وفي ختام هذا الفصل يمكن أن أشير إلى : للمرة الأولى في التاريخ منذ السبي البابلي عام 586ق.م استطاع اليهودي باعتباره مواطنا في الدولة الإسلامية أن ينظم حياته حسب تعاليم التوراة ويفعل ذلك بشكل المشروع يدعمه القوانين العامة للدولة الإسلامية، بل تصون حياته وتدافع عنه ضد أعدائه، كما كان احترام الإسلام للمسيح -عليه السلام- والاعتراف به نبيا وبإنجيله، يعتبر في نفس الوقت حماية لوجود المسيحيين في الدولة الإسلامية، حيث تمتعوا باحترام وحرية لم يعرفوه في عهد روما المسيحية.

كما اعتراف الإسلام بالمجوس كأمة ومنحها حق المواطنة الإسلامية على غرار اليهود والمسحيين بقوله -صلى الله عليه وسلم-:"**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**"[2]، وبذلك فقد شكلت المواطنة بوتقة انصهرت فيها كل الديانات والقوميات التي ذخرت بها الدولة الإسلامية في العهد العباسي وما نتج عن ذلك من تمازج ثقافي وازدهار حضاري.

1 -الطبري: المصدر السابق، ج5، ص ص 5، 304.

2 -البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، م2، ص 395.

الفصل الأول: دور أهل الذمة في الخطط السلطانية

1-الدواوين

2-الوزارة

3-البيوت السلطانية

في القرن الثاني من الهجرة تم نقل مقر الخلافة من دمشق إلى بغداد التي أنشأها الخليفة المنصور عام 145هـ، وانتقلت من خلالها الدولة الإسلامية من دور الفتوح إلى ميدان الحضارة، فلم يتردد خلفاء بني العباس في محاكاة حضارة الفرس والروم في تنظيم دولتهم، وتجاوز الواقع العربي البسيط في تسيير شؤون الدولة الإسلامية وذلك باستخدام نظم إدارية وخطط تنظيمية على غرار الدواوين والوزارة.

1/ الدواوين:

الديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال، وفي تسميته ديوانا وجهان:

أن الديوان كلمة فارسية ومعناها: سجل أو دفتر يعني اسم للشياطين، فسمي الكتاب باسمهم لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجلي والخفي، وجمعهم لما شذ وتفرق واطلاعهم على ما بعد وقرب، ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم فقيل: ديوان.[(1)]

والثاني أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه، فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال: ديوانه: أي مجانين فسمي موضعهم بهذا الاسم، ثم حذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا للاسم فقيل: ديوان.[(2)]

وأن أول من دون الدواوين وصنف طبقات الكتاب هم الفرس القدامى، وأول من دون الدواوين في الإسلام هو عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- المتوفي 23 هـ، ونقل ذلك عن الفرس وسببه أن أبا هريرة -رضي الله عنه- قدم من البحرين بمال كثير فاستكثره عمر -رضي الله عنه - فخطب في الناس قائلا:"إن شئتم كلنا كيلا، وإن شئتم عددنا لكم عدا"، فقام إليه رجلا فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدونون ديوانا لهم، فدون أنت لنا ديوانا، فوافق الخليفة على ذلك.[(3)]

وقد ورث العباسيون دولة مترامية الأطراف كثيرة الخيرات متنوعة الشعوب واللغات، وتعاظمت أعمال الوزراء وأعبائهم مما أدى إلى تعدد وتفرع الدواوين، فديوان للرسائل، وديوان للخراج، وديوان للجيش، ودواوين لشرقي الدولة وغربيها يشرف عليها

---

[1]-الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 249.

[2]-المقريزي: الخطط، ج1، ص 172.

[3]- أبو يوسف: المصدر السابق، ص 45.

ديوان الزمام[1]، كما كان لأولياء العهد وكبار القواد ونساء الخلفاء أيضا دواوين يقوم عليها كتاب ينظرون في الدخل والنفقات.[2]

وتعد الكتابة الديوانية من الأسس الهامة التي يرتكز عليها النظام السياسي للدولة العباسية وقد أخذ شكلا وظيفيا وأصبحت لها قواعدها وأصولها الخاصة بها، واهتمت بها الدولة اهتماما كبيرا، حيث كانت الدواوين في سامراء[3] وبغداد لذلك أشبه بمدرسة فنية كبيرة كان معظم رجالها من أهل الذمة يفد عليها الشباب ويختبرون اختبارا دقيقا فمن نجح في الاختبار وظف فيها، وهو تنافس دفع إلى التثقف وكان عاملا في نشاط الكتابة وصارت أسمى المهن مكانا وأرفع الصنائع رتبة، وأصبحت وظيفة الكاتب نفسها وظيفة الوزير عقل الدولة المفكر وعينها المبصرة وقلبها النابض.[4]

وقد حدد ابن خلدون صفات كاتب الدواوين وميزاته بقوله:"أعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع فئات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العزم وعارضة البلاغة لأنه معرض في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ما تدعو عليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل".[5]

1– ديوان أنشأه الخليفة المهدي عام 162 هـ وولي عليه عمر بن مربع، وكانت مهمته جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعادن وهو يشبه ديوان المحاسبة، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص162.

2–التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه أحمد أمين و أحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت، 1953، ج1، ص 98، فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ط8، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ص 118.

3–سامراء: في الأصل سر من رأى مدينة على شرقي دجلة بين بغداد وتكريت خربت ثم بناها المعتصم ونزلها عام 221هـ، بعد أن ضاقت بغداد بجيوشه الأتراك، وقد سكنها الخلفاء من بعده وعرفت بقصورها الفخمة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 3، ص 195– 196.

4– القلقشندي: المصدر السابق، ج1، ص 66، عثمان موافي: التيارات الأجنبية في الشعر العربي"منذ العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري"، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية،(د.ت)، ص154.

5–ابن خلدون: المقدمة، ط1، دار صادر، بيروت، 2000، ص 184.

وقد قام الخلفاء العباسيون بمحاكاة العجم في ذلك فاشترطوا في منصب صاحب القلم أو الكاتب أن يكون ملما بكثير من العلوم والثقافات الموجودة في عصره، إلى جانب حسن المظهر ونظافة الملبس والذكاء والفطنة وغيرها من الصفات التي تقتضيها مجالس الخلفاء وشؤون السلطنة[1]، باعتباره أنيس حديثهم ومدبر مجالسهم ومحرر ما يصدر عنهم، فكانوا يعهدون هذا المنصب لمن تتوفر فيه جملة من الملكات والصفات أبرزها:

معرفة اللغة العربية ولاذقة اللسان:

ينبغي عليه أن يكون فصيح اللسان طلق العبارة، جيد القراءة حسن البيان، عارف لقواعد اللغة العربية وحسن الخط، لأنه يكتب عن حاكم المسلمين في الأمور الشرعية من منشورات تتصل بالرعية، وولاية العهد، أو بيعة خليفة، أو دعوة للجهاد، كما يستوجب في رسائله الوضوح الموجهة للعامة لكي تفهم دون الحاجة إلى شرح أو بيان، إن كان غير ذلك أخل بالمقصود.[2]

معرفة الفقه:

لا بد من إتقان الفقه ومعرفة أصوله لحاجته إليه في الخراج والمعاملات كالزواج والمواريث ومختلف البيوع، وما شابه ذلك فإن حفظها وتفهم معانيها أغنته عن كثير من التساؤلات[3]، وإن كان عاريا من الفقه وجهله بالعلوم الشرعية كان نقصا منه.

علم الحساب والفرائض:

ينبغي أن يكون على دراية بعلم الحساب والمنطق والهندسة، فلأنه لو وقع في المجلس قسمة شرعية بين ورثة أو شركة ولم تكن له معرفة بهذا العلم كان ذلك عجزا

1– القلقشندي: المصدر السابق، ج1، ص 183، المرادي: كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة، ط1، تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، 1981، ص 107.

2–ابن قتيبة الدينوري: أدب الكتاب، ط1، شرحه وكتب هوامشه علي ناعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، ص 19، ابن دستورية: كتاب الكتاب، ط1، تحقيق إبراهيم السامرائي، عبد الحسن الفتلي، دار الكتب الثقافية، الكويت، 1977، ص 126.

3–القلقشندي: المصدر السابق، ج1، ص 243.

منه وتقصيرا ونقصا في صناعته، وإن اعتمد على غيره صار مقلدا وتابعا ومسطرا بقلمه ما لم يعرفه.[1]

ولحاجة الدولة لمثل هؤلاء الكتاب وصنعتهم فقد استعان العباسيون في ترتيب دواوينهم وتنظيم أركان دولتهم بأهل الذمة، فكانوا أهل معرفة في الحساب والكتابة والخراج فضلا عن العلوم المختلفة، فأطمعوهم بالرواتب والجوائز وسهلوا لهم أسباب المعيشة[2]، حيث كان راتب الكاتب منهم في زمن المنصور (136هـ-158هـ) بثلاثمائة درهم وزاد في خلافة المأمون (198هـ-212هـ) إلى ثلاثة آلاف درهم، وكان منصب الكاتب يؤهل صاحبه إلى الوزارة أو المناصب الهامة الأخرى.[3]

فقد اطمأن كثير من أهل الذمة للدولة الإسلامية بما وجدوه من تسامح فتوافدوا إلى بغداد وخدموا العباسيين بعقولهم وأقلامهم، فكانوا أرباب دواوينهم وخزائنهم وضياعهم وتراجمتهم وسفراؤهم[4]، خاصة أن الكثير منهم درس على يد مدرسين وفقهاء مسلمين، مثل ذلك أن حنين ابن إسحاق[5] درس على يد الخليل بن أحمد[6]

1-ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، ط1، تعليق داني بن منير آل زهوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2003، ج1، ص 44، ابن دستورية: المصدر السابق، ص 128.

2- Armand ABEL : la Polimique damascenienne et son influence sur les origines de la théologie musulmane, l'élaboaration de l'islam ,Colloque de Strasbourg , presses universitaire de France, Paris, 1961, P 70-71.

3-الجهشياري: الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأنباري، عبد الحفيظ شلبي، شركة الأمل للطباعة، القاهرة، 2004، ص 126.

4- Von Grune Baum :l'islam médiéval histoire et civilisation, Payot, Paris, 1962, P190.

5-حنين ابن إسحاق العبادي: ويكنى أبا زيد والعباد نصارى الحيرة، كان فاضلا في صناعة الطب فصيحا باللغة اليونانية والسريانية، والعربية وأكثر نقوله لبني موسى، ابن النديم: المصدر السابق، ص586.

6-الخليل ابن أحمد الفراهيدي البصري الأزدي: سيد أهل الأدب وأول من ضبط اللغة، وكذلك من وضع علم العروض، وله كتاب العين توفي سنة 175هـ، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977، ج2، ص 244.

وسبويه[1] حتى أصبح حجة في العربية[2]، وتتلمذ يحي بن عدي بن حميد[3]، أفقه رجـــال عصره في المنطق على يد الفارابي[4]وكان ثابت بن قرة [5] حسن الخط متمكنا من الآداب وتدل مؤلفاته على عمق تفكيره وقوة معرفته[6].

وكان هؤلاء المتصرفون من أهل الذمة يقسمون اليمين شـــأنهم فـــي ذلـــك شـــأن المسلمون، وأول من استحدث هذا الإيمان الفضل بن الربيع[7] أحدثها كاتب عنده[8]، ومن أبرز الدواوين التي شغلها أهل الذمة:

ديوان الرسائل:

وقد احتل هذا الديوان مكانا مرموقا من دواوين العصر العباسي وســـمي بـــديوان الإنشاء، حيث يشرف على الرسائل الواردة والمرسلة من الخليفة إلى عماله، وليس فـــي منزلة خدم السلطان والمتصرفين أخص من كاتب الرسائل.[9]

1–عمر بن عثمان ابن قنبر أبو بشر سبويه: نشأ في البصرة وبدع في النحو واللغة، توفي بشراز عام 183هـ، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج5، ص 2122.

2–الأصفهاني: الأغاني، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ج8، ص 136.

3–أبو زكرياء يحي ابن عدي المنطقي التكريتي: يعقوبي النحلة، توفي سنة 363هـ، كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج4، ص 120.

4–أبو نصر محمد بن محمد طرخان بن أوزلغ الفارابي: أصله من خرسان من المتقدمين في صناعة المنطق، توفي 339هـ، ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص 153.

5–أبو الحسن ثابت بن قرة ابن مروان ابن ثابت ابن كرايا ابن إبراهيم الصابي: كان صيرفيا بحران وانتقل إلى بغداد وتعلم الفلسفة والرياضيات وبرع في الطب توفي عام 288هـ، ابن النديم: الفهرست، ص 548 ، Chikh Bouamrane, Louis Gardet : Panorama de la pensée islamique, Editions sind bad, Paris, 1984, P 236.

6–ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 295.

7–كان حاجبا للمنصور والمهدي والهادي والرشيد فلما نكب الرشيد البرامكة استوزره بعدهم، وكان الفضل شهما خبيرا بأحوال الملوك وآدابهم، ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1966، ص211.

8–متز: المرجع السابق، ج1، ص 97.

9–القلقشندي: المصدر السابق، ج1، ص 87.

ومن بين الذين برعوا في كتابة الرسائل الديوانية وكانوا أرباب ديــوان الرســائل وتراجمة الخلفاء بنو وهب[1]، حيث كتب الحسن بن وهب[2]، لمحمد بن عبد الملــك بــن الزيات[3]، وولي ديوان رسائله، وكان شاعرا بليغا مترسلا فصيحا وأحد ظرفاء الكتــاب وأفضلهم يحرر الرسائل الرسمية إلى الأمراء والولاة والقضاة، وينشر بين الناس المراسيم والقرارات والبلاغات باسم الوزير أو الخليفة.[4]

وأخوه سليمان بن وهب[5] كان يسجع ويكتب في سن مبكرة حتى صار في جملــة ذي الرياستين الفضل بن سهل[6] وقال في حقه: عجبت لمن معه وهــب كيــف لا تهمــه نفسه، ثم استكتبه أخوه الحسن بن سهل المتوفي عام 230هـ، ولما آلت إليه الوزارة فــي عهد المأمون، قلده كرمان[7] وفارس وأصلح حالهما.[8]

وقال فيه صاحب الفخري[9]: "إنه أحد كتاب الدنيا وعقلائها وصاحب رأيا و فضلا

1-بنو وهب: هم أسرة عريقة في الكتابة تقلدوا المناصب الجليلة والأعمال النبيلة، أصلهم نصارى من جنديسابور، الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت)، م1، ص 367.

2-أبو علي الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين ابن قيس الحارثي: ولد سنة 186هـ وتوفي عام 250هـ، له كتاب ديوان رسائله، الأصفهاني: الأغاني، ج22، ص 533.

3-أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات: رجل من أهل الجبل من قرية يقال لها الدسكرة، كان شاعرا بليغا، ووزر لثلاثة خلفاء المعتصم والواثق والمتوكل، توفي عام 233هـ، ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص 94.

4-ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج3، ص 1019.

5-سليمان بن وهب ابن سعيد الحارثي- أبو أيوب-: من كبار الكتاب، كتب للمأمون وهو ابن أربع عشرة سنة ثم تولى الوزارة للمهتدي ثم المعتمد سنة 263هـ توفي سنة 272هـ، ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص 415.

6-الفضل بن سهل: وزير المأمون سمي ذا الرياستين لجمعه بين السيف والقلم، كان أبوه سهل مجوسيا فأسلم أيام هارون الرشيد، توفي سنة 202هـ، ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص 221.

7-كرمان: بلدة شرقيها أرض مكران وغربيها أرض فارس وشماليها مغارة خراسان وسيجيستان وجنوبها بحر فارس، الاصطخري: المسالك والممالك، ص 97.

8-ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص 415.

9-ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 243.

وأدبا"، وكان يكتب بين يدي يزداد[1]وكان إذا انصرف في الليل إلى داره نـاب عنـه – سليمان بن وهب– في دار المأمون، ويقول سليمان: "بينما أنا نائب عنه في إحدى الليـالي إذ طلبني المأمون فقال لي: أعمل نسخة في المعنـى الفلانـي ووسـع بـين سـطورها وأحضرها لأصلح منها ما أريد إصلاحه، فخرجت سـريعا وكتبـت الكتـاب وبيـضته وأحضرته إليه فلما رآني: قال كتبت مسودة؟ قلت بل كتبت الكتاب فقال: بيـضته؟ قلـت: نعم فزاد في نظره إلي كالمتعجب مني فلما رآه بينت الاستحسان على وجهه ورفع رأسـه إلي وقال: ما أحسن ما كتبت يا صبي ! ولكن أريد أن تقدم هذا السطر وتؤخر هذا السطر وخط عليهما بقلمه فأخذت الكتاب وخرجت وجلست ناحية ثم محوت السطرين وعملت ما أراد وجئته بالكتاب وكان قد ظن أنني أبطله وكتبت غيره، فلما رآه لم يعـرف موضـع المحو فاستحسنه وقال: يا صبي لا أدري من أي شيء أعجب أمن جودة محـوك أم مـن سرعة فهمك أم من حسن خطك أم من سرعتك؟"، وكان ذلك سببا في علو منزلته وصار المأمون لا يجري أمرا إلا قال: هاتوا سليمان بن وهب.

أما عبيد الله بن سليمان[2] كان هو الآخر بارعا في صناعة الكتابة حاذقا لبيبا، كان ينشئ ويكتب الرسائل الديوانية بين يدي أبيه الوزير سليمان في خلافة المهتـدي، ويلقـي برأيه فيما يؤمر بسجعه.[3]

وكان الكاتب منهم لا يزال يلاءم بين اللفظة واللفظة بـل أحيانـا بـين الحـرف والحرف، حتى يأسر العقول والألباب، ولا أدل من ذلك رسالة حسن ابن وهب التي بعثها

---

[1]– هو أبي عبد الله محمد بن يزداد بن سويد: وزير المأمون استوزره بعد أبي عباد ثابت بن يحي، وفوض إليه جميع الأمور وكان شاعرا بليغا، ابن النديم: الفهرست، ص 243.

[2]–عبيد الله بن سليمان بن وهب الحارثي–أبو القاسم–: من أكابر الكتاب تقلد الوزارة في عهد المعتمد ثم المعتضد، واستمرت وزارته عشرين سنة، توفي سنة 288هـ، وهو وزير ابن وزير والد وزير، ابن طباطبا: المصدر السابق، ص249.

[3]–التوحيدي: البصائر والذخائر، ط1، تحقيق وداد القاضي، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج6، ص 135.

للمتوكل (232هـ-247هـ) يهنيه فيها بمناسبة عيد النيروز [1] وكلها دعاء وابتهال.[2]

أما آل ثوابة [3] شأنهم شأن بنو وهب توارثوا ديوان الرسائل منذ أوساط القرن الثالث للهجرة إلى منتصف القرن الرابع للهجرة، وأول من لمع اسمه منهم أبو العباس[4] المتوفي 277 هـ غزرت ثقافته وعهد إليه التصرف في الدواوين الرسمية منذ عصر المهتدي(255هـ-256هـ) وأظهر مقدرة ونبوغا حتى اختير لرئاسة ديوان الرسائل لأوائل عهد المعتمد (256هـ- 279هـ)، وكانت لا تعقد إلا لمن أثبتت كفاءته وعرفت بلاغته[5] فكانت العهود للولاة تصدر عنه، مثل عهد طويل لأحد الولاة من الموفق[6] جاء فيه:"هذا ما عهد به أبو أحمد الموفق بالله ولي عهد المسلمين إلى فلان حين ولاه الصلاة بأهل الري أمره بتقوى الله وطاعته وخشيته ومراقبته في سره وعلانيته وظاهر أمره وباطنه، والعمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه ومن يطعه يتولاه ويكفله، وأن يجعل كتاب الله عز وجل له إماما وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- مثالا، فإن فيهما ضياء ونور وشفاء".[7]

1-النيروز: هو رأس السنة الشمسية عند الفرس، فكان الخلفاء يحتفلون به ويتقبلون الهدايا على طريقة ملوك الفرس، وقيل أول من احتفل به في عهد العباسيين المتوكل(232هـ-247هـ)، القلقشندي: المصدر السابق، ج2، ص 445-446.

2-أبو جعفر أحمد النحاس: عمدة الكتاب، ط1، عناية بسام عبد الوهاب الجاني، دار ابن حزم، بيروت، 2004، ص 379.

3- آل ثوابة: أسرة عريقة في الكتابة ينسبون إلى ثوابة بن يونس الذي يعرف بلبانة كان حجاما أصلهم نصارى، خرج منهم الكثير من الكتاب البلغاء، ابن النديم: الفهرست، ص 252.

4-أحمد بن محمد بن ثوابة بن يونس أبو العباس: الكاتب النصراني النحلة له كتاب رسالته في الخط والكتابة توفي عام 277هـ، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج1، ص 436.

5- الأصفهاني: المصدر السابق، ج20، ص 69.

6- الموفق طلحة الناصر لدين الله -أخو الخليفة المعتمد-: الغالب على أموره في الأمر والنهي والمتصرف في ترتيب الوزراء والأمراء وقواد الجيش-كان شريكا لأخيه المعتمد في الحكم والسكة-، ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 245.

7-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط1، القاهرة، مصر، 1981، ج4، ص 635.

ويلاحظ من رسالته دقة ألفاظه وحسن بلاغته وتمكنه من قواعد الفقه حتى يخيل للمرء أنها صادرة عن فقيها مسلم، حيث لم تمنحه نصرانيته من التبحر في الفقه الإسلامي وحفظ القرآن الكريم للاستشهاد به في رسائله ويظهر ذلك واضحا بدعوة الوالي بحسن معاملة رعيته وأخذهم بالعدل والإنصاف وإحقاق الحقوق وإقامة الحدود بما أنزل الله، وكيف لا وهو يخاطب ولاة المسلمين عن خليفة المسلمين.

وأخوه جعفر بن محمد بن ثوابة[1] فقد استخلفه عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد(256هـ-279هـ) على ديوان الرسائل فصار كالمتقلد له لكثرة استخدامه له فيه[2]، وخلفه على رياسة هذا الديوان ابنه محمد بن جعفر بن ثوابة[3]، كان بليغ منشئ فاضل القائم على ديوان الرسائل لعهد المقتدر (295هـ-320هـ) فكان ينشئ ويسجع باسم الخليفة[4] وما يصور ذلك منشور وجهه باسم الخليفة إلى العمال في البلدان المختلفة ينوه فيه بابن الفرات[5] في وزارته الثانية سنة 304هـ يقول: "لم يجد أمير المؤمنين غنى عنه ولا للملك بدا منه، وكان كتاب الدواوين على اختلاف اقتدارهم مقرين برياسته معترفين بكفايته متحاكمين إليه إذا اختلفوا".[6]

1-جعفر بن محمد بن ثوابة أبو الحسن: مترسلا بليغا توفي عام 284هـ، الصفدي: كتاب الوافي بالوفيات، اعتناء إحسان عباس، دار صادر، بيروت،(د.ت)، ج7، ص 369.

2-ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج2، ص 792.

3-محمد بن جعفر بن ثوابة بن خالد: أحد الكتاب البلغاء الفضلاء، توفي سنة 312هـ، الصفدي: المصدر السابق، ج2، ص 300.

4-الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري، ط2، تحقيق ألبرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1961، ص 20.

5-هو علي بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات، أبو الحسن: وزير المقتدر وزر له ثلاث دفعات الأولى سنة 296هـ، ثم عاد إلى الوزارة سنة 304هـ، ثم عزل سنة 306هـ، ثم عاد إليها سنة 311هـ، وبقي وزيرا حتى قبض عليه وقتل سنة 312هـ، الصابي: الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، (د . ط)، القاهرة، مصر، 1958، ص ص11، 290.

6-ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج6، ص 2470.

كما كانت كلمته مسموعة ونافذة عند الخليفة المقتدر، فلما رأى فساد تدبير الوزير الحاقاني[1] لأمر الوزارة تقرب إلى الخليفة برقاع أوصلتها أم موسى[2] يذكر فيها بسوء تدبيره للأمور وتبديده للأموال السلطانية، وكثرة توليته للعمال ويستخرج منهم أموالا-قيل أنه ولي في اليوم الواحد تسعة عشر ناظرا للكوفة وأخذ من كل واحد رشوة-، فقبض عليه المقتدر وحبسه.[3]

وتولى بعده ابنه أحمد بن محمد[4] ديوان الرسائل في عام 312هـ أيام المقتدر ولم يزل يشغله إلى أن مات أيام المطيع لله[5] عام 349هـ[6] وكان أحد البلغاء والفهماء وقد أثنى عليه الوزير علي بن عيسى[7] قائلا: "ما أحد على وجه الأرض أكتب من جدك وكان أبوك أكتب منه وأنت أكتب من أبيك"[8]، وبعد وفاته خلفه على ديوان الرسائل أبو إسحاق

1- أبو علي محمد عبيد الله بن يحي بن حاقان: استوزره المقتدر بعد خلع ابن الفرات في وزارته الأولى 299هـ، وكان يتولى ديوان الضياع بعد وفاة أبيه، وكان سئ السيرة والتدبير، الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري، ص 11.

2- أم موسى القهرمانة: امرأة أديبة ذات مكر ودهاء وفطنة، وقد جعلها المقتدر قهرمانة داره سنة 298هـ، فكانت تؤدي الرسائل من المقتدر وأمه إلى الوزراء ولها كلمة نافذة وتمكنت من الدولة وأثرت ثراء كبيرا مما دفع المقتدر إلى السخط عليها سنة 310هـ، زينب العاملي: معجم أعلام النساء، ط1، تحقيق منى محمد زياد الخراط، مؤسسة الريان، بيروت، 2000، ص111.

3-مسكويه: تجارب الأمم، اعتنى بتصحيحه هـ، ف، مدروز، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، (د.ت)، ج1، ص 24.

4- أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوابة-أبو عبد الله-: الكاتب توفي سنة 349هـ، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج7، ص370.

5- أبو القاسم الفضل بن المقتدر: بويع سنة 334هـ وفي أيامه رد الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة سنة 339هـ بأمر من الخليفة الفاطمي المنصور، وكان أمره ضعيفا توفي عام 364هـ، ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 279.

6- الهمداني: المصدر السابق، ص ص 158 ، 178.

7- هو أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح: وزر للمقتدر ثلاث دفعات وعزل آخرها عام 316هـ، كان بمنزلة من الرياسة يجل وصفها، كاتبا فاضلا توفي عام 334هـ، له كتاب ديوان الرسائل، سيرة المملكة والخلفاء، ابن الند يم: المصدر السابق، ص 251.

8- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج2، ص484.

الصابي[1] وكان هو الآخر أديبا بارعا فاضلا عالما بالهندسة لكن غلب عليه صناعة الإنشاء، فقد كتب عن عز الدولة بختيار بن بويه الديلمي[2] وتقلد ديوان رسائله عام 349هـ وكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة بن بويه[3] بما يؤلمه.[4]

وكان المهلبي[5] لا يرى إلا به الدنيا ويحن إلى براعته ويستدعيه في أوقات أنسه ويأخذ رأيه ويحفظ أكثر أشعاره، وقد عرض عليه عز الدولة بختيار الوزارة إن أسلم فلم يفعل، فكان من نساك أهل دينه–الصابئة– وكان يخدم الملوك والأكابر أرفع خدمة ويحفظ القرآن ويوظفه في رسائله[6] والتي شملت على مراسلات كتبها عن لسان ولاة الأمر في عصره من ملوك آل بويه وغيرهم، في وصف الوقائع الحربية منها رسالة كتبها إلى ركن الدولة[7]، سنة 364هـ شرح فيها فتح بغداد وانهزام الأتراك، ورسائل عن عهود

---

[1]– أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن هارون الصابي: مترسل بليغ له كتاب ديوان الرسائل توفي عام 380هـ، ابن النديم: المصدر السابق، ص 259.

[2]– أبو منصور بختيار عز الدولة بن أبي الحسن أحمد معز الدولة بن بويه: خلف والده في حكم العراق عام 356هـ، وقتل في معركة التي جمعته بعضد الدولة سنة 367هـ، التنوخي: نشوار المحاضرة في أخبار المذاكرة، ط2، تحقيق عبود الشالجي المحامي، دار صادر، بيروت، 1995، ج1، ص 278.

[3]– هو أبو شجاع فناخسرو بن أبي علي ركن الدولة الحسن بن بويه كان يلقب بشاهنشاه: دخل بغداد فاتحا عام 367هـ واستقبله الخليفة الطائع لله، فعمر بغداد بعدما خربتها الفتن، توفي عام 372هـ، المصدر نفسه، ج1، ص 25.

[4]– ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص 52.

[5]– الحسن بن محمد عبد الله ابن هارون أبو محمد الوزير المهلبي: كان كاتب معز الدولة بن بويه، ولمما مات الصيمري قلده معز الدولة الوزارة مكانه سنة 339هـ توفي عام 352هـ، الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص ص 353 ، 357.

[6]– الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ط2، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، 1973، ج2، ص 242–243.

[7]– أبو الحسن بن بويه بن فناخسرو الديلمي: من كبار الملوك في الدولة البويهية، صاحب أصبهان والري دام ملكه أربع وأربعين سنة توفي بالري عام 366هـ، التنوخي: نشوار المحاضرة، ج1، ص 325.

وتقليدات رسمية للولاة أو العمال أو القضاة، وأمراء الحج والقواد[1]، أما سعيد بن إبراهيم[2] فكان يكتب لعلي بن الفرات وكان من خاصته لا يبرح مجلسه، وكان يدعوه إلى طعامه في بيته ويستأنس بحديثه رفقة مجموعة من الكتاب النصارى.[3]

ديوان التوقيع:

وهو خاص بالنظر في المظالم ورقاع أصحاب الشكوى وغيرها من المسائل التي تحتاج لعرض الخليفة لأخذ رأيه فيها، وكان من عادة ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا عليها بعبارات موجزة بليغة، فجاراهم خلفاء بني العباس ووزرائهم في هذا الصنيع فأطلقوا أيدي كتابهم وأطبائهم من أهل الذمة، ويستشيرونهم في مهام أمورهم الإدارية والسياسية بل كلفوهم التوقيع عنهم.[4]

فكان المعتصم (218هـ-227هـ) فقد استطب سلمويه[5] وبلغ إكرامه إياه أنه كان إذا ورد إلى الخليفة كتاب يقتضي توقيعا وكان سلمويه حاضرا أمره أن يوقع عنه بخطه، وكل ما كان يرد على الأمراء والقواد من خروج أمر أو توقيع من الخليفة فبخط سلمويه، وكان المعتصم يسميه أبي ولما قتل سلمويه عاده المعتصم وبكى عنه وامتنع عن أكل الطعام[6]، وفي عهد الخليفة المعتضد بالله (279هـ-289هـ)، كانت التوقيعات تخرج بخط داود بن ديلم[7] وذلك لمنزلته من الخليفة وعلو مكانته عنده[8]،كما جعل هارون

---

[1]- الصابي: المختار من رسائل الصابي، نقحه وعلق عليه شكيب أرسلان، دار النهضة الحديثة، بيروت، ص ص18، 76، 292.

[2]- سعيد بن إبراهيم بن التستري، يكنى أبا الحسن: نصراني النحلة من صنائع بني الفرات، له كتاب الرسائل والمقصور والممدود على حروف المعجم، ابن النديم: المصدر السابق، ص 259.

[3]- الصابي: الوزراء، ص ص 39 ، 261.

[4]- ابن خلدون: المقدمة، ص 184.

[5]- سلمويه بن بنان: طبيب المعتصم نصراني النحلة محمود السيرة وافر العقل، كان أعلم أهل زمانه بصناعة الطب توفي عام 225هـ، ابن النديم: المصدر السابق، ص 591.

[6]- ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص 234.

[7]- داود بن ديلم: من أشهر الأطباء المتميزين في بغداد خدم المعتضد بالله وتوفي سنة 329هـ، المصدر نفسه، ص 316.

[8]- المصدر نفسه، ص 316.

الرشيد (170هـ-193هـ) جبرائيل بن بختشوع[1] رئيسا على جميع الأطباء في بغـداد، وقال لأصحابه:"كل من كانت له إلي حاجة فليخاطب بها جبرائيل لأني أفعل كل ما سيأتي فيه ويطلبه مني"، فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم.[2]

وقد بلغ إكرام الرشيد له أنه دعا له وهو في الموقف بمكة دعاء كبيرا، فأنكر عليه بنو هاشم ذلك وقالوا: "يا سيدي ذمي"، فقال: "نعم ، ولكن صلاح بدني وقوامه به وصلاح المسلمين بي، فصلاحهم بصلاحه وبقائه" فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين.[3]

كما كان الوزير أبو العباس الخصيبي[4] منغمسا في لهوه وشراب الخمر، فيتـرك فض الكتب الواردة من عمال الخراج وقراءتها والتوقيع عليها وإخراجها إلى الدواوين إلى كاتبه أبو الفرج إسرائيل النصراني ويوقع فيها حسب ما يرى، وكانت الجوامع تعمل بخط أبي سعيد بن إبراهيم بن طازاذ الكاتب النصراني فتبقى أياما في حـضرته[5]، أمـا أبـا الحسن بن ثوابة فقد أفض إليه الوزير الخصيبي بأن يقرأ قصص المتظلمين ويوقع عنـه فيها في غير يوم المظالم[6]. أما الخليفة الراضي (322هـ-329هـ) فكان يستشير كاتبه النصراني أبي الحسن سعيد بن سنجلا في كل أمر يعقده، وكان أخص الناس بـه ويوقـع عنه، وقلده سنة 323هـ ديوان الزمام.[7]

1- جبرائيل بن بختشوع بن جورجيوس: طبيب هارون الرشيد وكاتبه وجليسه ونديم أوقاته، كما خدم الأمين والمأمون من أسرة آل بختشوع من جنديسابور عريقة في الطب توفي عام 213هـ ودفن في دير مارجرجيس بالمدائن، نضال نصر الله: معجم الأطباء: ط1، دار الريان الجامعية، بيروت، 2004، ص 38.

2- ابن العبري: تاريخ الزمان، ترجمة الأب إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت، 1991، ص 43.

3- ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص 192.

4- أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن الخصيب: ولي الوزارة للمقتدر في سنة 312هـ بعد صرف يحي بن حاقان وعزل وقبضـت أموالـه عام 314هـ، ابن طباطبـا: المصـدر السابـق، ص 263-264، وأيضا الصابي: الوزراء، ص 98.

5- مسكويه: تجارب الأمم، ج1، ص 143.

6- المصدر نفسه، ص 144.

7- الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي، ط3، اعتنى بالطبعة ج. هيورث. دن، دار المسيـرة، بيـروت، لبنـان، 1983، ص ص 61 ، 98 ، 107.

ديوان بيت المال:

وهو أصل الدواوين ومرجعها وفيه تثبت أصول وإيرادات الأموال السلطانية على أصنافها من مكوس وغنائم ومصادرات وخراج، وكان في بغداد ديوانان لبيت المال الأول: ديوان بيت المال العام، وهو خزانة الدولة وتنفق أموالها على إعداد الجيوش ودفع رواتب الموظفين وغير ذلك، والثاني: ديوان بيت المال الخاص وهو خزانة الخليفة[1]

وكان لكل ولاية من الولايات العباسية بيت للمال ترسل الفائض من الأموال إلى بيت المال المركزي ببغداد، وكانت هذه الأموال ترسل عينا أو نقدا، وكان لصاحب هذا الديوان دفاتر تضم كافة ما يرد إلى بيت المال وما يخرج منها من وجوه النفقات تعرف بالروزنامج[2] والختمة[3]، ترفع إلى الوزير أو الخليفة لمراقبتها.[4]

وقد عنى الخلفاء العباسيون عناية كبيرة بديوان بيت المال وانتدبوا إليه أمهر الكتاب، لأن الدخل والخرج مبني على قدر كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال.

فاختص اليهود والنصارى عن غيرهم بمهنة الجهبذة[5] فكانوا أرباب ديوان بيت المال، فكانت الدولة توكل لهم مهمة العمل في بيت المال لخبرتهم الواسعة في جباية

1- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 266-267، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: المرجع السابق، ص 95.

2- الروزنامج: هو كتاب يجرى فيه ما يطلقه وينفقه الكاتب في كل يوم، مسكويه: المصدر السابق، ج1، ص152.

3- الختمة أو الجامعة: كتاب يقدم حساب آخر السنة، المصدر نفسه، ص 152، منز: المرجع السابق، ج1، ص 190.

4- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 170، مسكويه: المصدر السابق، ج1، ص 150-151.

5- الجهبذة: جهبذ أصلها كهبد، كلمة فارسية تطلق على الخبير العارف بخصائص النقود الجيدة منها والرديئة، وكانت الدولة العباسية قد عهدت لهؤلاء بتميز الزائف من النقود التي تجبيها مقابل رواتب لهم عن خدماتهم لبيت المال، الأب رفائيل نخلة اليسوعي: غرائب اللغة العربية، ص 224، التنوخي: نشوار المحاضرة، ج1، ص 41، الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج1، ص 352.

الأموال، فقد قلد المعتصم المتوفي عام 227هـ إبراهيم بن بنان النصراني –أخو سلمويه الطبيب– منصب خازن لبيوت الأموال في البلاد وخاتمه مع خاتم الخليفة.[1]

كما تقلد اصطفن بن يعقوب النصراني المتوفي عام 324هـ بيت المال الخاصة في خلافة المقتدر (295هـ–320هـ) والراضي (322هـ–329هـ) وكان يملك من النفوذ والحضوة في قصر الخلافة مما جعله مقصد الطالبين والطامعين في المناصب، وكان رزقه قد بلغ أربعين دينارا في وزارة ابن الفرات الثانية سنة 304هـ[2]، أما إبراهيم بن أيوب الكاتب النصراني فقد تولى النظر في بيت المال يوم بيوم في وزارة علي بن عيسى الثانية للمقتدر عام (315هـ–316هـ)، كما عهدت إليه أمور الجهبذة والأرزاق في ديوان بيت المال في وزارة محمد بن مقلة[3](316هـ–318هـ) في عهد المقتدر[4]، كما تولى إسحاق بن علي بيت المال في وزارة الحاقاني[5] للمقتدر عام (312هـ–313هـ) وكان على قدر كبير من المكانة والمنزلة إلى درجة أن أحمد الخصيبي لم يقبل بالوزارة عام 321هـ حتى يتم القبض على هذا الأخير وعزله.[6]

وقد عاتب الخليفة المعتضد (279هـ–289هـ) يوما كاتبه النصراني عبيد الله بن سليمان بعدما بلغه من استياء العامة لكثرة استخدامه لكتاب من أهل الذمة في ديوان بيت المال، فرد عليه:"ما وليت نصراني سوى عمر بن يوسف للأنبار والجهابذة يهود ومجوس وقد اعتمدت عليهم لثقتهم لا ميلا لهم، فأجابه الخليفة: إذا وجدت نصرانيا يصلح لك

1– ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 234.

2– الصابي: كتاب الوزراء، ص 158، كذلك الصولي: أخبار الراضي والمتقي، ص 71.

3– أبو علي محمد بن علي بن حسين بن مقلة: استوزره المقتدر عام 316هـ ثم عزل ثم أعيد في عهد الراضي، ثم حبس وقطعت يده اليمنى وظل في السجن، توفي سنة 328هـ، ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 270–272، الصولي: المصدر السابق، ص 5، 7.

4– جان موريس فييه: المرجع السابق، ص 197.

5– أبو العباس عبيد الله بن يحي بن حاقان: استكتبه المتوكل عام 236هـ ، وكان حسن الخط وله معرفة بالحساب تولى الوزارة أيام المعتمد (256هـ–279هـ)، توفي عام 263هـ، ابن الأثير: المصدر السابق، ج6، ص 39، ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 238ن ابن الجوزي: المصدر السابق، ج5، ص 45.

6– جان موريس فييه: المرجع السابق، ص 202 –203.

فاستخدمه فهو أمن من اليهود"[1]، كما استعان الوزير علي بن الفرات بالجهبذين يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران اليهوديان، وأجبرهما علي بن عيسى على ضمان جهبذة الأهواز.[2]

ولعل ما يمكن الوقوف عليه من خلال هذه الشواهد أن دواوين الدولة الإسلامية لم تكن قادرة للاستغناء على خدمات نخب أهل الذمة ولاسيما في ديوان بيت المال، لما يتطلبه من معرفة ودراية بتداول الأموال، ولعل السبب نفسه الذي جعل الخليفة المقتدر يصدر أمرا سنة 296هـ بألا يستخدم أحد من أهل الذمة إلا في الجهبذة والطب.[3]

ديوان الجيش:

ويعد من أكبر دواوين الدولة، وتطور بتطور الدولة الإسلامية، يختص بإحصاء عدد الجند وترتيب أمورهم وتوفير أعطياتهم، كما يراعى الانتظام في ديوان الجند والتفرغ التام للجندية والدفاع عن ثغور الدولة وحماية بيضة الإسلام، وكان صاحب الديوان من كبار رجال الدولة.[4]

ورغم أهمية هذا المنصب وحرمته فقد تقلده عدد من النصارى، حيث قلد الناصر لدين الله إسرائيل النصراني، كما قلد المعتضد بالله (279هـ-289هـ) مالك بن الوليد النصراني، وربما عظمت مرتبة صاحب هذا الديوان وهو نصراني حتى يتسابق أكابر رجال الدولة إلى تقبيل يده، ويظهر ذلك لما ولي أبو الحسن بن الفرات الوزارة الثالثة عام 311هـ قلد ديوان جيش المسلمين رجلا نصرانيا، فرد عليه علي بن عيسى قائلا:" ما اتقيت الله جعلت أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمثلون أمره".[5]

1- جان موريس فييه: المرجع السابق، ص 180.

2- الصابي: الوزراء، ص 90.

3- ابن ثغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط1، علق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج3، ص 165، ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص127.

4- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 254.

5- الصابي: الوزراء، ص 109.

ولعل من بين الشواهد الدالة أيضا على تكاثر أهل الذمة في ديوان الجيش ما قام به الخليفة المأمون (198هـ-218هـ) بعزل جماعة من اليهود كانوا يشغلون ديوان الجيش حين بلغه تطاول بعض النصارى على رجال العلم في بغداد.[1]

ديوان البريد:

والبريد كلمة فارسية يراد بها البرد وأصلها بردة أي محذوف الذنب، لأن أذناب خيل الرسل كانت مقطوعة لتميزها عن الخيل الأخرى ولتميز راكبها بأنه رسول دولة[2]، وفي المسافة يطلق على اثني عشرة ميلا[3]، لأن المسافة التي كانت بين البريد وبريد هي هذه القدر.[4]

وقد استحدث نظام البريد بعد اتساع الدولة الإسلامية وضرورة الاتصال بين مراكز الخلافة وسائر الأقاليم للوقوف على الأحداث ومجريات الأمور وأصبح نظاما يستفاد منه في الحالات العسكرية والحربية والرحلات السريعة[5]، واهتمت الدولة الإسلامية بصاحب البريد ورفعت من شأنه، فهو كاتم وخازن أسرار الدولة، فضلا على أنه يصل الدولة بأطرافها ويرسل أخبار الأقاليم على كافة أنواعها إلى الخليفة، وكان صاحب البريد يدخل إلى الخليفة ولا يؤخر وذلك لاحتمال أهمية وخطورة ما يحمل وغالبا ما كان صاحب ديوان الإنشاء يقوم بوظيفة صاحب البريد[6]، وأبرز من تولى ديوان

1- جان موريس فييه: المرجع السابق، ص 118.

2- ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص 83، الزبيدي: تاج العروس، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج2، ص 398.

3- الميل: يساوي أربعة آلاف ذراع، ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص 86، وفي لغة اليوم 1609متر، إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا، 1989، ج2، ص 894.

4-ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 112.

5- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة، القاهرة، 2001، ج4، ص 327.

6- فتحية النبراوي: المرجع السابق، ص 120.

البريد من أهل الذمة الحسن بن وهب الكاتب المتوفي عام 250هـ أيام المتوكل، فكان عين الخليفة يأتي بأخبار القواد ورجال الشرطة وعمال الخراج.[1]

ولما كان المعتصم منصرفا إلى عمورية[2] كان أخوه العباس بن المأمون والقائد عجيف يدبران لقتله، فاطلع المعتصم على المكيدة بواسطة كاتب نسطوري عنده[3]، كما تمكن الخليفة القاهر (320هـ-322هـ) التخلص من مؤنس المظفر[4] عام 321هـ بعد أن حمل له الكاتب هارون بن بشر النصراني خبر مكان تواجده.[5]

وعليه فقد استطاع هؤلاء المتصرفون أو الكتاب من أهل الذمة بفضل مراكزهم المتنفذة في الدولة العباسية الإطلاع على الأخبار وكشف أو تدبير المؤامرات والدسائس التي كانت تطال رجال الدولة، ومن بين الشواهد الدالة على علو مكانة هؤلاء الكتاب وارتفاع منزلتهم عند رجال الدولة، أن كان ابن الفرات في وزارته الثانية (304هـ-306هـ) يدعو أربعة منهم إلى طعامه كل يوم وكانوا في جملة الكتاب التسعة الذين اختص بهم.[6]

ولما أراد المقتدر أن يستوزر الحسين بن القاسم[7] عام 319هـ أمره أن يتقرب من كتاب النصارى ويصلح ما كان بينه وبينهم فكان يقول لاصطفن كاتب مؤنس:"إن

1- الكتبي: فوات الوفيات، ج1، ص 367.

2- عمورية: بلد من بلاد الروم غزاه المعتصم سنة 223هـ، بسبب أسر العلوية واستصراخها، وكان فتح عمورية من أعظم فتوح الإسلام، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 178.

3- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، دار الأفاق ، ط1، القاهرة، مصر، 2001، ص 33.

4- مؤنس المظفر: أمير الجيوش كان إليه أمر الدولة في زمان المقتدر وهو الذي قتل ابن المعتز، وتولى الفداء عن المسلمين ضد الروم سنة 297هـ، وقتله القاهر سنة 321هـ، التنوخي: نشوار المحاضرة، ج1، ص 261، كذلك ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص 279.

5- جان موريس فييه: المرجع السابق، ص 202.

6- الصابي: المصدر السابق، ص 261.

7- الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، يكنى أبو جمال: كان وزير المقتدر وأبوه القاسم وزير المعتضد، ولما ظهر للمقتدر عجزه قبض عليه وصادر أمواله، ولما تولى ابن مقلة الوزارة تقدم بقتله عام 319هـ، ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 228.

تقلدت الوزارة فأنت قلدتنيها"[1]، وفعل كذلك مع غيره من الكتاب، فكان يقول لهم: "إن أهلي منكم وأجدادي من كباركم وإن صليبا سقط من يد عبيد الله بن سليمان جدي في أيام المعتضد، فلما رآه الناس قال: هذا شيء تتبرك به عجائزنا فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم".[2]

أما أبو نوح عيسى بن إبراهيم النصراني كاتب موسى بن بغا الكبير[3]، كانت الأعمال كلها إليه وصار بمثابة الوزير وقد ساهم في وضع صاعد بن مخلد[4] على باب الوزارة عام 251هـ[5]، وكذلك سلمة بن سعيد الذي صار كاتب مخارق الصقلبية أم الخليفة المستعين التي كانت تضع أو تصنع بابنها ما تشاء وتدير شؤون الدولة من خلال كاتبها النصراني.[6]

وإن كان تعاظم عدد كتاب النصارى في دواوين الدولة تسبب في إزاحة الكتاب المسلمين، وزادتهم المراكز المتنفذة تكبرا وترفعا، إلا أنه في نفس الوقت أحدثوا تحولا هاما في التنظيم المؤسساتي للدولة وأضفوا على خططها نوع من المهنية والتخصص إلى حد استطاعت الدولة بسط نفوذها على أقاليمها المترامية ومواردها المتعاظمة.

1- مسكويه: تجارب الأمم، ج1، ص 218.

2- متز: المرجع السابق، ج1، ص 152، جان موريس فييه: المرجع السابق، ص 183.

3- موسى بن بغا الكبير: أحد القادة الأتراك الكبار وهو ابن خالة المتوكل وكان الحكم إلى أبيه بغا الكبير، ولما مات بغا في عهد المستعين ولي ابنه موسى بن بغا على جميع أعمال أبيه وأضيف لها ديوان البريد، ابن الأثير: المصدر السابق، ص ص 98 ، 118، 144 .

4- صاعد بن مخلد أبو العلاء: كان نصراني فأسلم ويلقب بذي الوزارتين إشارة إلى توليه وزارتي المعتمد والموفق، المسعودي: مروج الذهب، ج4، ص 236-237، ابن الأثير: المصدر السابق، ج7، ص 367.

5- التنوخي: نشوار المحاضرة، ج8، ص 82، ابن الأثير: المصدر السابق، ج7، ص 98.

6- الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص 358.

2- الوزارة:

عرف ابن خلدون الوزارة فقال:" هي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكيـــة، لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة"[1]، واختلف في اشتقاق معنى لفظ الوزارة إلى ثلاثة أوجه:
الأول: أن هذا اللفظ مأخوذ من الوزر بفتح الواو والزاي وتعني: الملجأ، وأن الوزير هو ملجأ الملك من حيث لجوءه إلى مشورته ورأيه ومعونته، وقد يكون سبب هذه التسمية لجوء الرعية للوزير لقضاء الحوائج[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ لاَ وَزَرَ** ﴾ [3] أي: لا ملجأ وهو الحصن والجبل والمنجي.[4]

وقال ابن منظور:" الوزير الملجأ وأصلها الوزر الجبل المنيع وكل معقــل، الــذي يعتصم به لينجى من الهلاك، وكذلك وزير الخليفة معناه: الذي يعتمد على رأيه في أموره ويلتجئ إليه"[5]، والمعنى نفسه عند الشوكاني بقوله: "الوزير في اللغة ما يلجأ إليه الإنسان من حصن أو جبل أو غيرهما".[6]

والثاني: أن هذا اللفظ مأخوذ من الأزر وهو الظهر، فهو للملك كالظهر للبدن يشده ويقويه[7]، ومنه قوله تعالى:﴿ **وَٱجْعَل لي وَزِيراً منْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي** ﴾ [8].

ومنه آزره إذا أعانه وقواه وسمي الإزار إزارا لأنه يشد به الظهــر، وقيــل مــن الموازرة وهي المعاونة، والموازرة مأخوذة من إزار الرجل وهو الموضع الــذي يــشده الرجل إذا استعد لعمل أمر صعب.[9]

1-ابن خلدون: المقدمة، ص 146.

2-الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 28،القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص 421.

3-سورة القيامة: الآية 11.

4-الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج29، ص 181.

5-ابن منظور: لسان العرب، ج5، ص 282.

6-الشوكاني: الفتح القدير، دار الفكر، بيروت،(د.ت)، ج5، ص 337.

7-الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 28.

8-سورة طه: الآية 29-31.

9-الرازي: التفسير الكبير، ط1، درا الكتب العلمية، بيروت، 1990، ج11، ص 44.

الثالث: أن هذا اللفظ مأخوذ من الوزر بكسر الواو وهو الثقل، لأنه يحمل على الملك أثقاله[1]، وقال القرطبي: "الوزر: الثقل والمثقل والجمع أوزار ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ** ﴾ [2]، أي أثقال ذنوبهم، وقد وزر إذا حمل فهو وازر ومنه وزير السلطان يحمل ثقل دولته".[3]

ويتحصل من كل هذا أن كلمة الوزير جامعة لهذه المعاني كلها، فالوزير عون على الأمور وشريك في التدبير وظهير في السياسة وملجأ عند النازلة، وقد أحسن الماوردي في وصف طبيعة منصب الوزير حين قال:"وأنت أيها الوزير في منصب مختلف الأطراف تدبر غيرك من الرعايا وتتدبر بغيرك من الملوك، فأنت سائس ومسوس تقوم بسياسة رعيتك وتنقاد لطاعة سلطانك، فتجمع بين سطوة مطاع وانقياد مطيع".[4]

وقد عرفت الدولة الإسلامية نظام الوزارة في العصر العباسي بعد أن استفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت، وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة[5]، حيث قال صاحب الفخري[6]:"الوزارة لم تتمهد قواعدها وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس، فأما قبل ذلك فلم تكن متقنة القواعد ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجة والآراء الصائبة، فكل منهم يجري مجرى الوزير، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيرا".

وعليه فإن الوزارة بمعناها الاصطلاحي الخاص كانت معروفة ومعمولا بها في العصر الأول من الدولة الإسلامية، فكان الكاتب والمشير يؤديان وظيفة الوزير الاصطلاحية خاصة في العهد النبوي والراشدي، وأن مهام الكاتب في دولة بني أمية قد انتقلت إلى الوزير مع وظائف أخرى في الدولة العباسية.

1- النويري: المصدر السابق، ج6، ص 93.

2-سورة الأنعام: الآية 31.

3-القرطبي: المصدر السابق، ج10، ص 230.

4-الماوردي: أدب الوزير، تحقيق محمد سليمان داود، فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، (د.ت)، ص47-48.

5-ابن خلدون: المقدمة، ص 177.

6-ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 150.

وظل منصب الوزارة يعظم تارة ويضعف تارة أخرى إلى درجة يصعب فيها نفوذ الخليفة نفسه، وقد حاول ابن خلدون رد سبب انقسام الوزارة وإيجاد منصب وزير التفويض فقال:"ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان وتداول فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى، وصار الوزير إذا استبد محتاجا إلى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصبح الأحكام الشرعية وتجئ على حالها، فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة التنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائما على نفسه، وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبدا عليه".[1]

وواضح من كلام ابن خلدون أن سبب ظهور وزارة التفويض هو الاستبداد على الخليفة، وإن كان تطاول بعض الوزراء على الخليفة سببه ضعف هذا الأخير، فوزارة التفويض في عهد الخليفة هارون الرشيد على الأقل لم تكن عن ضعف بل عن طواعية.

فوزارة التفويض: تقوم على تصرف الوزير المطلق في شؤون الدولة بعد أن يكون الخليفة بنفسه فوض إليه ذلك –ومن هنا جاءت التسمية–، بحيث يجوز للوزير أن يحكم بنفسه وأن يقلد الحكام كما يجوز ذلك للخليفة والنظر في المظالم والتصرف في أموال بيت المال وتولي الجهاد، وبذلك فهي تجمع بين كفايتي السيف والقلم، ويشترط أن يكون الوزير من أهل الكفاية.[2]

أما وزارة التنفيذ: ويطلق عليها الوزارة المقيدة، حيث يتقيد الوزير فيها ما يأمر به الخليفة، ويرجع إليه في كل صغيرة وكبيرة فهو منفذ وليس مفوض، لأن الرأي مقصور على رأي الإمام وتدبيره وهذا الوزير وسيط بين الرعية والخليفة ويتصرف في حدود ما أمر بتنفيذه.[3]ومن ثمة فقد أجاز الماوردي تعيين الذمي في وزارة التنفيذ دون وزارة التفويض[4]، وبذلك لم يكن منصب الوزير على أهميته في الدولة الإسلامية حكرا على المسلمين بل أدركه عدد من النصارى وأداروا من خلاله شؤون الدولة الإسلامية.

---

[1]–ابن خلدون: المقدمة، ص 178.

[2]–الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 28.

[3]–المصدر نفسه، ص 29، أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983، ص 30–31.

[4]–الماوردي: أدب الوزير، ص 36.

وأبرز من تولى الوزارة من أهل الذمة أبو العباس الفضل[1] كاتب المعتصم قبل الخلافة أخذه له البيعة ببغداد عندما كان المعتصم ببلاد الروم بعد وفاة أخيه المأمون، فكان يدبر أمور المعتصم ويكتب على لسانه بما أحب، حتى قدم المعتصم الخليفة إلى بغداد عام 218هـ، فشكر له صنيعه هذا ففوض له الوزارة ورد أموره كلها إليه، وصارت الدواوين كلها تحت يده واستقل بالأمور، بل صار الفضل بن مروان صاحب الخلافة.[2]

فكان يبخل عن الخليفة ما يحتاج إليه من أموال ويرد طلبه بل يتطاول على الخليفة أحيانا بأجوبة غليظة، وذكر عن أبي داود أنه قال:"كنت أحضر مجلس المعتصم فكثيرا ما كنت أسمعه يقول للفضل بن مروان: أحمل إلي كذا وكذا من المال فيقول: ما عندي، فيقول: فاحتلها من وجه من الوجوه فيقول: ومن أين أحتالها! ومن يعطيني هذا القدر من المال؟ وعند من أجده؟ فكان ذلك يسوءه".[3]

وعليه فقد استأثر بأعمال السلطنة وكنز الأموال مما أثار نقمة العامة ضده، فقد جلس يوما لقضاء أشغال الناس ورفعت إليه قصص العامة فرأى في جملتها رقعة مكتوب عليها:

تفرعنت يا فضل بن مروان فأتعظ * فقبلك كان الفضل والفضل والفضل[4]

ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم * أبادهم الأقياد والحبس والقتل[5]

ولعل ما يصور ذلك أنه كان يمتنع عن منح الأعطية من المال التي يأمر الخليفة بها من يفد عليه، فكان إبراهيم المعروف بالهفي -كان مضحكا -يتردد على مجلس

1-أبو العباس الفضل بن مروان بن ماسرجس بن البردان: نصراني النحلة قليل المعرفة بالعلم رديء السيرة، استوزره المعتصم ثلاث سنوات ثم اعتقله ثم أطلقه، خدم عدد من الخلفاء مات في أيام المستعين عام 250هـ وهو متولي ديوان الخراج، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص 54.

2-المصدر نفسه، ص 54، محمد بن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، تحقيق عفيف نايف حاطوم، دار الثقافة، بيروت، 1996، ص 434.

3-الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص 215.

4-ويقصد بهم: الفضل بن يحي بن خالد البرمكي، والفضل بن سهل، والفضل بن الربيع، ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 231.

5-الجاجرمي: نكت الوزير، ط1، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2000، ص 57، وكذلك ابن خلكان: المصدر السابق، ج4، ص 54.

الخليفة أمر له المعتصم بمال وتقدم إلى الفضل بن مروان ليناله، فلم يعطيه الفضل ما أمر به المعتصم فاشتكاه عند الخليفة قائلا:"إنما لك من الخلافة الاسم، والله ما يجاوز أمرك أذنيك؛ وإنما الخليفة الفضل بن مروان الذي يأمر فينفذ أمره من ساعته، فقال له المعتصم: وأي أمر لي لا ينفذ ! فأخبره بالأمر"، فأقدم على عزله وأمر بحبسه بمعية كاتبه دليل بن يعقوب النصراني، وعين مكانه محمد بن عبد الملك بن الزيات.[1]

أما سليمان بن وهب فقد استوزره المهتدي بعد سنة من خلافته عام 256هـ ولقب بالوزير حقا، لأن من كان قبله كان غير مستحق بالوزارة ولا مستقل بها[2]، كان يتولى إدارة أمور الدولة بالقيام على الدخل والخرج وفرض الضرائب والنظر في رقاع المظالم والتوقيع عليها[3]، كما نظم دواوين الخلافة حيث كان يفيد إليه الكتاب فيقفهم على الأعمال المطلوبة منهم ويسلم لكل كاتب ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريده منه وتعرض عليه كتبهم وفيها من النفقات والحسابات ويوقع عليها.

وكان سليمان إذا ولى عاملا أخذ منه مالا معجلا وأجل له مالا إلى أن يتسلم عمله، حرصا على تسلم الأعمال في حينها مما جعله يكسب ثقة الخليفة ويثني عليه فكان كلما عرض الكتب بين يدي الخليفة المهتدي فقال له وقد قرأها:"أحسنت يا سليمان ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل".[4]

كما تولى سليمان الوزارة للمعتمد 263هـ[5]، واستأثر بأمور الخلافة وزادت ثروته وعظمت بما كان يأخذه من رواتب ضخمة واقطاعات وضياع، وكان لسليمان بن وهب دار كبيرة جعلتها الدولة بعده لكل وزير حتى سنة 320هـ تسمى دار المخرم[6]، وكان يتخذ مثل الخليفة حرسا على باب داره وكان يركب إلى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان، ففي سنة 264هـ خرج من بغداد إلى سامراء ومعه أخوه

1-الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص 214.

2-الأصفهاني: المصدر السابق، ج23، ص 04.

3-ابن ثغري بردي: المصدر السابق، ج3، ص 131، الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص 441.

4-الأصفهاني:المصدر السابق، ج23، ص 09.

5-ابن الجوزي: المصدر السابق، ج12، ص 189.

6-مسكويه: المصدر السابق، ج5، ص 410، الهمداني: المصدر السابق، ص ص 05 ، 75.

الحسن بن وهب وشيعه عامة القواد، فلما صار إلى سامراء غضب عليه الخليفة المعتمد وحبسه وصادر داره.(1)

ولعل ما بلغه من الثراء والحضوة أن استخلص منه الخليفة المعتمد وابنه عبيد الله نحو مليون دينار(2)، ثم صالحهما على تسعمائة ألف دينار(3)، وظل سليمان بن وهب يتنقل في الدواوين الكبار والوزارة إلى أن توفي عام 272هـ في حبس الموفق.(4)

ثم تحولت الوزارة منذ سنة 278هـ إلى عبيد الله بن سليمان بن وهب حيث استوزره المعتمد بالله واستولى على جميع أموره وكان يكفيه ويجلسه بين يديه(5)، ولما توفي سنة 279هـ ولي المعتضد الخلافة وأقر عبيد الله على وزارته إلى حين وفاته- استمرت وزارته للمعتضد عشرة سنين-.(6)

وكان عبيد الله واحد دهره سياسة وتدبيرا وضبطا لأمور الدولة وفيه قال صاحب الفخري:" من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب كان بارعا في صناعته حاذقا ماهرا لبيبا جليلا".(7)

وقد رفع يوما إلى المعتضد أن قوم يجتمعون ويحرضون وقد تفاقم فسادهم فرمى بالرقعة إلى وزيره عبيد الله بن سليمان فقال:" الرأي صلب بعضهم وإحراق بعضهم! ، غير أن الوزير لم يجار خليفته في غضبه وقلل من خطورة الأمر فقال: والله لقد أطفأت لهيب غضبي بقسوتك هذه فقلبتني إلى اللين إن أحد الرعية لا يقوم بمحظور إلا لظلم قد

1-الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص 518.

2-المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج4، ص 121.

3-الطبري: المصدر السابق، ج5، ص 520.

4-ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 2003، ج3، ص 364، ابن الأثير: المصدر السابق،ج7، ص 328.

5-ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد، صححه قيصر فرح، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ج14، ص50.

6-التوحيدي:البصائر والذخائر، ج1، ص 79.

7-ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 249.

لحقه أو لحق بجاره أو مصيبة قد نالته فامتنع الخليفة عن معاقبتهم فصلحت الأحوال"[1]، وفي سنة 284هـ عزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر وأمر بإنشاء كتاب بذلك يقرأ على الناس، فخوفه عبيد الله بن سليمان من اضطراب العامة وأنه لا يأمن أن تكون فتنة.[2]

ولعل أهم ما يستخلص من هذه الشواهد والمواقف قدرته الفائقة على التفاعل والتواصل مع الخليفة ورعيته، فكان يلتمس للرعية أعذارا للحفاظ على أمن الخلافة واستقرارها، كما كانت تدل في نفس الوقت على رجاحة عقله وسعة أفقه في تدبير الأمور وعلمه بطباع الرعية، والتي كانت سببا في تجنيب الخليفة العديد من الفتن والاضطرابات.

وكان يقف على كل الرسائل التي تفد على الخليفة أو تصدر منه إلى عماله أو رعيته فينظر فيها ويصحح ما يوجب تصحيحه، فقد أراد الخليفة المعتضد أن يكتب كتاب ويشهد فيه عليه العدول، فكتب جعفر بن محمد بن ثوابة صاحب ديوان الرسائل:"في صحة من عقله وجاز الأمر له وعليه"، فلما عرضت النسخة على عبيد الله بن سليمان قال:هذا لا يجب أن يقال للخليفة، وضرب عليه وكتب: "في سلامة من جسمه وأصالة من رأيه".[3]

كما كان حازما في تدبير أمور الخلافة فكانت الرقاع توضع بين يديه ولا يمل في الفصل فيها والرد على أصحابها، فكان إسماعيل القاضي[4] يعرض عليه رقاعا في حوائج الناس فكلما انتهى من واحدة قدم له أخرى وخشي أن يكون قد أثقل عليه، فقال عبيد الله:"يا أبا إسحاق كم تقول إن أمكن وإن جاز وإن سهل من قال لك أنه يجلس هذا المجلس ثم يتعذر عليه فعل شيء على وجه الأمور فقد ذلك، هات رقاعك كلها في موضع واحد

1-ابن الجوزي: المصدر السابق، ج12، ص 325.

2-الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص 619.

3-ابن النجار البغدادي: المصدر السابق، ج4، ص 51، التوحيدي: البصائر والذخائر، ج9، ص116.

4-أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد الأزدي: القاضي من أهل البصرة ولي القضاء في خلافة المتوكل وظل قاضي بغداد سبعة عشرة سنة توفي سنة 282هـ، ابن الجوزي: المصدر السابق، ج12، ص 346.

فأخرجها إسماعيل وطرحها لحضرته فوقع فيها، فكانت ما وقع فيه قيل نحو ستين رقعة".[1]

ولم يقتصر دوره على إدارة شؤون الخلافة، بل كان الخليفة المعتضد يستدعيه في أوقات خلوته ويستأنس بحديثه ويطلعه على أموره الخاصة، فقد حزن الخليفة يوما على جارية عنده كان يحبها وامتنع عن أكل الطعام والشراب، فعاده الوزير عبيد الله ووساه بكلمات أعادت له ابتسامته وحيويته، ومما يذكر عنه قوله :"مثلك يا أمير المؤمنين تهون عليه المصائب لأنه يجد في كل فقيد خلفا ويقدر ما يريد، والعوض منك لا يوجد"، وكأن الشاعر قد عناك:

يبكي علينا ولا نبكي على أحد * أنا لأغلظ أكباد من الإبل

فضحك المعتضد وعاد إلى عادته.[2]

ورغم محاسنه في تدبير أمور السلطنة والنهوض بأعبائها فقد أطلق يده في التصرف في أموال الدولة وغلال السلطان، وكان سببا في ثراء حاشيته ومن لزمه بصحبته، فقد أمر كاتبه أن يبيع عبد الله بن عوف[3] المئة ألف كر[4] بنقصان دينارا واحد مما قررت به السعر مع التجار، وبعه له عليهم بالسعر المقرر معهم وطالبهم بأن يعجلوا له فضل السعرين اليوم، فقال عبد الله بن عوف:"قمت من المجلس وقد وصل إلي مئة ألف دينار في بعض اليوم وما عملت شيئا".

وصار يعرض عليه كل يوم ما يصل إليه بما فيه ألوف الدنانير ويتوسط الأمور الكبار ويداخل في المكاسب الجليلة حتى أثري ثراء فاحشا وبلغته النعمة منه الفيض العميم.[5]

1–ابن النجار البغدادي: المصدر السابق، ج 14، ص ص 45، 55.

2–ابن الجوزي: المصدر السابق، ج12، ص 326.

3–أبو عبد الله بن عبد الرحمان بن مرزوق بن عطية بن أبي عوف: اختص بالوزير عبيد الله وكانت بينهما مودة وله عنده منزلة كان يستضيف عبيد الله بن سليمان في داره قبل تقلد الوزارة، توفي عام 297هـ، المصدر نفسه، ج13، ص94.

4–كر: كيل معروف يسع أربعة وعشرين صاعا، التنوخي: نشوار المحاضرة، ج1، ص 80.

5–ابن النجار البغدادي: المصدر السابق، ج14، ص 54.

كما كان وفيا لملته النصرانية ففي سنة 284هـ قام نصراني بشتم النبي –صلى الله عليه وسلم– فاجتمع أهل بغداد وصاحوا بأبا القاسم وطالبوه بإقامة الحد عليه فلم يفعل، فأجمعوا على التوجه إلى دار الخليفة الذي بدوره وجه المدعين إلى القاضي أبي عمر.[1]

ولعل هذه الحادثة تبين لنا بشكل واضح مدى تمكن المتصرفين النصارى من الدولة الإسلامية ومؤسساتها إلى درجة تعطيل إقامة الحد، ورغم ما قيل عن عبيد الله من أحكام فإن مكانته لدى الخليفة لم تهتز ولم يتنح عن الوزارة إلا بوفاته سنة 288هـ، وهذا قلما يحدث فعظم موته على المعتضد وجعل ابنه أبا الحسن القاسم[2] وزيرا له.[3]

نهض القاسم بأعباء الخلافة عند موت المعتضد عام 289هـ، فأخذ البيعة للمكتفي الذي كان غائبا بالرقة، وضبط له الخزائن فعظم عنده فاستوزره ولقبه والي الدولة[4]، وكان كثير الظلم فاسد الاعتقاد حمل المكتفي على قتل بدر الحمامي[5] صاحب أحمد بن طولون[6]، ولعل الشيء نفسه الذي حمل ابن الرومي[7] على هجوه وذكره بما يكره، فأطعمه –القاسم–طعاما مسموما في مجلسه كان سببا في موته.[8]

---

[1]–ابن الأثير: المصدر السابق، ج7، ص 485.

[2]–القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب: كان يطعن في دينه وزر للمعتضد والمكتفي، ولقبه المكتفي عميد الدولة، مات سنة 291هـ، ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 251.

[3]–ابن الأثير: المصدر السابق، ج7، ص 510.

[4]–الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط3، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1998، ج 19، ص 231.

[5]–بدر الحمامي: صاحب بن طولون حاكم مصر، وقائد جيشه شارك بجانب جيش المكتفي في وقعة القرامطة، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج2، ص202، ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص 79–80.

[6]–الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص 641.

[7]–أبو الحسن علي بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومي: ولد ببغداد عام 283هـ، شاعر مشهور من موالي بني العباس اشتهر بالتوليد في الشعر لأنه أتى بكثير من المعاني لم يسبقه إليها أحد، توفي عام 335هـ، ابن النديم: المصدر السابق، ص 317.

[8]–ابن خلكان: المصدر السابق، ج3، ص 361.

كما كان فاحش الثراء حيث كانت ضياعه تغل العـام سـبعمئة ألـف دينـار[1]، ويتصرف في أموال الدولة بغير وجه حق حتى قيل أنه سدد نذرا قطعه لأستاذه ومؤدبه إبراهيم بن السرى الزجاج[2] فقد روي عن هذا الأخير مخاطبا الـوزير قبـل تقلـده الوزارة:"إن بلغك الله مبلغ أبيك ووليت الوزارة ماذا تصنع بي؟" فيقول:"ما أحببت، فأقول له: أعطيني عشرين ألف دينار".

فعندما ولي الوزارة أجلسه للناس يأخذ رقاعهم للحوائج الكبار مقابل أجر، ويـذكر الزجاج: كنت أعرض عليه كل يوم رقاعا فيوقع فيها إلي ويقول: كم دفع لك على هـذا؟ فأقول: كذا وكذا، فيقول: غبنت هذا يساوي كذا وكذا ارجع فاسـتزد، ولا أزال أماكـسهم ويزيدوني حتى فاق الكسب حد النذر.[3]

وما يعجب لهذا العمل أن الوزير قد أطلق يده وحاشيته في مال العامة والدولة دون وازع أخلاقي أو خوفا من غضب الخليفة مما يدل عن استئثارهم بأمور الدولة وتمكـنهم منها، كما زاد نفوذ النصارى في دار الخلافة في عهد الوزير صاعد بن مخلـد المتـوفي عام 276هـ وزير المعتمد (256هـ-279هـ)، الذي لم يتنكر لملته وأقاربه الذين ظلوا على نصرانيتهم، حيث فتح لهم أبواب الوزارة وتقلدوا المناصب الجليلة فيها، منهم أخـوه عبدون بن مخلد النصراني الذي سمح له وضعه في الوزارة بأن يأمر بإعادة بنـاء ديـر كليلشوع الواقع على نهر عيسى إلى الجنوب الغربي من بغداد سنة 271هـ بعد تهديمـه من قبل شطار بغداد.[4]

1-الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، (د .ت)، ج1، ص 420.

2-أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج: النحوي كان من أهل العلم والأدب وصنف كتبا في معاني القرآن، اختص بصحبة الوزير القاسم بن عبيد الله ثم اتصل عن طريقه بالمعتضد وصار عظيم المنزلة عندهما، توفي سنة 311هـ، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج1، ص52.

3-التنوخي: نشوار المحاضرة، ج1، ص 77.

4-الطبري: المصدر السابق، ج5، ص 591، ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 44.

وفي سنة 369هـ انفرد نصر بن هارون بالوزارة في عهد الأمير عضد الدولة، بعد وفاة المظهر بن عبد الله الذي كان يقاسمه الوزارة وقد فوضه الخليفة على القيام بأعمال فارس وتدبير أمورها لمكانته منه، وظل متوليها حتى توفي الأمير عضد الدولة سنة 372هـ، وكان أبو الريان أحمد بن محمد ينوب عن نصر بن هارون في ديوان عضد الدولة ببغداد[1]، وقد بلغت مكانة الوزير لدى عضد الدولة أن سمح له الإحسان إلى بني ملته من بيت مال المسلمين من إطلاق المال للفقراء النصارى وعمارة البيع والأديرة.[2]

ولما تقلد صمصام الدولة[3] الإمارة بعد وفاة عضد الدولة كتب لنصر بن هارون يستدعيه إلى بغداد ليلي الوزارة[4]، غير أن الأمير شرف الدولة بن عضد الدولة خرج عن طاعة أخيه صمصام الدولة وسار إلى فارس واستولى عليها وقبض على نصر بن هارون ونكل به وقتله.[5]

ولعل سبب حقد شرف الدولة على وزير أبيه، أن هذا الأخير كان يسئ معاملته في حياة أبيه-عضد الدولة-، وقيل أن حاشية شرف الدولة كانوا يحقدون عليه لمكانته الرفيعة في الدولة فأخذوا يغلون صدره عليه خاصة عندما استولى على بلاد فارس.[6]

وبقدر ما نهض هؤلاء الوزراء النصارى بأعباء الدولة الإسلامية، بقدر ما حجب بعضهم الخليفة عن رعيته فصاروا القيمين الحقيقيين على الدولة والمنتفعين بمقدراتها مما زاد في بؤس وسخط العامة، حيث أظهروا الشماتة عند موت الوزير القاسم عام 291هـ وقال فيه أحدهم:

1-مسكويه: المصدر السابق، ج2، ص 412.

2-ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص 705.

3-صمصام الدولة: هو أبو كاليجار المرزبان ولد عضد الدولة، بايعه القواد والأمراء بعد وفاة أبيه وولوه الإمارة ولقبه صمصام الدولة سنة 372هـ، وتوفي سنة 388هـ، ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص ص 22 ، 142.

4-أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، اعتنى بالنسخة والتصحيح هـ، ف. أمدروز، شركة التمدن الصناعية، القاهرة، مصر، 1916، ص 78.

5-ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص 23.

6-أبو شجاع: المصدر السابق، ج3، ص 82.

فلا رحم الله تلك العظام * ولا بارك الله في وارثه[1]

فضلا عن التحاسد الذي كان بينهم وبين رجال الدولة من المسلمين الذي تحول إلى تنافس وصراع على منصب الوزارة مما أدى إلى اضطراب الوضع السياسي وعدم استقرار نظام الحكم.

البيوت السلطانية:

لقد ازدان العصر العباسي بكثرة القصور والدور السلطانية حيث تفنن خلفاء بني العباس ووزراؤهم في عمارتها، فكان المتوكل كلما بنى قصرا أتبعه بآخر حتى بلغت قصوره نحو العشرين، منها: قصر الجعفري، اللؤلؤة، البهو، العروس.[2]

كما بنى المعتز (251هـ-255هـ) ابنه قصرا ضخما عرف بالتاج[3]، وشيد المعتمد (256هـ-279هـ) قصره المعشوق على شاطئ دجلة[4]، وبنى المعتضد (279هـ-289هـ) قصر الثريا، وكانت أبنيته متلاصقة ووصل بين قصر التاج بسرداب طويل لتمشي فيه حظاياه[5]، ولعل كثرة هذه القصور ما يشير إلى أن دار الخلافة كانت واسعة وكان القصر الواحد يمتد إلى فرسخ أو يزيد، وقيل أن قصر الثريا كان يمتد إلى ثلاث فراسخ وكلف المعتضد أربعمائة ألف دينار.[6]

فقد كانت قصور الخلفاء أشبه بمدينة حيث كانت تتفرع إلى دور وحمامات وبساتين، فهناك دار الشراب وهي بيت يشتمل على كل أنواع الشراب المحللة والمسكرة

1- ابن خلكان: المصدر السابق، ج3، ص 362.

2- الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص 328، D.ET J. sourdel : la civilisation de l'islam classique, ARTHAUD, Paris, France, 1968, P 331.

3- Ibid : P 344

4- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 182.

5- المصدر نفسه، ج2، ص 5.

6- المصدر نفسه، ج2، ص 91.

مثل: الترياق[1] والفقاع[2] ويشرف عليها أستاذ الدار[3]، أما دار طشت فهي بيت يكون فيها أدوات الغسل والوضوء من أباريق وماء الورد والمسك والطيب وغيرها من الأصناف التي تلائم هذا البيت[4]، ودار الفراش يكون فيها أنواع الفرش والخيام وكل ما يحتاج إليه السلطان وخاصته في حله وترحاله.[5]

وكانت هذه البيوت السلطانية على أهمية كبرى تدار وتباشر من قبل متصرفين من كتاب وعمال وأطباء وخدم، وكان بعضهم من أهل الذمة، فقد جعل المتوكل دليل بن يعقوب النصراني سنة 245هـ قيما على قصره اللؤلؤة وصير إليه نفقته ومسؤولا على دخله وخرجه[6]، والحسين بن عمر النصراني الذي علت مكانته في عهد الخليفة المكتفي (289هـ- 295هـ) وكاد أن يصير وزيرا، حيث كان المتصرف في شؤون الخليفة الخاصة لتقلده كاتب الضياع والحريم والنفقات.[7]

كما زخرت بيوت وقصور الخلفاء بالأطباء النصارى، حيث أطلق الخلفاء أيديهم وكانوا أول من يدخل عليهم فيما يحتاجون إليه مما يصلح أبدانهم ويختارون لهم الأطعمة المناسبة ولم يكن الخليفة يتناول دواء إلا بإذن طبيبه، فإذا فعل ولم يستأذنه جر عليه غضب الطبيب واضطر إلى استرضائه، ويقال أن المتوكل احتجم مرة بغير إذن طبيبه إسرائيل بن الطيفوري[8] فغضب إسرائيل فافتدى الخليفة غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تغل خمسين ألف درهم[9]، وكان جبرائيل الكحال-بختشوع- أول من يدخل على المأمون

1-الترياق: دواء يذهب بالسموم، وقيل الخمر عند العرب، ابن منظور: لسان اللسان تهذيب لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج1، ص 128.

2-الفقاع: هو شراب يتخذ من الشعير، المصدر نفسه،ج2، ص 379.

3-النويري: المصدر السابق، ج8، ص 224، .D.ETJ. sourdel : op.cit. P 328-329

4-النويري: المصدر السابق، ج8، ص 225.

5- المصدر نفسه، ج8، ص 225.

6-الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص 328.

7-المصدر نفسه، ج5، ص 645.

8-إسرائيل بن زكرياء الطيفوري: متطبب الفتح بن حاقان وزير المتوكل، كان مقدما في صناعة الطب، جليل القدر عند الخلفاء والملوك، ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص 225.

9-المصدر نفسه، ص 225.

بعد الصلاة فيغسل أجفانه ويكحل عينيه، فإذا انتبه من قائلته فعل مثل ذلك، كما ألـــف لـــه رسالة في المطعم والمشرب.[1]

كما أن المتوكل اشتهى يوما أن يأكل مع طعامه خردلا فمنعه الأطباء من ذلك لحدة مزاجه وحرارة كبده فقال له بختشوع[2]:" أنا أطعمك إياه وإن ضرك علي، فأمر بأن يقشر الخردل ويضرب بماء القرع وقال: إن الخردل في الدرجة الرابعة من الحرارة والقـــرع من الدرجة الرابعة من الرطوبة"، وبات المتوكل تلك الليلة ولم يحس بـــشيء مـــن الأذى فأمر أن يحمل إليه ثلاثمئة ألف درهم.[3]

كما كان الخلفاء يأنسون إلى أطبائهم النصارى ويمازحونهم ويماجنوهم في أوقـــات فراغهم ورفعوا من منزلتهم في المجالس، فقد كان المعتضد يجلس طبيبه ثابت بـــن قـــرة بجانبه والوزراء والأمراء وقوف وكان يطلبه إلى الفردوس –بستان دار الخليفة– ليتجاذب معه أطراف الحديث ويشاوره وهو متكئ عليه ويده بيده[4]، ولما نال ثابت بن قـــرة هـــذه الحضوة والمكانة لدى الخليفة تجددت الرئاسة للصابئة في مدينة السلام وقـــل مـــا كـــانوا يتقلدونها[5]، كما بلغ إكرام المنصور لطبيبه جورجيوس بن بختشوع[6] أن أمر أن يحضر

1– ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 242.

2–بختشوع بن جبرائيل بن بختشوع بن جورجيوس: طبيب سرياني نصراني النحلة قربه الخلفاء العباسيون ولا سيما المتوكل، أثري حتى كان بغناه يضاهي المتوكل في الفراش واللباس، وطالت خدمته للعباسيين فخدم الواثق والمستعين والمهتدي ومات سنة 256هـــ ببغداد، نضال نصر الله: معجم الأطباء، ص 29.

3–ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 206–207.

4–ابن تغري: النجوم الزاهرة، ج3، ص 140.

5–جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي،مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ج2،ص 183.

6–جورجيوس بن جبرائيل بن بختشوع: طبيب وفيلسوف نسطوري النحلة، كبير عائلة بختشوع ورئيس أطباء جنديسابور، استدعاه المنصور إلى بغداد سنة 148هـــ ليشفيه من مرض معدته، كما دعاه إلى الإسلام فرفض، توفي في جنديسابور سنة 151هـــ، ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص 184–185، كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج4، ص 261.

له المشروب -نبيذ- وهو محرم في الإسلام من قطربل[1] لأن رأى وجهه قد تغير على إثر طول إقامته ببغداد.[2]

ولعل هذا ما يفسر حرص الخلفاء على توثيق الصلة بينهم وبين أطبائهم النصارى وإغداقهم بالأموال والضياع حتى صاروا يضاهون الخلفاء في وجاهتهم ولباسهم وضياعهم بملء قلوبهم وعيونهم من أي طمع، فقد بلغ راتب جبرائيل بن بختشوع أيام الرشيد تسعمائة ألف دينار[3]، وهذا لقطع الطريق أمام المتربصين بالخليفة لأن نيل الطبيب من الخليفة أمر يسير، فقد استطاع إسرائيل الطيفوري الطبيب النصراني من قتل الخليفة المتوكل عندما استعمل في فصده[4] آلة مسمومة[5] أو لأنه قد قطر في أذنيه قطرات أدت إلى انتفاخ رأسه.[6]

كما غصت قصور الخلفاء والوزراء بالجواري والإماء الحسان من مختلف الجنسيات والثقافات والديانات، فكان منهن الروميات والفارسيات والتركيات والأرمينيات، حتى قيل من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية ومن أرادها للولد فليتخذها فارسية ومن أرادها للخدمة وتدبير أمور المنزل فليتخذها رومية.[7]

وقد أخذ هؤلاء الجواري يكثرن في قصور الخلافة منذ عهد الخليفة المهدي (158هـ-169هـ) وكان بينهن من يعلقن الصلبان[8]، و استكثر الخليفة الرشيد (170هـ-193هـ) وزوجه زبيدة من الجواري والإماء حتى قيل أنه كان كل منهما

1-قطربل: كلمة أعجمية اسم قرية بين بغداد وعكبرا، ينسب إليها الخمر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 421.

2-ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 184.

3-ابن العبري: تاريخ الزمان، ص18.

4-الفصد: استخراج الدم من الجسم بآلة حادة، الزبيدي: تاج العروس، ج2، ص 453.

5-المسعودي: مروج الذهب، ج4، ص 153.

6-ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص 114.

7- ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، ط2، بيروت، لبنان، 1999، ج6، ص 103، D.ETJ. sourdel : op.cit. P 463.

8-الطبري: تاريخ الطبري، ج4، ص 592.

زهاء ألفي جارية في أحسن زي من الثياب والجوهر[1]، ويذكر ابن أبي أصـــيبعة[2]: أن الخليفة هارون الرشيد كانت له جارية رومية اسمها خرشي، وكان لها من قرابتها أخت أو بنت أخت سأل عنها فلم يجدها، وسأل خرشي عنها: فأعلمته أنها زوجتها من قريب لهـــا، فغضب من ذلك وقال: كيف أقدمت على ذلك بغير إذني إنما اشتريتها من مالي ! وأمـــر بإخصاء زوجها، غير أن الجارية الرومية قد علقت منه بغلام، فلما ولدت الغـــلام أدبتـــه بآداب الروم وقراءة كتبهم حتى صار علما يعرف بإسحاق بن الخصي كان يتصل به كثير من أهل العلم والأدب.

كما شغف ولديه من بعده باقتناء الجواري حيث كان قـــصر الأمـــين (193هـــــ-198هــ) عامرا بالجواري الغلاميات اللائي يلبسن لباس الغلمان[3]، كما غـــص قـــصر المأمون (198هــ-218هــ) بالجواري المسيحيات[4]، وبذلك كان لهؤلاء الجواري آثـــارا واسعة في محيطهن خاصة أن كثيرات منهن يتثقفن بفنون الآداب والموســـيقى والـــرقص وآداب الطعام، ويجمعن إلى جانب جمالهن عذوبة الحديث وحسن التصرف، فيملأن على الخلفاء والوزراء وحتى الشعراء قلوبهم وعقولهم.

وازداد الجواري نفوذا وسطوة حتى صرن أمهات الخلفاء، فالهادي والرشيد أمهما الخيزران رومية أعتقها المهدي سنة 169هــ وتزوجها[5]، أما زوجة المتوكـــل شـــعانين فكانت رومية ابنة راهب كنيسة بالشام، وقيل أن سبب ائتلاف المتوكل بها أنه خرج يومـــا للنزهة في ضواحي الشام فبينما هو يتصفح الكنائس والرياض فأقبلت جارية فلم ير أحسن منها وبيدها مجمرة بخور فسأل الراهـــب عنها فقال: هي ابنتـــي،[6]وأم الواثـــق روميـــة تسمى قراطيس[7]، وأم المقتدر السيدة شغب-ناعـــم- كانـــت جاريـــة روميـــة للخليفـــة

[1]-الأصفهاني: الأغاني، ج16، ص 345.

[2]- طبقات الأطباء، ص 258.

[3]-المسعودي: مروج الذهب، ج4، ص 244.

[4]-الأصفهاني: المصدر السابق، ج 19، ص 138.

[5]-D.ETJ. sourdel : op.cit. P 375.

[6]-زينب العاملي: معجم أعلام النساء، ص 421.

[7]-الأصفهاني: المصدر السابق، ج10، ص 172.

المعتضد[1]، حيث كانت هذه الأخيرة تمسك بيدها زمام الأمر والنهي في الدولة وتستعين بأقربائها في تسير شؤون الدولة، حيث منحت لأخيها الرومي المسمى غريبا الكثير من النقود في قصر الخلافة.[2]

وكانت الجواري النصرانيات يحتفلن بعيد السعانين[3] في قصور الخلافة إذ يروي أحمد بن صدفة[4]: "أنه دخل على المأمون في هذا العيد فرأى بين يديه عشرين وصيفة رومية أدرن الزنار حول أوساطهن وتزين بالديباج وعلقن في أعناقهن صلبان الذهب وأمسكن في أيديهن بالحوض والزيتون، ولم يكد المأمون يراه حتى طلب إليه أن يغنيه في أبيات تصفهن:

ظباء كالدنانير * ملاح في المقاصير

جلاهن السعانين * علينا في الزنانير

ورقصت الوصائف في أثناء الغناء وشرب المأمون على رقصهن وغنائه وأكثر من شربه حتى تغشاه السكر".[5]

وعلى هذا النحو كانت قصور الخلافة عصور كثيرة كأنها مقاصيد للشراب ولسماع الغناء، وكان للجواري في هذا الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الطرف والرقة، فتورط الخلفاء وبعض القضاة في شرب الأنبذة فلم يقفوا عند أنواعها المحللة بل أشربوا المسكرة[6]، فكان المتوكل يعقد في قصوره مجالس للمنادمة والشراب والسقاة والساقيات من الغلمان والجواري من حولهم يزينون مجالس الشرب بالورود والرياحين، ورؤوسهم بأكاليل الزهر.[7]

---

[1]–الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص 270.

[2] D.ETJ. sourdel : op.cit. P 374

[3]–السعانين: هو عيد النصارى قيل قبل الفصح بأسبوع، وهو عيد قديم لأشجار الزيتون، ويقال له أيضا الشعانين، الأصفهاني: الأغاني، ج22، ص 217.

[4]–أحمد بن صدفة بن أبي صدفة: كان أبوه حجازيا مغنيا قدم على الرشيد وغنى له، مقدما حاذقا حسن الغناء محكم الصنعة لزم المأمون والمتوكل وغيره من الخلفاء، المصدر نفسه، ص 215.

[5]– المصدر نفسه، ص 217.

[6]–الجاحظ: رسائل الجاحظ –كتاب الشارب والمشروب–، ج4، ص 202.

[7]–الأصفهاني: المصدر السابق، ج17، ص 130.

وكان القاهر (320هـ- 322هـ) مدمنا على شرب الخمر مولعا بالغناء مما جعله يأمر بأن تباع الجواري المغنيات على أنهن لا يعرفن الغناء حتى يحصل منهن بـأبخص الأثمان[1]، وبذلك تنافس الخلفاء في اقتناء الجواري والخصيان لأداء مختلف الأعمال، فقد كان للمعتضد أحد عشر ألف خصي من الروم والسودان[2]، وكان خصيان الروم أفضل الأنواع لأنهم الأوثق في حراسة البيوت والحريم، والأقدر على ترتيب البيوت[3]، كما نجد الأمين (193هـ، 198هـ) حين أفضت إليه الخلافة قدم الخصيان وآثرهم.[4]

ولا ريب في ذلك أن الإدمان على الخمر والانحلال والجواري أدى إلى ظهور كثير من مظاهر المجون والفحش في قصور الخلفاء ورجال الدولة إلى درجة اشتغل فيه هؤلاء بالجواري عن رعاية الملك، كما تنافس الجواري في افتتان رجال الدولة إلى درجة التحاسد ووضع الدسائس والمؤامرات، ومن أمثلة ذلك أن الخليفة المهدي لقي مصرعه على يد جاريته مسموما قيل قد جعلت السم في طعام لضرتها، فدخل الخليفة ومد يده فأكل[5]، وكذلك من الأمور التي شتتت أوصال الدولة وزادت الحكم انقساما واضطرابا أن أبناء الخلفاء كان بعضهم من أولاد الجواري والبعض الآخر من أولاد الحرائر، فيفخر أولاد الحرائر على أولاد الجواري، فالأمين كان يفخر على المأمون.

ومن ثمة يمكن القول أن هؤلاء المتصرفين من أهل الذمة بقدر ما خدموا الدولة الإسلامية وتمدنها، وكانوا عينها وعقلها بقدر ما استأثروا بأموالها وأشاعوا الفحش في قصورها، فكانوا يجمعون أموالا ضخمة عن طريق الاختلاس والرشاوي نظرا لمكانتهم عند الخلفاء وحاجة الدولة إلى صنعتهم.

---

[1]-ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص 273.

[2]-ابن طباطبا: المصدر السابق، ص 253.

[3]-الجاحظ: الحيوان، ج3، ص 435.

[4]-المسعودي: مروج الذهب، ج4، ص 244، الجاحظ: رسائل الجاحظ -رسالة القيان-، ص ص 158، 163 .

[5]-كمال الدين الدميري: المصدر السابق، ج1، ص 112.

فقد أمر الخليفة الواثق سنة 229هـ بحبس الكتاب وإلزامهم مالا كثيرا، حيث أخذ من سليمان بن وهب أربعة عشر ألف دينار[1]، وفي سنة 244هـ غضب المتوكل على طبيبه بختشوع وصادر أمواله وأمر بنفيه إلى البحرين[2]، وعيسى بن شهلا طبيب المنصور لما نال منصب في دار الخلافة بسط يده على المطارنة[3] والأساقفة ويأخذ أموالهم لنفسه حتى أنه كتب إلى مطران نصيبين[4] كتابا يلتمس فيه من آلات البيعة أشياء جليلة المقدار ويهدده ومن أقواله له:"ألست تعلم أن أمر الملك بيدي، إن شئت أمرضته وإن شئت عافيته"، فبعث المطران بالكتاب إلى الربيع[5] حاجب الخليفة فانتقم الخليفة منه.[6]

ولعل ما يستشف من هذا أن ما لحق أهل الذمة -النصارى- من أذى كان مصدره بني جلدتهم ونحلتهم -من أهل النفوذ من النصارى- أكثر وطأة من حكامهم المسلمين.

1-الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص 275.

2- المصدر نفسه، ص 328.

3-المطارنة: مطران -بكسر الميم-كلمة يونانية وهو درجة في الكنيسة بين الأسقف البطريرك، وهو عبارة عن القاضي الذي يفصل الخصومات بينهم، القلقشندي: المصدر السابق، ج 5، ص 444، رفائيل نخلة اليسوعي: غرائب اللغة العربية،ص269.

4-نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على حادة القوافل من الموصل إلى الشام، بينها وبين الموصل ستة أيام، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 233.

5- الربيع: بن يونس بن محمد بن أبي فروة ، أبو الفضل (111 هـ- 169هـ) من موالي بني العباس، اتخذه المنصور حاجبا ثم استوزره وكان مهيبا محسنا للإدارة عاش إلى خلافة المهدي، الزركلي : الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، ط16، بيروت، لبنان، 2005، ج 3، ص 15.

6-ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 185.

الفصل الثاني: دور أهل الذمة في الحياة الثقافية

1-العلوم العقليــة

2-العلوم النقليــة

3-الفنـــــــــون

دور أهل الذمة في الحياة الثقافية :

لقد تطلع المسلمون منذ وقت مبكر إلى الاطلاع على التراث العلمي للحضارات القديمة، عن طريق المدارس العلمية القديمة التي اهتمت بعلوم اليونان والفرس والهنود، كمدرسة الإسكندرية[1] والرها ونصيبين وجنديسابور[2] وحران.

ويعتبر الأمير خالد بن يزيد[3] المتوفى عام 85 هـ، أول شخصية في الإسلام اهتم بمصنفات الإغريق في العلوم العقلية وأمر بترجمة كتب الطب والفلك والكيمياء، فنقلها له رجل اسمه اصطفان القديم من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي[4]، كما ترجم كتاب

---

1 الإسكندرية: تأسست عام 322 ق.م على يد الإسكندر المقدوني ، أمها علماء الإغريق وأطبائهم حتى غدت بحق عاصمة الحضارة، واشتهرت بالرياضيات والفلك والطب، وأبرز علمائها بطليموس صاحب المجسطي بكسر الميم، موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، تحقيق جلال شوقي وحسين مؤنس وآخرون، دار مطابع المستقبل، القاهرة، (د.ت)، ج1، ص12، عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين، بيروت، 1972م، ص152، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص219-220.

2 جنديسابور: مدينة في خوزستان -الأهواز-، جنوب غربي فارس بناها سابور الأول، وأسكن فيها أسرى اليونانيين، وقد بلغت شهرة عظيمة في فن الطب واستمر عطاؤها إلى أيام العباسيين، عمر فروخ: المرجع السابق، ص155، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص198.

3 خالد بن يزيد: بن معاوية بن أبي سفيان يكنى أبو هاشم ، كان أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صناعة الكيمياء والطب، وكان طامعا في الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الثاني، ولما انتقلت إلى مروان بن الحكم انصرف ذهنه إلى اكتساب العلم، ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص 224، ابن النديم: المصدر السابق، ص 280.

4 صاعد: طبقات الأمم ، ص 127- 128، الجاحظ: البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل ، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج1، ص 328، Chikh Bouamrane, Louis Gardet : Panorama de la pensée Islamique, p 229.

"الكناش" في الطـب لأهرون بن أعين القس[1] من قبل الطبيـب اليهـودي ماسرجويه[2] في أيام الخليفة مروان بن الحكم المتوفى عام 65هـ[3].

ولما تأيدت دولة بني العباس سنة 132هـ زادت فرص التفاعل مع الثقافات الأخرى، وزاد حظ الناس من التعلم وأصبح المناخ الفكري أكثر ملاءمة لتقبل علوم وفلسفات الشعوب الأخرى مما أدى إلى ثراء الحضارة الإسلامية، فقد أضحت بغداد منذ القرن الثاني الهجري مركزا حضاريا علميا في حين بدأت فيه علامات الانهيار تدب في معظم المراكز العلمية السابقة لها، بعد هجرة علمائها ونخبها نحو حاضرة الدولة الإسلامية بغداد[4].

ولعل شغف بعض خلفاء بني العباس بالعلم وإدراك فضله والإحسان لأهله وبذلهم كل غالي ونفيس في سبيل نقل الكتب عوامل دفعت هؤلاء العلماء من غير المسلمين –أهل الذمة– على اختلاف مللهم ونحلهم الانتقال إلى بغداد التماسا للرزق.

فكان المأمون (198هـ–218هـ) يعطي حنين بن إسحاق النصراني المتوفي عام 260هـ ما ينقله وزنه ذهبا[5]، وأن المتوكل أهداه ثلاث دور من دوره وحمل إليه ما يحتاج من أثاث وبعض الإقطاعات وجعل له راتبا شهريا بخمسة عشر ألف درهم[6].

وقد كان هذا الاتصال الخصيب والمثمر بين الثقافة العربية وأهالي البلاد المفتوحة أثرا كبيرا في ازدهار العلوم العقلية على وجـه التحديـد التي كان أغلب علماءهـا مـن

---

1 أهرون بن أعين القس: فيلسوف وطبيب يعقوبي مصري عاش في القرن الأول الهجري، كان من الجيل الثاني لفلاسفة مدرسة الإسكندرية، ابن النديم: المصدر السابق، ص 191، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 92.

2 ماسرجويه: طبيب وفيلسوف يهودي عاش في القرن الأول نشأ في البصرة وطبّب فيها عمر بن عبد العزيز، له كتاب في طب العيون، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 232– 233.

3 ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص111–112، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص232.

4 غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عنتر زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، ط2، القاهرة، مصر، 1948، ص 178،

Chikh Bouamrane, Louis Gardet : Op.cit.p 227.

5 ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص260، ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص217.

6 ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص170.

أهـل الذمة والسريان[1].

وقد بين ابن خلدون: "إن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم من العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبه فهو أعجمي في لغته ونشأته وثقافته"[2]، ولما ظهرت الحاجة إلى الاستفادة من العلوم التي ذخرت في العصر العباسي الأول قسم العلماء المسلمون العلوم إلى عقلية ونقلية.

دور أهل الذمة في العلوم العقلية:

عرف ابن خلدون العلوم العقلية فقال: "وهي التي يهتدي إليها الإنسان بفكره وبمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها حتى يعرف الخطأ من الصواب ويصيب الحقيقة"، كما اعتبرها طبيعية للإنسان من حيث أنه ذو فكر فهي غير مختصة بملة، بل يتساوون فيها أهل الملل كلهم في مداركها[3]، وتشمل على علوم الطب وعلم الهيئة – الفلك– والرياضيات والكيمياء والهندسة والفلسفة.

علم الهيئة:

وهو علم هيئة الأفلاك ويقال له في الاصطلاح الحديث: علم الفلك، وكانت العرب تسميه أيضا علم النجوم ويقابله علم التنجيم، 'وهو علم دراسة الأجرام السماوية برصد مواقعها وحركاتها وأشكالها لتعيين الفترات الزمنية، وسمي فلكا لاستدارته"[4].

ويعرفه ابن خلدون بأنه: "علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة أو المتحركة والمتحيزة، ويستدل بكيفيات من تلك الحركات على أشكال وأوضاع للفلك لزمت عنها

---

1 السريان: هم بقايا الكلدنين أو البابلين، والنصارى السريان هم الذين أخذوا الثقافة اليونانية من الإسكندرية وأنطاكية ونشروها في الشرق في مدارس الرها ونصيبين، وبذلك كانوا حلقة اتصال بين العرب واللغة اليونانية، صاعد: المصدر السابق، ص48، ابن النديم: المصدر السابق، ص38، دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية، بيروت، 1954م، ص295.

2 ابن خلدون: المقدمة، ص438.

3 المصدر نفسه، ص368 ، 438.

4 محمد عبد الرحمن مرحبا: الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، عويدات، ط2، بيروت، 1988م، ص417، جيرار جهامي: موسوعة مصطلحات العلوم عند العرب، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، 1999م، ج2، ص1144.

بهذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية"[1]، وقد جعل إخوان الصفاء في الرسالة الثالثة من رسائلهم الفلسفية علم الهيئة قسما ثالثا من الأفلاك وعدد الكواكب وقسم البروج وأبعادها وحركاتها وما يتبعها من هذا الفن وسمي هذا القسم علم الهيئة"[2].

وعرف تقدمه أيضا عند المسلمين على غرار مختلف العلوم العقلية حيث اهتم به خلفاء بني العباس وقربوا إليهم المنجمين حتى صاروا فئة من موظفي الدولة على غرار الكتاب والأطباء لهم رواتب وأرزاق، فكانوا يستشيرون المنجمين في كثير من أحوالهم الإدارية والسياسية، فإن خطر لهم عمل وخافوا عاقبته أخذوا برأي المنجمين فينظرون في حالة الفلك ثم يسيرون على مقتضى ذلك.

لقد كان الخليفة المنصور (136هـ-158هـ) مع براعته في الفقه ميالا إلى التنجيم حيث لم يكد يقطع أمرا إلا استشار المنجمين فيه، ويعتبر أول خليفة عباسي قربهم إلى بلاط الخلافة وعمل بأحكام النجوم[3].

وقيل لما همّ في بناء بغداد سنة 145هـ وضع أساسها في مكان اختاره له منجميه سهل بن نوبخت[4] وابن أثري اليهودي[5] المتوفي عام 220هـ[6]، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الخليفة المهدي (158هـ-169هـ) لما هـمّ هو الآخر بالخروج إلى ماسبذان[7]

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، ص375.

[2] إخوان الصفاء: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، دار بيروت، بيروت، 1957م، ج1، ص114.

[3]- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص136، المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص364.

[4]- سهل بن نوبخت: مترجم ورياضي وفلكي فارسي من أوائل المترجمين الذين عملوا ببغداد، موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، تحقيق جلال شوقي وآخرون، ج1، ص176.

[5]- ابن أثري اليهودي: الملقب بما شاء الله المنجم اليهودي البغدادي كان ماهرا في صناعة التنجيم في زمن المنصور توفي 220هـ وله مصنفات عدة، حاجي خليفة: المصدر السابق، ج6، ص486، ابن النديم: المصدر السابق، ص551.

[6]- اليعقوبي: البلدان، ص238.

[7]- ماسبذان: هي إحدى فروع الكوفة بالقرب من هيت الواقعة على شاطئ الفرات، وسبب خروج المهدي إليها سنة 169هـ هو عزمه على خلع البيعة من ابنه موسى الهادي ومنحها للرشيد، توفي بها، ابن عبد المنعم: الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، 1975م، ص519، ابن الأثير: المصدر السابق، ج6، ص81.

سنة 169هـ استشار توفيل بن توما النصراني[1] المتوفي عام 169هـ، وبلغت ثقته به بأن جعله رئيس منجميه[2]، والخليفة الواثق (227هـ-232هـ) لما اشتد مرضه أحضر المنجمين فنظروا في مولده فقدروا له أن يعيش خمسين سنة، فلم يعش بعد قولهم إلا عشرة أيام وكان عمره اثنين وثلاثين سنة[3].

وعلا شأن المنجمين وزادت مرتبتهم فكانوا يدخلون دار الخلافة ويجلسون في حضرة الخلفاء، ومما ذكره ابن خلكان: "أن منجما يهوديا زعم أن الخليفة هارون الرشيد (170هـ-193هـ) يموت في غضون تلك السنة، فاغتم الخليفة لهذا الأمر، فلما علم جعفر البرمكي وزيره بحاله أقبل عليه وكان المنجم في حضرة الرشيد فسأله: أن تزعم أن أمير المؤمنين يموت إلى كذا وكذا يوما، قال: نعم، قال: وأنت كم عمرك؟ قال: كذا وكذا أمدا طويلا، فقال: للرشيد أقتله حتى تعلم أنه كذب في أمدك كما كذب في أمده"، فقتله وذهب ما كان بالرشيد من غم[4].

وزادت رغبة المنصور بعلم الهيئة فشجع المترجمين والعلماء وأحاطهم بالعناية والرعاية خاصة أهل الذمة منهم لمعرفتهم بأمور الكواكب والنجوم، فقد كان المنجم اليهودي ابن أثري المتوفي عام 220هـ أعلم دهره بعلم النجوم وصنف الخليفة المنصور كتبا في الفلك منها كتاب "صنعة الاسطرلاب والعمل بها"، وكتاب "ذات الحلق"[5]، كما قام

1- توفيل بن توما: الرهاوي طبيب ومنجم نصراني نشأ في الرها وتعلم فيها أصول الفك والطب ثم قدم إلى بغداد وصار طبيب الخليفة المهدي وترجم له كتبا توفي عام 169هـ، موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، ج1، ص69.

2- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص17، هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الآفاق الجديدة، ط6، بيروت، 1981م، ص184.

3 ابن العبري: المصدر السابق، ص141.

4- ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص329.

5- ابن النديم: المصدر السابق، ص551، حاجي خليفة: الصدر السابق، ج6، ص486.

أبو يحيى البطريق[1] النصراني المتوفي عام 184هـ بترجمة كتاب "الأربع مقالات لبطليموس"[2] في صناعة أحكام النجوم[3].

أما ثابت بن قرة الصابي المتوفي عام 288هـ فقد جعله الخليفة المعتمد (256هـ-289هـ) من خاصته وفي جملة منجميه، وله أرصاد جليلة وعظيمة لنجم الشمس تولاها في بغداد وجمعها في كتاب "سنة الشمس"، حيث بين فيه حركة الشمس وحسب طول السنة الشمسية[4]، وعدت مصنفاته كتبا مدرسية معتمدة في جميع مدارس الدولة الإسلامية ومرجعا لكثير من علماء المسلمين أهمها كتاب "ترتيب الأفلاك وخلقتها وعددها وحركاتها"، وكتاب "رؤية الأهلة"، وكتاب "في علة كسوف الشمس"[5].

وزاد علم الهيئة تطورا خاصة في عهد الخليفة المأمون (198هـ-218هـ) بترجمة كتاب "المجسطي"[6] لبطليموس عام 212هـ من السريانية إلى العربية عن طريق الحجاج بن مطر المترجم النصراني المتوفي عام 221هـ[7]، وله ترجمة أخرى لصاحبها حنين بن إسحاق العبادي النصراني المتوفي عام 260هـ، والتي قام بمراجعتها عالم الفلك

1- أبو يحيى البطريق: أبو زكرياء الملكاني مترجم ورياضي وفلكي، من بلاد الشام خدم المنصور وكان يجيد اللاتينية ترجم عدة كتب من اليونانية إلى العربية، الزركلي: الأعلام، ج8، ص211، بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج4، ص94.

2- بطليموس: قلاوديوس -القلودي- الفلكي الجغرافي اليوناني عاش في مصر الرومانية في القرن الثاني بعد الميلاد، وجاء عصره بعد عصر أغسطس قيصر أول ملوك الروم، وإلى عهده انتهى علم النجوم واجتمع في يده ما كان متفرقا في يد اليونانيين، صاعد: طبقات الأمم، ص88 ، 90.

3- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص282.

4- المصدر نفسه، ص299، علي عبد الله: الدفاع: الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي، جون وايلي، نيويورك، (د.ت)، ص103.

5- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص299، عمر فروخ: المرجع السابق، ص281.

6- المجسطي: بكسر الميم كلمة يونانية أصلها "مجال سنطاكسيس" أي النظام العظيم وقيل: أصله "ماجستورس" ومعناه البناء الأكبر، ويشمل هذا الكتاب على ثلاثة عشر مقالة، ويعتبر أهم ما خلفته الحضارة الإغريقية في علم الفلك، صاعد: المصدر السابق، ص89-90، ابن النديم: المصدر السابق، ص540، نلينو: علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، مكتبة المثنى، بغداد، 1911م، ص221.

7- ابن النديم: المصدر السابق، ص541، هونكة: المرجع السابق، ص180.

والرياضي الصابي ثابت بن قرة المتوفي عام 288هـ[1]، وقد وفق هذا الأخير في اختصاره وجعل متنه سهل التناول مما أثر في تعميم المعرفة وترغيب العلماء في الاطلاع عليه والنهل منه[2]، ويعد أهم مرجع اعتمد عليه العرب و المسلمون في بداية نهضتهم العلمية في علم الفلك، وأن تعدد تراجم كتاب المجسطي ربما يرجع إلى سعة مضامينه واشتماله على مفاهيم وأساليب عسيرة ومعقدة، كما تمكن البتاني[3] المتوفي عام 317هـ من تصحيح أخطاء بطليموس في رسالته "إصلاح المجسطي"، واستطاع عن طريق الرصد تحديد بدقة طول السنة المدارية والفصول وتصحيح أرصاد الكواكب وحركاتها[4].

وعليه فقد سمحت هذه الكتب التي ألفت أو ترجمت من قبل علماء أهل الذمة أن وقف المسلمون على أصول علم الهيئة خاصة كتاب المجسطي حيث فهموا آلات الرصد الموصوفة به وأضافوا إضافات جوهرية ووضعوا المراصد والأزياج[5] في مختلف المدن الإسلامية[6].

1– حاجي خليفة: المصدر السابق، ج5، ص247، ابن النديم: المصدر السابق، ص541.

2– قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، دار الشروق، بيروت، (د ت)، ص197.

3– البتاني: أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني الصابي، الفلكي والرياضي تعلم صناعة الرصد والفلك عن أبيه قيل أنه تحول عن الإسلام رغم أن أسرته الحرانية كانت قد أسلمت توفي قرب سامراء عام 317هـ، حاجي خليفة: المصدر السابق، ج6، ص31، ابن النديم: المصدر السابق، ص561، موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، ج1، ص52.

4– ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص158، صاعد: المصدر السابق، ص143، EDOUARD PERROY : histoire générale des civilisations le moyen âge, Tome 3, presse universitaires de France, paris, 1961, P188.

5– الأزياج: الزيج لفظ أصله فارسي وهو صناعة حسابية على قوانين عددية يعرف بها مواقع الكواكب في أفلاكها ومعرفة الشهور والأيام والتواريخ والأوج والحضيض، ابن خلدون: المقدمة، ص376، نلينو: المرجع السابق، ص42.

6– صاعد: المصدر السابق، ص132.

فقد أقام المأمون (198هـ–218هـ) مرصدا عند باب الشماسة وعهد إدراته إلى المنجم اليهودي سند بن علي[1]، ومرصدا آخر بجبل قاسيون بدمشق وذلك سنة 214هـ[2]، ويعد الرصد أساس علم الفلك وعليه يتم تعيين أماكن النجوم وحركاتها وصار للمسلمين حظ وافر فيه بعدما كان يعتمد في وقت سابق على الوهم، بعد اختراع آلات الرصد الدقيقة مثل ذات الأوتار[3]، وذات الحلق[4] والاسطرلاب[5] وبذلك جاوزوا ما كان قائما عند اليونانيين والفرس[6].

ومن بين هؤلاء الفلكيين المسلمين البوزجاني[7] المتوفي عام 388هـ صاحب قاعدة معادلة السرعة ومفادها أن القمر يختلف سيره بين سنة وأخرى[8] وهو اكتشاف لم يسبقه

1– سند بن علي: أبو الطيب المنجم اليهودي عاش في القرن الثالث الميلادي وقيل أسلم على يد المأمون وله كتاب الحساب الهندي، وكتاب الجبر والمقابلة، ابن النديم: المصدر السابق، ص553، هونكة: المرجع السابق، ص200.

2– ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص137، EDOUARD PERROY : op. cit. P 188.

3– ذات الأوتار: وهي أربع أسطوانات مربعة ويعلم بها تحويل الميل، حاجي خليفة: المصدر السابق، ج1، ص136.

4– ذات الحلق: وهي أعظم آلات الهيئة وهي خمس دوائر مصنوعة من النحاس، الأولى تصف النهار ودائرة معدل النهار، ودائرة منطقة البروج ودائرة العرض، ودائرة الليل، والتي يعرف بها سمت ارتفاع الكواكب، ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص151، ابن العبري: المصدر السابق، ص73.

5– الاسطرلاب: كلمة إغريقية تعني مرآة النجوم أو مرآة الكواكب، وتتكون من دائرة أو قرص من المعدن وتنقسم الدائرة إلى درجات ليتم تعيين زاوية ارتفاع النجم، حاجي خليفة: المصدر السابق، ج1، ص166، هونكة: المرجع السابق، ص195.

6– عز الدين فراج: فضل العلماء المسلمين على الحضارة الأوربية، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص66.

7– البوزجاني: أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن اسماعيل بن العباس، رياضي وفلكي فارسي ولد في بوزجان قرب جنديسابور عام 329هـ وتوفي ببغداد عام 388هـ، ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص167، ابن النديم: المصدر السابق، ص566.

8– ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص181، قدري طوقان: المرجع السابق، ص140–141.

إليه أحد، أما الكوهي[1] المتوفي عام 405هـ الفلكي الراصد، ترأس مرصد بغداد عام 378هـ ومن أبرز أعماله كتاب "صنعة الاسطرلاب"[2].

لقد لعب أهل الذمة دورا كبيرا في إرساء مدرسة فلكية في بغداد من خلال ترجمة أمهات كتب الإغريق والفرس وتعريف المسلمين لتراث هذه الأمم، ثم عدت هذه المدرسة على قدر كبير من أهمية لما خلفته من تراث علمي زاخر.

الطب:

عرف ابن سينا الطب فقال: "إن الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عنه الصحة، ليحفظ الصحة ويستردها زائلة، والطب عنده ينقسم إلى نظر وعمل"[3]، أما ابن خلدون فيرى فيه: "صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية، بعد أن تبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن"[4].

وقد عرف العرب قبل الإسلام الطب لكن معرفته كانت مبينة على التجربة والملاحظة فكانوا يعالجون بالسحر وتقديم النذور لأصنامهم والكي بالنار واستخدام العقاقير والأعشاب، وبعد انتشار الإسلام في المناطق المفتوحة وجد المسلمون والعرب في العراق خدمات طبية مزدهرة خاصة في مدرسة جنديسابور المسيحية النسطورية، والتي استند التعليم الطبي فيها على كتب جالينوس[5]، ويرى ابن القفطي: "أن أطباء هذه المدرسة قد تميزوا عن غيرهم بالمهارة في الصنعة فوضعهم بأن فيهم حذق من زمن الأكاسرة"[6].

---

[1]– الكوهي: أبو سهل ريجن بن رستم من جبال طبرستان المنجم الراصد عاصر أبو الوفاء واشترك معه في رصد الكواكب، ابن النديم: المصدر السابق، ص567، كارل بروكلمان: المرجع السابق، ج4، ص219.

[2]– حاجي خليفة: المصدر السابق، ج6، ص502.

[3]– ابن سينا: القانون في الطب، دار صادر، بيروت، (د ت)، ج1، ص03.

[4]– ابن خلدون: المقدمة، ص380.

[5]– جالينوس: طبيب وكاتب وفيلسوف يوناني ينسب إليه حوالي خمسمائة مؤلف، أغلبها في الطب والفلسفة، واضع علم التشريح، وظل مرجعا للطب لكثير من العلماء، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص109، صاعد: المصدر السابق، ص84، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص72.

[6]– ابن القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المثنى، القاهرة، (د ت)، ص93.

ولا غرو أن شهرة مدرسة جنديسابور الطبية تكون قد دفعت بالخلفاء العباسيين – لاسيما الأوائل– بأن يتوجهوا لاستقدام كبار أطبائها إلى بغداد، مما ساهم في تطور هذه الصنعة بحاضرة الخلافة العباسية والذي كان –بدون شك– أساس النهضة في مجال الطب بعدئذ لدى العباسيين.

ويعتبر جورجيوس بن بختشوع النصراني المتوفي عام 155هـ رئيس أطباء جنديسابور أول الأطباء الذين استدعاهم الخليفة أبو جعفر المنصور (136هـ–158هـ) لمعالجته، وقد أحسن مداواته وصار طبيبه الخاص ونقل له بعض كتب الطب عن اليونانية إلى العربية، وصنف كتاب "كناش في الطب"[1]، كما خدم ابنه بختشوع المتوفي عام 184هـ هارون الرشيد وصار رئيس الأطباء ببغداد، وله كتاب "التذكرة في الطب"[2]، ثم خلفه ابنه جبرائيل بن بختشوع المتوفي عام 213هـ في بلاط الخليفة هارون الرشيد، ثم صار بعده طبيبا لولديه الأمين ثم المأمون[3].

وعليه فقد تبوأت أسرة آل بختشوع مكانة مرموقة في صناعة الطب واحتضنهم الخلفاء والوزراء وعاشوا في عز وجاه على مدى ثلاث قرون تعاقب خلالها ستة أو سبعة أجيال من أطباء هذه الأسرة وتوارثوا مهنة الطب والترجمة والتأليف والتدريس في مختلف أمصار الدولة الإسلامية، كان آخرهم أبا سعيد عبيد الله بن جبرائيل بن بختشوع المتوفي عام 453هـ.

كما قام حنين بن إسحاق العبادي النصراني المتوفي عام 260هـ بنقل كتب أبقراط[4] وجالينوس في الطب إلى العربية وتلخيصها وكشف ما أشكل منها حتى قيل: لا يوجد شيء من كتب جالينوس إلا وهو بنقل حنين أو بإصلاحه[5]، وقد ساعدته معرفته باللغة اليونانية والسريانية والعربية وتنقله إلى بلاد الروم الإلمام بالتراث اليوناني ثم نقله إلى

1– ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص124، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، 183.

2– حاجي خليفة: المصدر السابق، ج5، ص231، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص186.

3– ابن العبري: المصدر السابق، ص131، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص187–189.

4– أبقراط: طبيب يوناني عاش (460–370 ق.م)، يعرف بمعلم الطب الأول فصل الطب عن الخرافات والغيبيات وأقامه على أساس علمي، المصدر نفسه، ص43–44، صاعد: المصدر السابق، ص84.

5– ابن العبري: المصدر السابق، ص144، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص262، 271، CHIKH BOUAMRANE, LOUIS GARDET : op. cit. P 229.

العربية، كما يعد كتاب الفصول لأبقراط من أهم الكتب المترجمة التي ترجمها حنين وهو عبارة عن تسع مقالات تتضمن تعريف مبادئ الطب، إلى جانب كتاب التشريح[1].

وبذلك ساهمت مؤلفاته وتراجمه في ازدهار صناعة الطب وتطورها ويأتي في مقدمتها كتاب "العشر مقالات في العين"[2] الذي اكتسب شهرة في مجال الكحالة –طب العيون–[3]، بدليل أن المحتسب في بغداد كان لا يسمح لأحد بممارسة مهنة الكحالة قبل التأكد بمعرفة هذا الكتاب[4].

ولم يقتصر دور هؤلاء الأطباء النصارى على وصف العلاج ونقل الكتب الطبية من اللغات الأجنبية إلى العربية وإضافة الجديد لها مما يتماشى مع خلاصة تجاربهم، بل انتظمت مهنة الطب في الدولة الإسلامية على أيديهم، فقد درسوا الطب ولم يسمحوا لأحد بالعمل بمجاله إلا بعد امتحانهم له.

فقد درس الطبيب أبو بكر الرازي على يد أبي الحسن بن ربن الطبري[5] المتوفي عام 240هـ صاحب كتاب 'فردوس الحكمة"[6]، كما درس الحكيم ابن سينا على يد ابن سهل المسيحي[7] المتوفي عام 400هـ الطبيب الفاضل في خراسان[8]، كما عهد الخليفة

1– ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص54، 138.

2– المقالات العشر في العين: طبيعة العين وتركيبها، طبيعة الدماغ ومنافعه، العصب الباصر، حفظ الصحة، الأعراض الكائنة في العين، علامات أمراض العين، جمع قوى الأدوية العامة، أجناس الأدوية للعين، مداواة أمراض العين، الأدوية المركبة، المصدر نفسه، ص 271–272.

3– المصدر نفسه، ص271.

4– أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، 1981م، ص53، هونكة: المرجع السابق، ص235.

5– أبو الحسن بن ربن الطبري: علي بن سهل السرياني اللغة نصراني النحلة قيل أنه أسلم في آخر عمره على يد المعتصم (218هـ–227هـ) وقربه إليه واتخذه طبيبا خاصا ثم أدخله المتوكل عام 232هـ في جملة ندمائه وله كتاب حفظ الصحة وكتاب في الحجامة، ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص44، التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص58، ابن النديم: الفهرست، ص290.

6– صاعد: المصدر السابق، ص153، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص414.

7– أبو سهل: عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني، طبيب بارع في صناعة الطب فصيح العبارة جيد التصنيف، له مقالة في الجذري، المصدر نفسه، ص436–437.

8– ابن العبري: المصدر السابق، ص189، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص436.

المقتدر بالله (295هـ-320هـ) إلى الطبيب سنان بن ثابت بن قرة المتوفي عام 331هـ بتنظيم مهنة الطب وتقييدها بنظام خاص، بامتحان الأطباء في بغداد عام 319هـ إثر وفاة أحد العامة نتيجة جهل أحد الأطباء، فكان يمتحن كل طبيب على حدى فإذا ما وجده ضليعا في فرع من فروع الطب أعطاه تصريحا بالعمل فيه[1].

كما يرجع الفضل لأطباء النصارى في تطوير العلاج السريري[2] من خلال البيمارستانات[3] التي عنى الخلفاء بتشيدها في شتى أنحاء الدولة الإسلامية ولاسيما الحاضرة بغداد، وقد عدت إحدى المؤسسات الخيرية لخدمة الناس وتلبية حاجيات المرضى الراقدين فيها من الغذاء والدواء وتخليدا لذكراهم، غير أن الكثير منها تعرض للإهمال ثم الزوال لأسباب متعددة لعل من بينها عدم توفر الأوقاف[4].

فقد أنشأ الخليفة الرشيد (170هـ-193هـ) في بغداد بيمارستانا سمي باسمه وعهد إدارته إلى الطبيب النصراني يوحنا بن ماسويه المتوفي عام 243هـ من أطباء جنديسابور، وتولى جبرائيل بن بختشوع المتوفي عام 213هـ رعايته[5]، وأقام الخليفة المقتدر (295هـ-320هـ) بيمارستانا سنة 303هـ بإيعاز من الطبيب سنان بن ثابت بن قرة يعرف بالبيمارستان المقتدر، وأنفق عليه من ماله الخاص في كل شهر مائتي دينار[6]، وبيمارستان العتيق الذي أسسه الخليفة المعتضد (279هـ-289هـ) في أول خلافته وهو من أقدم البيمارستانات فقد تمتع بأوقاف واسعة[7]، كما أقيم بيمارستان بمصر

1- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص302، هونكة: المرجع السابق، ص235.

2- العلاج السريري: أي الإشراف على المريض داخل البيمارستان وإخضاعه للملاحظة والفحوص ومعاينة التغيرات وتزويده بالدواء والغذاء، أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، دار المعارف، ط2، القاهرة، مصر، 1984م، ص173.

3- البيمارستان: كلمة فارسية مركبة من كلمتين، بيمار: وتعني المريض أو العليل أو المصاب، وستان: تعني مكان أو دار، فهي إذن دار المريض، أحمد عيسى: المرجع السابق، ص04.

4- عبد الحسين مهدي عبد الرحيم: الخدمات العامة في بغداد -400هـ-656هـ-، دار الشؤون الثقافية، ط1، بغداد، 1987م، ص150.

5- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص245-246، EDOUARD PERROY : op.cit. P 187.

6- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص302.

7- عبد الحسين مهدي: المرجع السابق، ص151.

أيام الخليفة المتوكل سنة 247هـ عرف ببيمارستان المغافر[1] وآخر بأنطاكية قام بإنشائه الطبيب النصراني ابن بطلان[2] المتوفي عام 455هـ[3].

ويعد البيمارستان العضدي الذي شيده عضد الدولة بن بويه في سنة 368هـ على طريق الجسر في الجانب الغربي من بغداد أكبر بيمارستان في القرن الرابع الهجري، وقد تمتع بأوقاف كبيرة ومتنوعة أسهمت في تطويره فنيا من حيث حسن الإدارة –النظارة- وتوفر الأدوية وعدد الأطباء، ويروي ابن أبي أصيبعة أنه كان يضم أربعة وعشرون طبيبا ذكر بعضهم بالاسم[4].

وقد بلغت البيمارستانات الإسلامية من التنظيم والتطور الشيء الكبير فكان لكل بيمارستان ناظرا يتولى جميع شؤونه وأقسامه، وكان الأطباء يتناوبون العمل فيه، ويري ابن أبي أصيبعة أن الطبيب البغدادي جبرائيل بن عبيد الله بن بختشوع المتوفي عام 396هـ رئيس البيمارستان العضدي ببغداد كان له نوبة في الأسبوع يومان وليلتان وكان يتقاضى راتبا قدره ثلاثمائة درهم[5].

كما يعد التخصص في الطب من أهم منجزات الحضارة الإسلامية والذي ساهم في تطوره الأطباء النصارى، فقد اختص علي بن عيسى[6] المتوفي عام 430هـ في طب الكحالة وصنف كتاب 'تذكرة الكحالين"، وقال عنه ابن أبي أصيبعة إنه ضـــروري لكل من امتهن صناعة الكحل –طب العيون-[7]، أما في علم الجــراحة فقد برع ابن

1- المقريزي: الخطط، ج1، ص406.

2- ابن بطلان: أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون، النصراني البغدادي طبيب ماهر طاف بالعراق ومصر وبلاد الشام والقسطنطينية صنف عدة كتب منها كتاب "تقويم الصحة"، وكتاب 'مدخل إلى الطب"، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، 335، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص190.

3- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص328.

4- المصدر نفسه، ص415-416، ابن العبري: المصدر السابق، ص172.

5- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص211.

6- علي بن عيسى: الكحال النصراني، نشأ في بغداد وتعلم صناعة الطب على يد حنين بن إسحاق ويعد كتابه 'تذكرة الكحالين: من أبرز مؤلفاته ويتضمن ثلاث مقالات، الموسوعة الإسلامية والعلماء المسلمين، ج1، ص151.

7- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص333.

المجوسي[1] المتوفي عام 372هـ من خلال كتابه "الملكي" الذي تحدث فيه عن الجراحة كموضوع قائم بذاته، كما تضمن وصفا لبعض الجراحات مثل: استئصال الأورام وعلاج الشرايين[2].

وبذلك فقد اختص النصارى دون غيرهم من أهل الذمة في صناعة الطب فكانوا أطباء الخلفاء والوزراء وعلا شأنهم حتى صار الناس لا يثقون في الدولة الإسلامية بأحد من الأطباء إلا بهم، ويروي الجاحظ في كتابه البخلاء: أن الأسد بن جاني اشتكى كساد مهنته عند المرضى وهو طبيب مسلم، ورد سبب ذلك فقال: فإني عندهم مسلم وأن المسلمين لا يفلحون في الطب واسمي أسد وكان ينبغي أن يكون اسمي صليبا أو يوحنا أو جبريل، ولفظي عربي كان ينبغي أن يكون لغة أهل جنديسابور[3].

الصيدلة:

الصيدلة مهنة مزاولة تحضير الدواء وهي علم وفن وصناعة وتجارة، ولفظ صيدلة أصله هندي –جندل– جاء من الفرس معناه: العقار أو الدواء، وأصله العربي صيدنة نسبة إلى عطر الصندل[4]، ويرى حاجي خليفة[5]: "إنها لفظ يوناني مأخوذ من علم الأقراباذين ومعناه: التركيب، أي تركيب الأدوية المفردة وقوانينها".

وقد اعتمدت المعرفة الفعلية للأدوية والعقاقير لدى المسلمين على المصادر الفارسية والهندية إلى حد كبير، ويذكر الجاحظ: إن كل صيدلاني بالعراق إلا وله غلام سندي[6]، وكما اعتمد علماء أهل الذمة ببغداد في مجال الصيدلة على معارف اليونان فقد نقلت هذه المعارف إلى اللغة العربية عن طريق الترجمات السريانية للكتب التي ألفها جالينوس

1– ابن المجوسي: أبو الحسن بن العباس الفارسي، الزردشي، نشأ في الأهواز وعمل طبيبا لعضد الدولة البويهي (338هـ–372هـ)، ألف كتاب الكامل في صناعة الطب أو ما يعرف بالملكي، بروكلمان: المرجع السابق، ج4، ص291.

2– ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص319–320، الموسوعة الإسلامية والعلماء المسلمين، ج1، ص165.

3– الجاحظ: البخلاء، المكتبة الثقافية، ط2، بيروت، (د ت)، ص74.

4– محمود محمد محفوظ وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، ج3، ص1541، محمد عبد الرحمن مرحبا: المرجع السابق، ص291.

5–كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج2، ص1085.

6– الجاحظ: الحيوان، ج3، ص434.

وديسقوريدس[1] ويعد كتاب "الحشائش" أو "الهيولي في الطب" لهذا الأخير من أهم الكتب الصيدلية حيث تضمن خمس مقالات، مقالة في الأدوية العطرة والأدهان والصموغ، والثانية تتضمن ذكر الحيوانات والحبوب والبقول، والثالثة في ذكر أصول النبات، والرابعة الحشائش النافعة من السموم[2]، وقد تم ترجمته من اليونانية إلى العربية في أيام الخليفة المتوكل (232هـ-247هـ) من قبل اصطفن بن بسيل، وقام حنين بن إسحاق العبادي النصراني المتوفي عام 260هـ بتصحيحه[3]، ويعتبر هذا الكتاب أهم مصدر للصيدلة الإسلامية وما من طبيب ذو قدر إلا وقام بدراسته.

كما ترجم حبيش بن الأعسم[4] كتاب جالينوس "تركيب الأدوية"[5] ويوحنا بن ماسويه المتوفي عام 243هـ له في علم الصيدلة جانبا ومن مصنفاته كتاب تركيب الأدوية المسهلة وإصلاحها وكتاب السموم وعلاجها[6]، وأما سابور بن سهل[7] النصراني المتوفي عام 255هـ يعد هو الآخر من كبار علماء الصيدلة ببغداد وقال عنه ابن أبي أصيبعة: كان فاضلا عالما بالأدوية المفردة وترتيبها[8]، ومن كتبه "الأقراباذين الكبير" ويقع في سبعة عشر بابا كان له شهرة في بغداد حيث ظل معترفا به في دكاكين الصيادلة

1- ديسقوريدس: حكيم يوناني عاش في القرن الأول أو الثاني من التاريخ المسيحي، ويعتبر أول من تكلم من اليونانيين في علم العقاقير، وقد أثنى جالينوس على كتابه "الحشائش"، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص58، حاجي خليفة: المصدر السابق، ج2، ص1418.

2- ابن النديم: المصدر السابق، ص584، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص59، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص62.

3- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص493.

4- حبيش بن الأعسم: الحسن الدمشقي النصراني ابن أخت حنين وتلميذه، تعلم صناعة الطب وعاش في بلاط المتوكل وكان يساعد خاله حنين في النقل، ابن النديم: المصدر السابق، ص592، بركلمان: المرجع السابق، ج4، ص117.

5- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص143، 276.

6- المصدر نفسه، ص255.

7- سابور بن سهل: طبيب فاضل نصراني النحلة، كان يتولى بيمارستان جنديسابور وله عدة مؤلفات في الطب والصيدلة، توفي عام 255هـ، ابن النديم: المصدر السابق، ص591، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 138.

8- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص230.

والبيمارستانات على مدى ثلاث قرون حتى صنف الطبيب البغدادي الكبير أمين الدولة هبة الله بن التلميذ المتوفي عام 560هـ كتابه "الأقراباذين" الذي يقع في عشرين بابا[1].

قد برع هؤلاء الأطباء من أهل الذمة في معرفة أنواع الأدوية وخصائصها وتراكبها ومقاديرها وكيفية استعمالها بطريقة علمية ومدى استجابة أحوال المريض له، مما سمح لهم تنظيم مهنة الصيدلة وإخضاعها للرقابة ومنح تراخيص لكل من يريد الاشتغال بها، وما يروى في ذلك أن الأفشين أحد قادة الخليفة المعتصم (218هـ-227هـ) طلب من طبيبه زكريا بن الطيفوري النصراني أن يعقد للصيادلة امتحانا لمعرفة الناصح منهم[2].

وبذلك ساهمت هذه المصنفات والأعمال في ازدياد استيعاب المسلمين لمعارف القدماء كما مهدت إلى مرحلة الإبداع واستخلاص النظريات حتى أصبح المسلمون فيما بعد المؤسسون الحقيقيون لعلم الصيدلة، ويعتبر الرازي المتوفي عام 320هـ رائدا في هذا المجال حيث طبق علم الكيمياء على الصيدلة وأجرى تجارب لتحضير مستخلصات، وفي كتابه "الحاوي" قسم عام للصيدلة وآخر للأدوية وثالث للعلاج بالأغذية، كما دعا إلى استقلال علم الصيدلة عن الطب واعتباره وحدة مستقلة من خلال كتابه "محنة الطب"[3].

الهندسة:

يعرف ابن خلدون الهندسة: "بأنها النظر في المقادير إما المتصلة كالخط والسطح والجسم، أو المنفصلة كالأعداد فيما يعرض لها من العوارض الذاتية"[4]، وهي كذلك علم يبحث في المنحنيات والتمثيل الهندسي وخواص الفراغ والعلاقات بين الأشكال الموجودة فيه[5]، والهندسة من العلوم القديمة التي عرفت عند أهل بابل وقدماء المصريين وعند الهنود والفرس، فقد قيل أنها كلمة هندية وقيل أيضا من أصل فارسي[6].

1- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 371.

2- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص140-141.

3- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص424-425.

4- ابن خلدون: المقدمة، ص373.

5- يوسف خياط: معجم المصطلحات العلمية والفنية، دار لسان العرب، بيروت، (د ت)، ص703، محمود محمد محفوظ وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، ج4، ص2550.

6- صاعد: طبقات الأمم، ص52، 74.

ومن المعروف أن المسلمين أخذوا أصول هذا العلم عن الأمم القديمة التي سبقتهم لنقل كتبهم مثل كتاب الأصول والأركان لإقليدس[1]، والذي نقله الحجاج بن مطر النصراني المتوفي عام 221هـ إلى المأمون، كما نقله حنين بن إسحاق النصراني المتوفي عام 260هـ وصححه ثابت بن قرة الحراني الصابي المتوفي عام 288هـ[2].

ويعد هذا الكتاب البوابة العظمى التي دخل منها العقل الإسلامي إلى عالم الهندسة، وقد اعتبره ابن خلدون مبدأ العلوم الهندسية على الإطلاق[3]، وقد أعطى علماء العرب والمسلمين هذا الكتاب اهتماما كبيرا فكتبوا عليه شروحا واختصروه وصنفوا كتبا على نسقه وأدخلوا فيها قضايا وبحوثا جديدة لم يتناولها إقليدس، وفي مقدمة هؤلاء أبو سهل الكوهي المتوفي عام 405هـ إذ صنف كتابا في الهندسة على نسق كتاب إقليدس تحت عنوان "الأصول على تحريكات إقليدس"[4].

ومن أبرز علماء أهل الذمة الذين ساهموا في تقدم علم الهندسية عند العرب والمسلمين أبو الحسن ثابت بن قرة الصابي المتوفي عام 288هـ حيث ذكر له عدة مؤلفات بعضها من إبداعه وبعضها تطوير لآراء قديمة مثل تطويره لنظرية فيثاغورث (584-495 ق.م) والتي تقول أن مربع الوتر في المثلث قائم الزاوية يساوي المجموع مربعي الضلعين[5]، ومن كتبه كتاب "المختصر في الهندسة" ورسالة في استخراج المسائل الهندسية[6].

---

[1]- إقليدس: فيلسوف ورياضي يوناني (450-380ق.م) قيل ولد بالإسكندرية واستقر في بلاد الإغريق، المظهر لعلم الهندسة واشتهر بكتابه أصول إقليدس، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص38، صاعد: المصدر السابق، ص86، روني إيلي: موسوعة أعلام الفلسفة، مراجعة جورج نخل، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت)، ج2، ص194.

[2]- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص280.

[3]- ابن خلدون: المقدمة، ص373.

[4]- ابن النديم: المصدر السابق، ص567.

[5]- علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1983م، ص177.

[6]- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص300، ابن النديم: المصدر السابق، ص548.

كما صنف سنان بن ثابت بن قرة المتوفي عام 320هـ كتاب "إصلاح كتاب إقليدس" في الأصول الهندسية وأضاف إليه الشيء الكثير[1].

دور أهل الذمة في العلوم النقلية:

وهي المستمدة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، وتشمل علوم الدين والفرائض واللغة وعلم الكلام والأدب والتاريخ، وعلماء هذا النوع يغلب على ثقافته النقل والاستيعاب ويسمون أهل العلم، عكس العلوم العقلية التي يغلب على ثقافتهم الإبداع والاستنباط ويسمون أهل الحكمة[2].

الأدبية والتاريخية:

اندمج أهل الذمة في المجتمع العباسي ولم يقتصر دورهم ونشاطهم على الترجمة والاشتغال بالطب والفلك والهندسة وغيرها من العلوم العقلية، بل انكبوا على دراسة اللغة العربية وآدابها وتدوين الوقائع والأحداث السياسية، على غرار حنين بن إسحاق النصراني المتوفي عام 260هـ، الذي تعلم قواعد اللغة العربية بالبصرة على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي، وصار ضالعا فيها وأدخل كتاب "العين" إلى بغداد[3].

ومن أدباء الدولة العباسية أبا عبيدة معمر بن المثنى[4] المتوفي عام 209هـ تنوعت ثقافته وكان عالما بأيام العرب وأخبارهم وعلومهم وأنسابهم، وبالثقافة الفارسية ومعارف اليهود حتى قيل فيه: "لم يكن في الأرض أعلم بجمع العلوم منه"[5]، استقدمه الربيع بن الفضل وزير الخليفة هارون الرشيد من البصرة إلى بغداد عام 188هـ وأخذ عنه أبو عبيدة القاسم بن سلام[6] المتوفي عام 223هـ، وأبو حاتم

1- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص304.

2- ابن خلدون: المقدمة، ص323.

3- صاعد: طبقات الأمم، ص102، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص262.

4- أبو عبيدة معمر بن المثنى: اختلف في نسبه قيل من يهود فارس ومن قرية باجروان، كان فاسد الأخلاق قتل مسموما في خلافة المأمون عام 209هـ، ابن النديم: المصدر السابق، ص107.

5- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج6، ص2704، ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص235.

6- أبو عبيدة القاسم بن سلام: اشتغل بالحديث والأدب والفقه وكان حسن الرواية صحيح النقل تولى القضاء بطرطوس، ذكر له ابن النديم حوالي عشرين كتابا، ابن النديم: المصدر السابق، ص140، ابن ثغري بردي: المصدر السابق، ج2، ص294.

السجستاني[1] المتوفي عام 255هت وغيرهما من علماء بغداد[2]، ويرجع له الفضل في أنه مهد الطريق لغيره من جامعي الأخبار، فإن الأصفهاني لما وضع أغانيه اعتمد على كتابه "أيام العرب"[3].

ويذكر له ابن النديم[4] مائة مؤلف في اللغة والأمثال والفتوح والأنساب وبيوتات العرب وأيامهم، وأبرز كتبه كتاب "مثالب العرب" –معائب العرب–، وكتاب "شعراء العرب"، ونقائض فرزدق وجرير، غير أنه يؤخذ عليه تحامله الشديد على العرب فراح يطعن فيهم ويمزق في أعراضهم ونشر مخازيهم في كتاب "مثالب العرب"، مما قلل من موضوعية شهادته وروايته عند البعض.

أما أبو قابوس النصراني[5] الذي عاش في القرن الثاني الهجري، فكان هو الآخر غزير الشعر فصيح اللسان عظيم الشأن كان لبني العباس مثل الأخطل[6] لبني أمية إذ كان لا يمدح سواهم وأكثر مدحه في البرامكة وتقرب بهم إلى الخليفة هارون الرشيد حتى صار شاعر البلاط العباسي وهو القائل في يحيى بن خالد البرمكي:

رأيت يحيى أتم الله نعمته * عليه ياتي الذي لم يأتيه أحد[7]

وأفضل من ذلك قوله لما أوقع هارون الرشيد بجعفر بن يحيى البرمكي وصلبه عند جسر بغداد، فرأوا أبا قابوس تحت جذعه فأخذه صاحب الحرس فأدخله على الرشيد فقال له: ما كنت قائلا تحت جذع جعفر؟ قال: ترحمت والله عليه، ثم أنشده يشفع عنده الفضل بن يحيى البرمكي بقوله:

1– أبو حاتم السجستاني: كان عالما باللغة والشعر كثير الرواية عن أبي عبيدة والأصمعي، ذكر له ابن النديم حوالي اثني وثلاثين كتابا أكثرها في اللغة، ابن النديم: المصدر السابق، ص118.

2– ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص235.

3– بطرس البستاني: أدباء العرب في الأعصير العباسية، دار الجيل، بيروت، 1969م، ص190.

4–الفهرست، ص107، 110.

5– أبو قابوس النصراني: اسمه عمرو بن سليمان وقيل عمر بن سليم الحيري العبادي من بني الحارث بن كعب وكنيته أبو قابوس، لزم وزراء بني العباس وكان كثير المدح للبرامكة، المرزباني: معجم الشعراء، تصحيح وتعليق الأستاذ ف. كرنكو، مكتبة القدس، القاهرة، 1937م، ص218–219.

6– الأخطل: عياث بن غوث بن الصلب من قبيل ثغلب، وهو النصراني قربه خلفاء بنو أمية إلى بلاطهم وصار شاعرهم وممدوحهم، جورجي زيدان: تاريخ أدب اللغة العربية، م1، ص248.

7– ابن خلكان: المصدر السابق، ج6، ص225، المرزباني: المصدر السابق، ص219.

أمين الله هب الفضل بن يحيى * لنفسك أيها الملك الهمام

أرى سبب الرضا عنه قويـا * على الله الزيادة والتمـام

ولما سمع الخليفة هذه الأبيات قال: رجل حفظ جميلا فنال به جميلا، فأعطى له الأمان وأجزى له ألف دينار في كل سنة[1].

كما كـان لشعره يد في نصرة العباسيين والرد على خصومهم فقد دارت مهاجاة بينه وبين العتابي[2] الذي رمي بالزندقة لما عرف عنه من تحامل على البرامكة والطعن فيهم، وتناقل شعره العديد من الشعـراء وقد ذكر له لويـس شيخـو[3] عدة قصائد شعرية قالها في مناسبات مختلفة، وهارون بن الحائك المتوفي عام 290هـ يهودي من أهل الحيرة كان عارف بالنحو على مذهب الكوفيين[4]، جرت له مناظرات مع ابن العباس المبرد[5]، صنف عدة كتب أهمها كتاب "العلل في النحو"[6]، كما يعد علي بن نصر[7] المتوفي عام 376هـ، من الأدباء المصنفين ومن جملة كتبه "أدب السلطان"، وكتاب "إصلاح الأخلاق"[8]، ويعد كتاب "المفاوضة" من أخصب كتبه حيث دون فيه أخبارا ومآثر أعلام عصره من أدباء ورجال دولة ومن روى عنهم[9].

1- لويس شيخو: شعراء النصرانية بعد الإسلام، دار المشرق، ط2، بيروت، لبنان، 1967م، ج2، ص244-245.

2- العتابي: كلثوم بن عمر الثغلبي ويكنى أبا عمرو، وهو شامي شاعر مجيد مقتدر وكاتب مترسل رمي بالزندقة فطلبه الرشيد فهرب إلى اليمن، المرزباني: المصدر السابق، ص351.

3- شعراء النصرانية بعد الإسلام، ج2، ص243.

4- حاجي خليفة: المصدر السابق، ج6، ص503.

5- أبو العباس بن المبرد: محمد بن يزيد بن الأكبر الثمالي، يعرف بالمبرد ولد بالبصرة سنة 210هـ ثم انتقل إلى بغداد، ويعتبر شيخ النحو واللغة له كتاب "الكامل" توفي عام 285هـ، ابن الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج3، ص280.

6- ابن النديم: المصدر السابق، ص147.

7- علي بن نصر: أبو الحسن النصراني البغدادي، كان كتاب ديوان الرسائل في أيام جلال الدولة أبي طاهر بن بهاء الدولة بن عضد الدولة، حاجي خليفة: المصدر السابق، ج5، ص682.

8- ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص225.

9- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج5، ص1947، 1954.

أما أبا إسحاق الصابي المتوفي عام 384هـ فكان أديبا وشاعرا فاضلا، كان الوزير المهلبي يحفظ أشعاره ويتأسف على ما فاته[1]، وكان يكتب على لسان ولاة الأمر في عصره من ملوك آل بويه فقد اشتملت رسائله على حقائق تاريخية ورسمية تفسر بعض ما البس من تاريخ ذلك العصر، وقد دونت رسائله العديد من الحوادث السياسية التي كتبها عن ركن الدولة بن بويه سنة 364هـ شرح فيها فتح بغداد وانهزام الأتراك[2]، وذكر الثعالبي[3] له عدة رسائل تنم كلها على مهارة فائقة في صناعة الإنشاء واسترسال الأحداث، وقد نالت كتبه أهمية تاريخية واجتماعية وسياسية مثل كتاب "الشريف الراضي"، وكتاب "التاجي" الذي اشتمل على أخبار البويهيون الذي صنفه لعضد الدولة.

أما حفيده هلال بن محسن الصابي[4] المتوفي عام 484هـ فقد سار على نهجه فكان أديبا حسن التصنيف له مؤلفات عديدة في السياسة والتاريخ والأدب أبرزها كتاب "الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان"، ضمن فيه أخبارا وحكايات نادرة[5]، وكتاب 'تاريخ الوزراء" وهو كتاب مسهب وصف فيه ما حدث من أخبار العباسيين بين سنتي 360هـ-447هـ.

وكان ابنه غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال الصابي المتوفي عام 480هـ منشئا ماهرا له كتاب "التاريخ الكبير" وكتاب "الهفوات النادرة" جمع فيهما كثير من الحكايات والطرائف وأخبار رجال الدولة[6]، وثابت بن سنان بن قرة الصابي المتوفي عام 363هـ صاحب كتاب "التاريخ الكبير"، يعد هو الآخر من المصادر التاريخية الهامة حيث جمع فيه وقائع وحوادث جرت في زمانه وذلك من سنة 295هـ إلى حين وفاته[7].

1- ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص52، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج1، ص131.

2- أبو إسحاق الصابي: المختار من رسائل الصابي، بعناية شكيب أرسلان، دار النهضة، بيروت، (د.ت)، ص17-18.

3- يتيمة الدهر، ج2، ص244-245، التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج3، ص159.

4- هلال بن محسن الصابي: أبو الحسن بن إسحاق بن إبراهيم الحراني، ولد سنة 359هـ كان منشئا فاضلا أخذ العلم من أبا علي الفارسي، وقيل أنه أسلم في آخر عمره، ابن خلكان: المصدر السابق، ج6، ص161، ابن الجوزي: المنتظم، ج8، ص176.

5- الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج4، ص76، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج6، ص2783.

6- حاجي خليفة: المصدر السابق، ج6، ص75.

7- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص307.

أما أمين الدولة بن موصلايا[1] فقد عرف بحسن الإنشاء وقوة البيان بلغ من الأدب مبلغا عظيما وصفه ابن ثغري[2] في تاريخه بالمترسل الشاعر المجيد، خلف كتاب في فن وأدب الترسل والإنشاء ذكره القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى"[3]، تولى ديوان الإنشاء للخلفاء العباسيين خمسة وستين سنة مما جعل منه منشئ دار الخلافة، وكانت رسائله وآراءه تعبر عن فضله وغزارة علمه، على غرار العهد الذي خطه باسم الخليفة القائم بالله (422هـ-467هـ) لجاثليق النساطرة الفطرك عبد اليشوع ومما جاء فيه: "لما أنهى إلى حضرة أمير المؤمنين تميزك من نظرائك وتحليك بالسداد لما يستوجب معه من أمثالك البالغة في وصفك ...، وأوعز ترتيبك جاثليقا لنسطور النصارى في مدينة السلام والأصقاع وزعيما لهم، فقابل نعمة أمير المؤمنين عندك بما يستوجب من الشكر"[4].

كما تسرب إلى الأدب العباسي الغزل الإباحي والغزل بالمذكر، وهذا اللون من الأدب يصور في الحقيقة ما وصلت إليه الحضارة من انحطاط أخلاقي وموضوع هذا الغزل جديد لم يعرفه الشعر العربي قبل القرن الثاني، وقد تسرب هذا النوع من الغزل من الأديرة الأجنبية المسيحية، فقد كان كثير من الشعراء وبخاصة أصحاب اللهو والمجون يذهبون إلى هذه الأديرة ويتصلون بأصحابها ويشاركونهم عاداتهم[5].

ومن ثم فقد كان من الطبيعي أن يكثر التغزل بالنصارى ويشيع الغزل النصراني على لسان كثير من شعراء هذا العصر، ومما يصور ذلك قول أبي نواس في غلام نصراني كان يهواه مقسما بأقدس مقدساته النصرانية:

بإنجيل الشعانيـــن المفـــدى * وشمعلة النصارى في الطريق

وبالصلب العظيمة حين تبدو * وبالزنار في الخصر الدقيـــق

1- أمين الدولة بن موصلايا: أبو سعيد العلاء بن الحسن بن وهب الملقب بأمين الدولة، ولد سنة 412هـ وقيل أسلم في آخر عمره عام 488هـ ، توفي عام 497هـ، ابن خلكان: المصدر السابق، ج3، ص480، ابن الجوزي: المنتظم، ج6، ص292.

2- النجوم الزاهرة، ج5، ص129

3- صبح الأعشى، ج6، ص391.

4- لويس شيخو: المرجع السابق، ص287-288، القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص444.

5- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني،ج4، ص259، 269، مصطفى بيطام : مظاهر المجتمع ومظاهر التجدد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول (132هـ-232هـ)، رسالة ماجستير في الأدب القديم ، معهد الآداب، جامعة قسنطينة، 1985، ص 391.

وبالحسن المركب فيك إلا * رحمت تحركي وجفوف ريقي[1]

وقول ابن المعتز في الغرض نفسه:

ابن نصارى يدين دينهم * حدث عنه بذاك زنار

فظلمت في يوم لذة عجب * وافي به للسعود مقدار[2]

ويتضح مما سبق أن كتابات هؤلاء المصنفين والرواة والأدباء من أهل الذمة بقدر ما كانت شواهد تاريخية وثقت العديد من الأحداث والوقائع في الدولة الإسلامية ومآثر رجالها بحكم المناصب التي شغلوها في دواليب الدولة وقربهم من مصدر الخبر والحدث، وسببا في إنضاج وازدهار فنون الأدب والكتابة التاريخية ولاسيما فن النثر والرسائل الديوانية، بقدر ما رسمت رؤية غير إسلامية لهذا الواقع فضلا عما أصاب الأدب العباسي من تفسخ وانحراف وتسرب عدد من الألفاظ اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية.

الكتابات الدينية:

كان من أسباب اختلاف السكان في الدولة في العباسية انتسابهم من حيث أصولهم إلى أمم مختلفة، وترتب عن ذلك أن تسرب إلى المسلمين الشيء غير القليل من معتقدات اليهود والنصارى والمجوس، حيث لم يكن التأثير مقتصرا فقط على ما يبدونه من طقوس دينية بل امتد إلى السجال الفكري، فقد صارت الكتابة الدينية مادة أساسية في التنافس المذهبي والطائفي وزادت معها الحياة الفكرية تنوعا وثراء.

فقد اختص كثير من أهل الذمة من أدباء وأطباء وكتاب في شرح مذاهب نحلهم وعقائدهم والرد على خصومهم ووصف أحوالهم في الدولة الإسلامية، ويعتبر كتاب "نظم الجوهر" في التاريخ الذي صنفه سعيد بن البطريق[3] النصراني المتوفي عام 328هـ من أهم الكتب التاريخية الدينية حيث احتوى على تواريخ من عهد آدم إلى سنة 321هـ من

1- عثمان موافي: المرجع السابق، ص287-288.

2- ابن المعتز: ديوان ابن المعتز، دار بيروت، بيروت، 1980م، ص229.

3- سعيد بن البطريق: ولد بالفسطاط سنة 263هـ من نصارى الأقباط، اشتغل بالطب والأدب وفي سنة 321هـ رقي إلى مرتبة بطريق الإسكندرية، كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج3، ص77.

الدولة العباسية، تحدث فيه عن أخبار النصارى وأعيادهم وذكر البطارقة[1] وأجدادهم ومدة حياتهم وما جرى لهم في الدولة الإسلامية[2].

أما سعديا الفيومي[3] المتوفي عام 331هـ فقد عدّ من أكبر رجال الدين وعلى قدر كبير من المعرفة والجدل مما أهله ترأس مدرسة سورا بالعراق والتي شهدت في عهده نهضة في إشاعة الفكر والمعتقد اليهودي وازدهرت فيها العلوم أيما ازدهار[4]، وصنف كتب كثيرة أبرزها كتاب "الأمانات والاعتقادات" وترجم كتب موسى -عليه السلام- والتوراة إلى العربية لاستقطاب المزيد من الأتباع لطائفته الربانية[5].

وسنان بن ثابت بن قرة الصابي المتوفي عام 331هـ فله رسالة في شرح مذهب الصابئين ورسالة في أخبار أبائه وأجداده وسلفه[6]، كما درس ابن بطلان الطبيب النصراني المتوفي عام 461هـ الأقليات المسيحية في بلاد المسلمين وتحدث عن وضعهم من خلال كتاب "الربيع" وكتاب "الأديرة والرهبان"[7]، وبذلك ساهم الصراع الديني الذي كان قائما بين مختلف فرق أهل الكتاب في إشعال الكتابة الدينية بسعي كل طرف إبراز صحة اعتقاده والطعن في عقيدة غيره.

وفي هذا الباب صنف يحيى بن عدي المتوفي عام 364هـ اليعقوبي المذهب مقالة في صحة اعتقاد النصارى في الرب وأنه واحد ذو ثلاثة صفات، ورسالة في الرد على

---

[1]- البطريرق: وهو لقب يطلق على القائم بأمور دين النصرانية أو مقدم النصارى، وكراسي البطارقة عندهم أربعة: كرسي برومية، وكرسي بالقدس وكرسي بأنطاكية، وكرسي بالإسكندرية، القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص443، الزبيدي: تاج العروس، ج7، ص111.

[2]- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص545-546، حاجي خليفة: المصدر السابق، ج5، ص389.

[3]- سعديا بن يوسف: المعروف بالفيومي نسبة إلى مدينة الفيوم بمصر ولد سنة 279هـ من الطائفة الربانية اليهودية هاجر إلى فلسطين سنة 303هـ ثم إلى العراق أين عين سنة 316هـ على رأس مجمع سورا اليهودية ومعظم تصانيفه بالعبرية، يوسف رزق الله غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، بور سعيد، مصر، 2001م، ص121.

[4]- المرجع نفسه، ص122.

[5]- جورجي زيدان: تاريخ أدب اللغة العربية، م1، ص462-463.

[6]- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص304.

[7]- موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، تحقيق جلال شوقي وآخرون، ج1، ص59.

النسطورية، ورسالة في تهذيب الأخلاق[1]، وعبد الله بن بختشوع بن جبرائيل النسطوري المتوفي عام 396هـ طبيب عضد الدولة صاحب شيراز ألف مقالة في الرد على اليهودية ومقالة في المطابقة بين أقوال الأنبياء والفلاسفة[2].

كما عامل الإسلام والمسلمون المجوس معاملة أهل الكتاب وبذلك ظلت المجوسية حية في العصر العباسي وكانت المانوية[3] أخطرها حيث أقدم رجالها في تأليف كتب تدعو للإلحاد والزندقة[4] واستغواء العامة[5]، والواقع أن الزندقة اعتبرت نزعة هدامة تدعو إلى إحياء بعض تعاليم الأديان الفارسية كالمانوية والثنوية، محاولة دعاتها تشكيك الناس في قيمهم وتشويه العقيدة الإسلامية، على غرار عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي كان مانويا يؤمن بالتناسخ ويتخذ من ماني وسيلة لدعوته إلى الزندقة[6]، ولما أخذ لتضرب رأسه قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحلل الحرام فقتله محمد بن سليمان العباسي[7].

1- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص170، ابن النديم: المصدر السابق، ص534-535.

2- موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، ج1، ص54-55.

3- المانوية: أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمن صابور بن أردشير وذلك بعد عيسى عليه السلام-، أحدث دينا من المجوسية والنصرانية كان يقول بنبوة عيسى وينفي نبوة موسى، والعالم عنده كونين أحدهما النور والآخر ظلمة وأنهما في صراع مستمر، ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج3، ص64، الشهرستاني: الملل والنحل، ج1، ص244، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص76-77.

4- الزندقة: كلمة تعريب لمصطلح فارسي زندي كان يطلقه الفرس على ما خالف كتاب داعيتهم زرادشت، وأخذ المدلول يتسع في العصر العباسي ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس وكل إلحاد بالدين، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص259، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيلة فارس أمين ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، 2002م، ص184،
Louis GARDET : philosophie et religion, colloque de Strasbourg, P 46.

5- المسعودي: مروج الذهب، ج4، ص242 ، FRANCESCO GABRIELI : la Zandaqa « au 1er siècle abbasside, colloque de Strasbourg, P 24.

6- البغدادي: الفرق بين الفرق، ص274.

7- محمد الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق محمد البجاوي، دار الفكر، بيروت، (د ت)، م2، ص644.

وقد تنبه الخلفاء العباسيين إلى خطر الزنادقة فحاربوهم حيث يذكر الطبري أن المنصور (136هـ-158هـ) شن حملة ضد الزنادقة والمجان، وأنشأ ابنه المهدي (158هـ-169هـ) بعده ديوانا خاصا للزندقة لتعقب دعاتها ومعتنقيها[1]، وظلت تلك الحرب قائمة إلى أيام ابنه هارون الرشيد الذي تعقب يونس بن أبي فروة الذي ألف كتابا في "مثالب العرب وعيوب الإسلام"، وصار به إلى ملك الروم فمنحه مالا كثيرا[2]، كما اتخذوا من محاربة الزندقة سببا للتنكيل بالمناوئين واستمالة قلوب العامة بعد أن فشلوا في كسبها بالموعظة.

وعليه فبقدر ما شكلت هذه الكتابات والاعتقادات الدينية لأهل الذمة من آثار سلبية على العامة من المسلمين بإشاعة أقوال الشرك وتشكيك في أصول العقيدة الإسلامية ونشر البدع وأفكار الزندقة، إلا أنها ساعدت في الوقت نفسه على إخصاب وإنضاج العقل العربي ودفعه إلى التسلح بالمنطق وفن الجدل لمواجهة اعتقادات أهل الكتاب وصون العقيدة السمحاء من أي زيف وهذا ما سوف نبينه في سياق تطور علم الكلام.

علم الكلام:

يعرف ابن خلدون علم الكلام بأنه: "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة"[3]، وصناعة الكلام ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة[4].

وقد أرجع البعض أن علم الكلام في العربية هو ترجمة للتعبير اليوناني "لوغوس" أو السرياني "ملتا" الذي يتعلق بقضايا في النصرانية تشبه قضايا علم الكلام في الإسلام[5]، بينما يرى البعض الآخر أن علم الكلام نشأ من بيئة إسلامية نتيجة الخلافات السياسية

1- الطبري: تاريخ الطبري، ج4، ص531، 580، FRANCESCO GABRIELI : op.cit.p25-26.

2- الجاحظ: الحيوان، ج4، ص154، الطبري: تاريخ الطبري، ج4، ص640.

3- ابن خلدون: المقدمة، ص339.

4- جيرار جهامي: موسوعة مصطلحات العلوم عند العرب، ج1، ص875.

5- عمر فروخ: المرجع السابق، ص203.

حول الإمامة بعد معركة صفين 36هـ، وما ترتب عنها من ظهور فرق دينية تتجادل حول العقيدة الإسلامية[1].

ومهما تكن أسباب وعوامل نشأة علم الكلام داخلية أم خارجية إلا أن ظهوره كان في بداية القرن الثاني الهجري ونضج في القرن الرابع الهجري واختص على إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة والمنحرفين والزنادقة الذين انتشروا بكثرة في أرجاء الدولة العباسية، وقد ذهب بعض الأئمة وعلى رأسهم الشافعي[2] إلى القول بالكراهة في الاشتغال بهذا العلم وذلك لاختلاطه بالفلسفة اليونانية[3].

فقد كانت الفلسفة اليونانية أهم ثقافة أثرت في الفكر العربي في العهد العباسي، لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب فقط بل كذلك عن طريق النقل والترجمة التي قام بها أهل الذمة بالموازاة مع حركة الترجمة الرسمية التي تبنتها الدولة العباسية.

حيث يروي صاحب الفهرست[4]: أن المأمون رأى في منامه أرسطو طاليس[5] سأله بعض الأسئلة فلما نهض من منامه طلب منه ترجمة كتبه، فكتب إلى ملك الروم طالبا منه كتب العلوم القديمة فأجابه بعد امتناع، وتفرد حنين بن إسحاق المتوفي عام 260هـ بنقل

1- محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م، ص138.

2- الشافعي: أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي وينتهي نسبه إلى هاشم بن عبد المطلب بن مناف القرشي ولد بغزة وقيل بعسقلان سنة 150هـ، أول من تكلم في أصول الفقه وله معرفة واسعة باللغة والشعر توفي عام 204هـ بمصر من كتبه كتاب "الأم"، ابن كثير: البداية والنهاية، ج10، ص691، ابن خلكان: المصدر السابق، ج4، ص163.

3- وهبة الزحيلي: العلوم الشرعية بين الوحدة والاستقلال، مجلة الحضارة الإسلامية، المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية، وهران، العدد03، نوفمبر 1997م، ص24.

4- ابن النديم: المصدر السابق، ص504، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص136، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص259.

5- أرسطو طاليس: (384-322 ق.م) مؤدب الإسكندر الأكبر فيلسوف وحكيم يوناني تعددت مؤلفاته في المنطق والطبيعيات والإلاهيات، أهمها "المقولات في الجدل"، ابن النديم: المصدر السابق، ص509، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص86.

أخصب كتبه على غرار كتاب "النواميس"، وكتاب "الكون" و"الفساد"، و "المقولات"، فضلا عن كتب "البرهان" لأرسطو[1].

كما يعد أبو بشر متى بن يونس[2] النصراني المتوفي عام 328هـ عالما بالمنطق شارحا له وإليه انتهت رياسة المنطقيين في عصره[3]، ترجم الكثير من كتب الفلسفة اليونانية وكانت تراجمه وشروحه في علم المنطق مرجعا لأهل العلم في بغداد وغيرها لكثرة وضوحها، ومن آثاره تفسيره كتب أرسطو في المنطق[4].

وكان يحيى بن عدي بن زكريا النصراني المتوفي عام 364هـ هو الآخر ضالعا في معرفة العلوم الحكمية، ومن كتبه "مقالة في علم ما وراء الطبيعة" وأخرى في الموجودات لأرسطو[5]، أما إسحاق بن زرعة[6] النصراني المتوفي عام 398هـ فقد كان كذلك أحد المتقدمين في علم المنطق والفلسفة وله كتاب في "أدب المناظرة"[7].

وعبد الله بن الطيب[8] البغدادي النصراني المتوفي عام 453هـ قال عنه ابن أبي أصيبعة[9]: "كان عظيم الشأن جليل المقدار واسع العلم شهير التصنيف خبير بالفلسفة كثير الاشتغال بها"، شرح كتبا منها كتب أرسطو طاليس في الحكمة، وهو فيلسوف بارع أحيا من كتب المنطق والحكمة ما اندثر وأظهر منها ما خفي، وقد تميزت كتبه باليسر والشرح

1– ابن النديم: المصدر السابق، ص586، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص273.

2– أبو بشر متّى بن يونس: من أصل يوناني نسطوري النحلة من أهل دير قني، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص164، بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج4، ص119.

3– ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص317.

4– ابن القفطي: المصدر السابق، ص183، ابن النديم: المصدر السابق، ص534.

5– ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص317–318، ابن النديم: المصدر السابق، ص535،
ARMOND ABEL : la polémique damascienne, colloque de Strasbourg, P 75.

6– إسحاق بن زرعة: أبو عيسى بن مرقس بن زرعة، يعقوبي النحلة اشتغل في الطب إلى جانب الفلسفة كان ملازما ليحيى بن عدي، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص318.

7– ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص181، التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص33، 48، ابن النديم: المصدر السابق، ص535.

8– عبد الله بن الطيب البغدادي: نسطوري النحلة من كبار فلاسفة مدرسة بغداد كان كاتبا لجاثليق بغداد، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص223، وأنظر كذلك ص11 من البحث.

9–طبقات الأطباء، ص223.

البسيط قصد منها التفهيم والتعليل، ومن تلاميذه ابن بطلان الطبيب النصراني الذي يقول عنه: ظل عشرين عاما في تفسير كتاب "الإلهيات" لأرسطو[1]، وكان على اتصال بأشهر المعاصرين عن طريق المكاتبات من بينهم ابن سينا المتوفي عام 428هـ الذي كان يحمد كلامه في الطب ويذمه في الفلسفة[2].

وهكذا انتقلت معظم مصادر العلوم الحكمية اليونانية وغيرها إلى المسلمين ولكثرة ما نقله علماء أهل الذمة وصنفوه يخيل للباحث أنهم لم يتركوا حينئذ كتابا يونانيا في أصله أو في ترجمته السريانية إلا وترجموه إلى العربية، وقد أفاد المسلمون من فلاسفة أهل الذمة ومصنفاتهم من خلال استيعابهم لفلسفة أرسطو طاليس وآراء أفلاطون وأرسطو، وانصب اهتمامهم على أساليب الجدل والمنطق دون العقائد لتعارضها مع تعاليم الإسلام.

وقد شعر المسلمون باحتياجهم إلى فن الجدل خصوصا أيام المهدي (158هـ-169هـ) لدفع أقوال الزنادقة وكتبهم ولاسيما الفرق المجوسية المارقة، وقد شكى الجاحظ من متكلمي النصارى وأطبائهم ومنجميهم لنقلهم إلى العربية كتب المانوية والديصانية[3] والمرقيونية[4] مما أفسدوا به عقول العوام[5].

وقد أدت هذه العوامل وغيرها إلى تطور علم الكلام الذي يعد مدخلا إلى الفلسفة الإسلامية، ويأتي في مقدمة هؤلاء المتكلمين المسلمين فرقة المعتزلة[6]، كما كفلت الحرية

1- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص190.

2- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص224.

3- الديصانية: أتباع ديصان وهو المسمى باسم النهر الذي ولد عليه، وديصان قبل ماني، وهم يقولون بالنور والظلمة والفرق بينهم وبين المانوية ؟أنهم يرون أن النور حي والظلمة ميتة، عكس المانوية التي تقول: أن النور والظلمة حيان، فخر الدين الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص40، الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص250، ابن النديم، المصدر السابق، ص657-658.

4- المرقيونية: أصحاب مرقيون وهم قبل الديصانية وهم طائفة من النصارى أقرب إلى المانوية وتعتقد أن النور والظلمة الأصلان القديمان وبينهما يتوسط كون ثالث يمزجها ويخالطها، فخر الدين الرازي: المصدر السابق، ص40.

5- الجاحظ: رسالة الرد على النصارى، ص243.

6- المعتزلة: اسم يطلق على أول مدرسة كلامية واسعة ظهرت في الإسلام أوجدت الأصول العقلية للعقائد الإسلامية، ولها الفضل في تأسيس القواعد الفكرية التي قام عليها فيما بعد علم الكلام السني، ويعد واصل بن عطاء (81هـ-131هـ) أول من سمي معتزلا وذلك لأنه قال في مجلس أستاذه-

الفكرية والعقلية في مجالس التي كانت تعقد في بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية بين مختلف الملل والنحل إلى ازدهار علم الكلام والفلسفة، فقد كان مجلس الخليفة المأمون ساحة للجدل والمناظرة وكان مثقفا ثقافة واسعة بالعلوم الدينية والفلسفية وعلوم الأوائل، حيث حول دار الخلافة ببغداد إلى دار للندوات العلمية تتناول مختلف فروع العلم[1].

وكان لأهل الذمة دور كبير في تنشيط وإدارة بعض هذه المجالس العلمية سواء بتلقين أصول المنطق وقواعد الفلسفة أو بإثارة مسائل عقائدية، حيث كان مجلس يوحنا بن ماسويه الطبيب المتكلم المتوفي عام 243هـ عامرا بمدينة بغداد، إذا كان يجمع فيه كل صنف من أصناف أهل الأدب كان تلاميذه يقرؤون عليه كتب المنطق لأرسطو طاليس وكتب جالينوس[2]، أما بشر متّى بن يونس المتوفي عام 339هـ النصراني المتفلسف والمنطقي كان يعقد في بغداد حلقة يقرأ فيها المنطق لأرسطو طاليس ويملي شرحا على تلاميذه وكان يجتمع له في تلك الحلقة كل يوم المئة من الطلبة المشتغلين بالمنطق من بينهم الفيلسوف المسلم الفارابي المتوفي عام 339هـ الذي تعلم قواعد المنطق على يده[3].

كما ساهم اليهود في إدخال بعض معتقداتهم الفاسدة عند مخالطتهم لمجالس المسلمين مثل التشبيه على الذات العليا لله، والتشبيه طباع حاد في اليهود[4]، واعتقدوا أن التوراة محدثة ومخلوقة وأكبر الظن أن المعتزلة أو نفرا منهم نقلوا عنهم هذه الفكرة وقالوا بخلق القرآن[5].

= الحسن البصري المتوفي عام 110هـ أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن مطلق ولا كافر مطلق بل هو في منزلة بين منزلتين، وذاعت آراؤها في العصر العباسي الأول حتى صارت المذهب الرسمي للدولة أيام المأمون والمعتصم، المقريزي: الخطط، ج2، ص170، الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص43، عرفان عبد الحميد: الفرق والعقائد الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بغداد، (د ت)، ص103، يحيى هويدي: دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، دار مكتبة الثقافة، ط3، القاهرة، 2002م، ص102-103.

1- ابن طيفور: تاريخ بغداد، تصحيح زاهد بن الحسين الكوثري، وعنى بنشره وراجع أصله عزت العطار الحسيني، مأخوذ عن النسخة الخطية، متحف لندن، 1949م، ص36.

2- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص247، 257.

3- صاعد: طبقات الأمم، ص140، ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص153.

4- الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص212.

5- أحمد أمين: ضحى الإسلام، ط10، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج1، ص334.

ولعل ما يثبت هذا الرأي أن بشر بن غياث المرسي[1] المتكلم اشتغل بعلم الكلام والقول بخلق القرآن[2]، وعلى أية حال لقد كان الجدال الديني حول العقائد وتعاطي جماعة من المسلمين مع الحجج العقلية والبراهين المنطقية في محاجاة خصومهم من أهل الكتاب أثر كبير في ظهور علم الكلام وتطوره حيث شهد العصر العباسي مناظرات حادة بين المتكلمين المسلمين وأصحاب الملل والنحل.

وإن كان لأهل الذمة الفضل في غرس بذور الفلسفة اليونانية في الديار الإسلامية وتحريك النزعة العقلية فيهم من خلال تراجمهم لكتب المنطق والفلسفة وشرحها وتدريسها، غير أن كثير من فلاسفة المسلمين والمتكلمين كانوا لا يستسيغون بعض هذه الترجمات على اعتبار أن أغلب التراجمة لم يكونوا من أصحاب الصنعة –فنيين– بل كان معظم ناقلي الفلسفة الإلهية والمنطقية والسياسية والأخلاقية من الأطباء مما جعل بعض هذه الكتب غامضة وصعبة الفهم، نتيجة سوء اختيار الكلمات الاصطلاحية العربية المقابلة للمصطلحات اليونانية.

وبذلك عملوا على تطوير هذا التراث اليوناني وتصحيحه ويبدو أن هذا ما اشتهر به الفيلسوف العربي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي المتوفي عام 252هـ الذي نشأ في أحضان المناظرات العلمية فكان يقرأ الكتب المترجمة ويعمل إلى إصلاح ما فيها من خلل[3]، وتأسيس مدرسة فلسفية كلامية تخالف الفلسفة اليونانية في المنهج والمادة والوقوف في وجه المتكلمين من أهل الكتاب والزنادقة.

1– أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة المرسي: الفقيه المتكلم القائل بخلق القرآن، كان أبوه غياث يهوديا صياغا بالكوفة وإليه تنسب الطائفة المرسية، وأخذ عنه الداعية أحمد بن داود المعتزلي القول بخلق القرآن، ابن الأثير: المصدر السابق، ج7، ص26، ابن كثير: البداية والنهاية، ج10، ص727، ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص277.

2– ابن ثغري بردي: المصدر السابق، ج2، ص278.

3– محمد يعقوبي: النشأة الإسلامية لمصطلح علم الكلام والفلسفة الإسلامية، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد 03، ص143–144.

ويذكر ابن خلكان[1]: أن أبا هذيل العلاف[2] المعتزلي المتوفي عام 230هـ كان حسن الجدال قوي الحجة كثير الاستعمال للأدلة، ويروي الخطيب البغدادي أحد مناظراته مع يهودي ورد إلى البصرة وتعرض لمتكلميها "فسأل: أبا هذيل أتعرف أن موسى نبي صادق أم تنكر ذلك؟، فقال أبو هذيل: إن كان موسى الذي تسألني عنه هو الذي بشر بالنبي -عليه السلام- وشهد بنبوته فهو نبي صادق، وإن كان غير من وصفت فذلك شيطان لا أعترف بنبوته[3]".

ومن أشهر المناظرات العقلية أيضا التي اشتهرت مناظرة السيرافي[4] النحوي المتوفي عام 360هـ مع متّى بن يونس النصراني في مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات، وتبدأ المناظرة بسؤال السيرافي لمتّى عن المنطق ويجيبه متّى: أعني به أنه آلة من الآلات التي يعرف بها صحيح الكلام من سقمه وفاسد المعنى، يرد عليه السيرافي: أخطأت إن صحيح الكلام من سقمه يعرف بالعقل[5].

وأبو إسحاق النظام[6] لا يقل قوة في الجدال والإقناع ويعد أكبر من جادلوا المانوية وقد أثنى عليه الجاحظ بقوله: 'لو لا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولو لا

1-وفيات الأعيان، ج4، ص267.

2- أبو هذيل محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول: المعروف بالعلاف ولد سنة 135هـ بالبصرة وأخذ الاعتزال عن عثمان الطويل أحد أصحاب واصل بن عطاء، حسن الجدال كثير الاستعمال للأدلة حتى صار شيخ البصريين في الاعتزال ومن أكبر علمائهم، فوض إليه المأمون أمر إدارة المناظرات ويعتبر أول من مزج علم الكلام بالفلسفة اليونانية، ابن النديم: المصدر السابق، ص335، الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج3، ص367، الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص49.

3- الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج3، ص366.

4- أبو سعيد السيرافي: هو الحسن بن عبد الله بن المزربان، النحوي تولى القضاء ببغداد وكان أعلم الناس بنحو البصريين توفي عام 360هـ، ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص78، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج2، ص876.

5- التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص25.

6- أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هاني النظام: ولد نحو 160هـ بالبصرة أخذ مذهب الاعتزال عن خاله العلاف، ثم اتسعت إحاطته بفنون الأدب والفلسفة والفقه وكان أهل النظر في الكلام، توفي عام 231هـ، ابن النديم: المصدر السابق، ص339، عمر فروخ: المرجع السابق، ص293.

مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل، فإن لم أقل لو لا أصحاب إبراهيم النظام لهلكت العوام من المعتزلة"[1].

وزاد علم الكلام تطورا ونضجا على يد الفارابي المتوفي عام 339هـ إذ يعد أولا من أدخل إلى علم الكلام المنطق الأرسطي وبسط كتب أرسطو وأظهر غامضها وقرّب تناولها[2]، كما برع ابن سينا في الفلسفة وعد من أعظم فلاسفة الإسلام في القرن الرابع الهجري وغزرت مؤلفاته، ويقول ول ديورانت[3] عن كتابيه "الشفاء" و "القانون": هما أرقى ما وصل إليه التفكير الفلسفي في العصور الوسطى ومن أعظم البحوث في تاريخ العقل الإنساني.

الفنون:

اختلف العلماء والفلاسفة حول تعريف كلمة الفن، ولكن أبسط هذه التعريفات هي: ما يخرجه الإنسان من عالم الخيال إلى عالم الحس، وهي التغيرات الداخلية في النفس إذا استطاع الإنسان أن يخرجها إلى الناس ليحدث في النفس الإعجاب والطرب[4]، ومن المعلوم أن فن كل أمة يتأثر بالذوق الخاص الذي يعبر تعبيرا صادقا عن طبيعة هذه الأمة وعواطفها ومعتقدها كما يتأثر بما ورثته من غيرها من الأمم.

ولقد لعب المال دورا كبيرا في استفحال العمران وازدهار الفنون في مختلف حواضر الدولة الإسلامية في العهد العباسي، حيث صارت بغداد وسامراء مقصدا لكل نابغ في فن ومذهب، ووجد أهل الملل والنحل الحياة في بغداد حقلا خصبا تبرز فيه مواهبهم، حيث تعددت أشكال الفنون في العصر العباسي وتنوعت أبرزها:

الموسيقى:

يعرف ابن خلدون علم الموسيقى بقوله: وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء"[5]، وكلمة موسيقى كانت تدل عند

1- الجاحظ: الحيوان، ج4، ص206.

2- ابن خلدون: المقدمة، ص378، صاعد: طبقات الأمم، ص138-139،
Nabhani KORIBAA : les philosophes de l'islam, SNED, Alger, 1980, P20.

3- قصة الحضارة، ج13، ص195، 211.

4- هربرت ريد: الفن والمجتمع، ترجمة فارس متري ظاهر، دار العلم، بيروت، (د ت)، ص59.

5- ابن خلدون: المقدمة، ص368.

قدماء الرومان على معنى أوسع إذ أطلقوا على كل واحدة من معبوداتهم التسع[1] كلمة 'موسا" Mossa، بعد أن اشتقوها من كلمة "موسيه" والتي معناها: الاستلهام[2]، وعرف إخوان الصفاء الغناء في رسالتهم الخامسة: "أن الغناء مركب من الألحان واللحن مركب من النغمات والنغمات مركبة من النقرات والإيقاعات، وأصلها كلها حركات وسكون"[3].

ولم يكن المجتمع العباسي يهتم بفن كما عنى بالغناء ويتضح ذلك من كثرة مجالس الغناء في قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة، فقد كان الهادي (169هـ-170هـ) يستمع إلى الغناء ويجزل عليه العطاء[4]، كما بلغ ولع الخليفة القاهر (320هـ-322هـ) بالغناء إلى حد جعله يأمر بأن تباع الجواري المغنيات على أنهن لا يعرفن الغناء حتى يحصل منهن بأبخص الأثمان[5].

والحقيقة أن الغناء في العصر العباسي كان امتدادا لما كان عليه في العصر الأموي مثله كبقية العلوم والآداب التي ورثها العباسيون عن الأمويين، وإن الموسيقى ارتبطت بفن الطرب والغناء وعرفت دفعة نحو التقدم خاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، من خلال ما قام به علماء بغداد من أهل الذمة من تأليف وترجمة مصنفات اليونان.

فقد صنف ثابت بن قرة الصابي المتوفي عام 288هـ عدة كتب في علم الموسيقى أهمها كتاب في "آلة الزمر" وآخر في الموسيقى يشمل على خمسة عشر، فصلا عن رسالة في علم الموسيقى[6]، أما قسطا بن لوقا الطبيب المسيحي البغدادي المتوفي عام 300هـ يعتبر من أبرز من برع في علم الموسيقى وكان أيام الخليفة المقتدر (295هـ-320هـ)

1- الآلهة التسع: إله ساتورن، إله كيليستيس، إله جوبيتر، إله فنوس، إله مارس، إله منيرفا، إله باكوس، إله جونون، إله نبتون، شفيق الجراح: دراسة في تطور الحقوق الرومانية، المطبعة الجديدة، دمشق، 1978م، ص30.

2- سليم الحلو: الموسيقى النظرية، دار مكتبة الحياة، ط2، بيروت، 1972م، ص12.

3- إخوان الصفاء: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، ج1، ص196.

4- ول ديورانت: المرجع السابق، ج13، ص259.

5- ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص273.

6- ابن القفطي: المصدر السابق، ص83، - ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص299، حاجي خليفة: المصدر السابق، ج5، ص161، فامر: تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي، ترجمة فتح الله المحامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص253.

ومن أهم كتبه "كتاب الموسيقى"[1]، وسعديا بن يوسف اليهودي المتوفي عام 331هـ في كتابه الأمانات والاعتقادات الذي ترجم إلى العربية مبحثا خاصا في الموسيقى حدد فيه قواعدها وقوانينها[2].

ولعل هذه المؤلفات وغيرها من الكتب التي صنفت من قبل علماء أهل الذمة قد أرست قواعد لعلم الموسيقى قائما بذاته له أوزانه وضوابطه بعد أن كان من قبل عبارة عن أصوات ينقصها الضبط الإيقاعي وتوازن ألحانها، إلا ما عرفه الإنسان العربي بفطرته الطبيعية.

وإن كنا نعد ذلك من عوامل الارتقاء بفن الموسيقى فإن هناك عاملا آخرا لا يقل أهمية وهو ما كان موجودا في بغداد من أصوات غنائية على غرار ترف الصابئة التي كان يطرب على غنائها أكبر رجال الدولة في القرن الرابع الهجري[3]، كما ساهمت الجواري الروميات في ازدهار الفنون الجميلة ولاسيما الموسيقى، لأن الناس في بغداد حرسوا على أن تجمع الجواري بين الجمال الخلقي والجمال الفني، فأتقن الأشعار الرقيقة والعبارات اللطيفة وأدخلن نغمات رومية في الموسيقى العربية[4].

أما أعياد النصارى التي كانت تشبه كرنفالات ضخمة في بغداد، ساهمت هي الأخرى في إشاعة جو الطرب والغناء واللهو وشاركهم في ذلك الكثير من المسلمين مثل عيد الفصح الذي كان يحتفل به في دير سمالو شرقي بغداد ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا وقصده، كما شكل عيد دير الثعالب في الجانب الغربي من بغداد يوما مشهودا، حيث كان يستقطب النصارى والمسلمين على حد السواء طالبين الطرب واللهو والغناء[5].

الشيء الذي أثار حفيظة وغضب الحنابلة ويذكر ابن الأثير[6]: أنه في سنة 323هـ دبر الحنابلة ببغداد حملة شعواء على المجون وكانوا كلما وجدوا نبيذا أو آلة للغناء حطموها أو مغنية فضربوها.

1- ابن النديم: المصدر السابق، ص588، فامر: المرجع السابق، ص254.

2- المرجع نفسه، ص255.

3- التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج2، ص170.

4- D. ET J. Sourdel : op.cit. P 463 .

5- الشابشتي: الديارات، ص09، 16، البيروني: الآثار الباقية، ص310.

6- الكامل في التاريخ، ج8، ص307.

وإن كان علم الموسيقى استند في بادئ الأمر على مصنفات اليونان الموسيقية التي نقلت على يد تراجمة أهل الذمة فإن علماء المسلمين لم يمنعهم ذلك من التطوير والتجديد على غرار الكندي المتوفي عام 252هـ الذي يعد أول صاحب مدرسة موسيقية في التاريخ الإسلامي من خلال رسائله في هذا العلم[1]، وكذلك الفارابي المتوفي عام 339هـ الذي قدم أرقى الدراسات في الموسيقى النظرية من خلال كتابيه "الإيقاعات" و"الموسيقى الكبير"[2]، وبذلك احتفظت الموسيقى العربية لنفسها بطابع عربي شرقي في الإيقاع والنغم بفضل جهود هؤلاء العلماء المسلمين.

التصوير والزخرفة:

انفرد الفن الإسلامي عن غيره من الفنون بميزات عامة بأنه فن تجريدي اختص بتزيين الكتب والأبنية وبزخرفة العمائر الدينية بزخارف نباتية وهندسية[3]، حيث تحول الفنان المسلم من خلاله إلى مجال الإبداع الفني المنسجم مع الفكر الإسلامي المدرك للنواهي الدينية التي حرمت التصوير ومضاهاة خلق الله سبحانه وتعالى.

غير أن الانفتاح على العناصر الأجنبية ولاسيما أهل الذمة وغيرهم من القوميات المشكلة للمجتمع العباسي أدى إلى امتزاج الفن العربي بفنهم، فقد زخرفت الأبنية والعمائر العباسية ولاسيما قصور الخلفاء ورجال الدولة في بغداد وسامراء بفصوص الفسيفساء[4] ضمت أشكالا فنية من أشجار ونباتات وأنهار واستخدموا لصناعتها عمالا من روم الشام وقيل من بلاد الروم –نصارى–[5].

1– صاعد: طبقات الأمم، ص130، ابن النديم: المصدر السابق، ص524.

2– قدري طوقان: المرجع السابق، ص40.

3– علي أحمد الطايش: الفنون الزخرفية الإسلامية المبكرة في العصرين الأموي والعباسي، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة، الدين، ص23.

4– الفسيفساء: نوع من الزخرفة يقوم على تكوين أشكالا فنية مختلفة تعمل بواسطة قطع أو فصوص صغيرة من مواد متعدد ذات ألوان كالرخام والحجر، تزين بها جدران القصور، وازدهر هذا الفن عند الرومان والبيزنطيين، عاصم محمد رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 2000م، ص214.

5– HUGH HONOUR, John Flaming : Histoire mondiale de l’art, Bordas, Bruxelles, 1984, P 260.

ومن دلائل تأثر خلفاء بني العباس بالفن الساساني وأهل الديانات الأخرى إقبالهم على استخدام رسوم حيوانية وآدمية، فقد استأجر المعتصم (218هـ-227هـ) فنانين أغلب الظن أنهم نصارى ليصوروا على جدران قصره الجوسق في سامراء مناظر الصيد وبنات عاريات[1].

كما احتوى جدران خمارويه بن أحمد[2] المتوفي عام 282هـ على صورته وصور حضاياه والمغنيين بأحسن تصوير وأبهج تزويق[3]، أما محمود الغزنوي[4] المتوفي عام 421هـ فقد زين جدران قصره بصورة تمثله هو وجيوشه وفيلته، وكذلك مناظر مأخوذة من الفن الشهواني الفارسي وقد عهد ذلك إلى فنانين مسيحيين[5]، أما زخرفة الحمامات فلم تكن إسلامية ففي سامراء كانت الدرجات تزن بصور الحيوانات بدلا من البلاط المختلف الألوان وهذا الفن استقي من روم الشام[6].

وتعكس هذه الشواهد على مدى التمازج الثقافي والفني الذي شهده العصر العباسي حيث لعب فنانو أهل الذمة دورا كبيرا في إشاعة فن التصوير والتجسيم الذي كان محظورا على الفنان المسلم ، وازدان العصر العباسي بمختلف أنواع الفنون المباحة والمحرمة، كما شهد العصر العباسي كذلك ازدهار الفنون الصناعية ولاسيما في بغداد وجنديسابور ومصر حيث اختص الكثير من أهل الذمة في الصناعة الخزفية والنسيجية حيث وفد إلى بغداد كثير من المجوس الذين اشتغلوا بنقش الزجاج وتلوينه[7]، وتضمنت

1- ول ديورانت: المرجع السابق، ج3، ص251، HENRY DEMORANT : histoire des arts décoratifs des origines a nos jours, Bibliothèque des guides bleus, librairie HACHATTE, Paris, 1970, P 135.

2- خماوريه بن أحمد بن طولون: من ملوك الدولة الطولونية بمصر ولد بسامراء سنة 250هـ، وتملك ملك مصر بعد وفاة أبيه سنة 270هـ، وقتله غلمانه على سريره 288هـ، ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص249-250.

3- المقريزي: الخطط، ج2، ص125.

4- الغزنوي: يمين الدولة أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبي منصور، ولد سنة 361هـ حقق فتوح في بلاد الهند وولاه القاهر بالله منصب خراسان عام 404هـ، ابن الجوزي: المنتظم، ج15، ص211، 214.

5- ول ديورانت: قصة الحضارة، ج13، ص251.

6- HENRY DEMORANT : Op. cit. P 137.

7- علي أحمد الطايش: المرجع السابق، ص64.

مصنوعاتهم رسوم آدمية وحيوانية ونباتية على غرار الزخارف القبطية بمصر والشامية التي اشتملت على صور حيوانات كالأسماك والطاووس، وكذلك مقاطع من اسم المسيح[1].

كما مثل كثير من النصارى في بغداد وسامراء وبلاد الشام صورا مستوحاة من التراث المسيحي مثل صورة رجل فوق كتفيه حيوان تمثل الراعي الصالح الذي ورد ذكرها في الإنجيل وشاع تمثيلها في الفن المسيحي[2]، أما في مجال تصوير المنمنمات فإن المدرسة العراقية قد تأثرت بالمخطوطات المانوية –الفارسية– ولاسيما في مجال التجسيم، خاصة في عهد المأمون (192هـ–218هـ)، كما بقيت المنمنمات الشامية مرتبطة بتقاليد الفن المحلي التي حفظها المصورون السوريون النساطرة واليعاقبة، الذين استمروا في ممارسة تصوير الكتب الإسلامية[3].

غير أن اقتباس الفن الإسلامي من فنون الحضارات المجاورة والقديمة بعض الوحدات الزخرفية مثل ورقة العنب وورقة الأكانتوس –شوكة اليهود–[4]، لم يفقده خصوصيته على اعتبار أن الفنانين المسلمين أضافوا إلى الأوراق النباتية عناصر هندسية مصغرة ووحدة زخرفية من الخطوط المستقيمة والدائرية والمثلثية المتشابكة التي عرفت بفن الأرابيسك أو الزخرف العربي الإسلامي[5].

ومن ثم فإن الحضارة العباسية لم تفرق بين الصانع الماهر والفنان وبين المسلم والذمي، بل اجتمعت الفنون كلها في تزيين الحضارة الإسلامية وسمو بها إلى ذروة الجمال، وأن الفن الإسلامي كأي فن آخر تأثر بفنون الأمم التي سكنت الدولة الإسلامية أو

1– عاصم رزق: المرجع السابق، ص59،

MARKUS Hattstein : Peter Dlenis : arts et civilisation de l'islam, Kone Manne, Cologne, 2000, P123.

2– ول ديورانت: المرجع السابق، ج13، ص69.

3– عفيف بهنسي: الفن العربي الإسلامي، في بداية تكوينه، دار الفكر، ط1، دمشق، سوريا، 1983م، ص23.

4– Chronique illustré de l'histoire du monde le moyen âge, société des périodique, Larousse, Paris, 1992, P 102.

5– عفيف بهنسي: المرجع السابق، ص20.

التي احتك بها المسلمون، ومع ذلك احتفظ هذا الفن بتميزه وهويته بخضوعه إلى أخلاقيات الشريعة الإسلامية في كثير من الأحيان.

وما يمكن أن يقال في الأخير لقد ساعد اختلاط العرب بأهل الذمة والأعاجم أن أدركوا أن لهؤلاء علما غير العلم الذي عرفوه وأن سلطانهم لن يطول إلا إذا أخذوا علوم الأمم المتحضرة التي غلبوها على أمرها وجاوروها في المدنية، ولا سبيل إلى إدراك بغيتهم إلا بنقل العلوم الدخيلة إلى العربية لأن مدارستها باللسان الأعجمي يقضي إلى انحطاط اللغة العربية وإعطاء السيادة للغة العجم.

وما يقال عن فضل أهل الذمة من نقلة وأطباء وكتاب وفنانين على الدولة الإسلامية وما قاموا به من أعمال جليلة في العهد العباسي وفي الحقيقة أن هذا الفضل مشترك كما كان لهؤلاء القيام ما قاموا به لو لا المكانة التي حضيوا بها والحرية التي عاشوا في كنفها ورعاية الخلفاء لهم ومنحهم العطايا والأرزاق.

الفصل الثالث: دور أهل الذمة في الحياة الاقتصادية

1-الحرف والصنائـــع

2-التجارة والمبادلات

3-المعاملات الماليــة

دور أهل الذمة في الحياة الاقتصادية:

من الظواهر الاجتماعية التي طرأت على الحياة في المدن في العصر العباسي الأول ظاهرة الاحتشاد السكاني ولا سيما في حاضرة الخلافة بغداد، فقد ألغى العباسيون قيود الهجرة التي وضعت في العصر الأموي، وفتحت أبواب المدن للمهاجرين والباحثين عن أسباب الرزق على مختلف مللهم ونحلهم، بعيدا عن الطبقية الأرستقراطية المتعالية، فهاجر كثير من الحرفيين والصناع ومعهم أساليبهم وأدواتهم إلى المدن الكبرى العباسية، ووجدوا جو العمالة فيها قد تغير، فقد سقطت الحواجز التي كانت تفصل بين العرب والموالي[1]، وأهل الذمة وتحرر الصناع والحرفيون وارتفع مستواهم المادي والاجتماعي.[2]

وفي ذلك يذكر الخطيب البغدادي[3]:"إن بغداد لم يكن في الدنيا نظير في جلالة قدرها وضخامة أمرها وتميز خواصها وعوّامها وأيضا أقطارها وكثرة دورها وأسواقها".

كما تعاظم عدد أهل الذمة في الحواضر الكبرى، وكان أهل بغداد وغيرها من المسلمين يعاملونهم معاملة حسنة فكانوا يوسعون لهم في كل عمل معهم، حيث كانت العامة تأنس خاصة للنصارى منهم وكانوا يؤثرونهم على المجوس ويرونهم أسلم صدورا من اليهود. [4]

---

[1]– الموالي: كلمة مولى في اللغة: يراد بها لفظ الجلالة، كما تطلق على الناصر والمعين والجار والحليف، أما الموالي في الشريعة الإسلامية فهم نوعان: موالي عتاقة: وهو الرقيق الذي أعتقه سيده فيصير المعتق منسوبا إلى المعتق بالولاء، ويسمى ولاء العتاقة وولاء النعمة، أما موالي الموالاة: وهو الحليف أو الرجل الذي ينتمي لآخر بالمحافظة أو بالخدمة فينسب إليه، أو ينتمي إلى قبيلة من القبائل فينسب إليها، وتدل في العموم على كل من أسلم من غير العرب، محمود المقداد: الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي، ط1، دار الفكر، دمشق، سورية، 1988، ص37– 38، شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول نشأتها ومقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1973، ص112.

[2]– اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2، ص 374.

[3]– تاريخ بغداد، ج1، ص 119.

[4]– الجاحظ: رسالة الرد على النصارى، ج3، ص 234.

وتمتع أهل الذمة بحرية واسعة في ممارسة أعمالهم، حيث لم تتدخل الإدارة المحلية فيها إلا في بعض الصناعات المحدودة التي تتطلب ممارستها الحصول على إذن خاص مثل الحمامات وصنع الأسلحة وصك النقود وتركيب الأدوية[1]، وهذا راجع لطبيعة الحال إلى أسباب تتعلق بالمصلحة العامة أو الأمن العام.

وعليه فقد ساعد هذا الانفتاح والتواصل بين مختلف طوائف المجتمع العباسي على امتزاج صناعة العرب بغيرهم من أهل البلاد المفتوحة على غرار امتزاج الثقافات، إلى جانب ازدهار التجارة والصيرفة والحياة الاقتصادية بشكل عام.

الحرف والصنائع:

عرف ابن خلدون الصناعة فقال:"أعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري بكونه عمليا هو جسماني محسوس ومنها المركب والبسيط"[2]، أما إخوان الصفا فقد وجهوا في رسالتهم الثامنة عناية خاصة للصنائع العملية وصنفوا أفراد المجتمع على أساس مادي حسب عملهم ودخلهم والصنائع حسب فائدتها، والصناع عندهم: هم الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم ويعيشون من بيع ما ينتجون.[3]

وقد شهدت بغداد والبصرة والموصل ومدن بلاد الشام وبلاد فارس ومصر وغيرها من الحواضر العباسية، صناعات وحرف أمنت السلع الاستهلاكية وبعض الخامات للسكان على غرار الصفارين[4] والحدادين والدباغين والغضارين[5] والخزازين[6] والصباغين

---

[1]- ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، بعناية حسام الدين السامرائي، بغداد 1968، ص ص 68، 71، يحي الكعكي: المرجع السابق، ص74-75.

[2]- ابن خلدون: المقدمة، ص 297-298.

[3]- رسالة إخوان الصفا، ج1، ص 285.

[4]- الصفارين: صناع الصفر، وهو النحاس الذي تعمل منه الأواني، ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص 461.

[5]- الغضارين: الذين يصنعون الغضار وهو خزف الذي يصنع من الطين اللازب الأخضر،ابن منظور، المصدر السابق، ج5، ص22-23.

[6]- الخزازين: الذين صنعتهم الخزازة، وهي ثقب الخف بالمخرز وتخيطه،ابن منظور، المصدر السابق، ج5، ص344.

وغيرهم من الصناع والحرفيين، وقد اعتبرها ابن خلدون رمز الحضارة ولا توجد إلا في أهل الحضر ولا تكتمل إلا بكمال العمران الحضري وكثرته لأنها مركبة وعلمية بينما الفلاحة في نظره من عمل البدو.[1]

ولم يكن للعرب في بادئ الأمر رغبة في امتهان هذه المهن والصنائع اليدوية، ربما لانصرافهم للجندية أو لعراقتهم في البدو، حيث عدّهم ابن خلدون أبعد الناس عن العمران عكس العجم وأمم النصرانية من المشرق أنهم أعرق في العمران[2]، غير أن الكثير منهم كانوا يأنفون القيام بها ويعتبرونها في منزلة دون منزلتهم، حيث صنفها الجاحظ من أحقر المهن وأكثرها تعرضا للوضع بقوله:"الحمق في الحاكة والحجامين والغزالين"[3]، أما الخليفة المنصور فقد وصف القصابين في بغداد بأنهم سفهاء في أيديهم الحديد القاطع[4]، وقيل ثلاثة أعمال لم تزل في سفلة الناس الحياكة والحجامة والدباغة[5].

ومهما تكن أسباب ترفع وعزوف العرب أو قصورهم عن امتهان وممارسة هذه الحرف والمهن، فالمؤكد أن معظم أربابها في القرن الثالث الهجري في الدولة العباسية كانوا من أهل الذمة أو الموالي، وقد ذكر أبو يوسف[6]: أن أكثر الخياطين والصباغين والخزازين والصاغة والأساكفة في بغداد يهود.

كما نعت الجاحظ اليهود في رسالته الرد على النصارى[7]: لا تجد اليهودي إلا صباغا أو دباغا أو قصابا أو شعابا–مصلح جرار وأحذية–، غير أن وضعهم هذا قد تغير في القرن الرابع الهجري فكان منهم التجار والجهابذة والصيارفة.

1– ابن خلدون: المقدمة، ص 298.

2– المصدر نفسه، ص 300.

3– الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص 296.

4– الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج1، ص 80.

5– فهمي سعد: العامة في بغداد، ص 165.

6– كتاب الخراج، ص 124.

7– رسالة الرد على النصارى، ج3، ص 239.

ومن ثمة فقد اختص أهل الذمة بالأعمال اليدوية ودرت عليهم الأرباح الوفيرة ونهضوا بالحرف والصناعات المختلفة في الدولة العباسية، ويمكن إيجاز البعض منها فيمـــا يلي:

صناعة النسيج:

استقطبت صناعة المنسوجات عددا كبيرا من الحرفيين ونشأت حولها حرف أخرى كالطرز والصباغة والدباغة، وعلى الرغم من وضاعة هذه المهن التي اختص بها اليهود والموالي إلا أنها كانت واسعة الانتشار[1]، ويبدو أن أربابها اختصوا في الحياكة وأصنافها المختلفة ومن ذلك وجود دور خاص ببغداد بالقطن والقز، كما عرف صاحب الحرير الذي يشرف على نسجه وبيعه.[2]

وكان نسج الخز[3] الفاخر يصنع في بغداد ويباع في سوق الخزازين بالكرخ[4]، كما اشتهرت الموصل بأنها مركز للنسيج وتفوقت بصنع أنسجة قطنية تدعى الشاش ونسيج الحرير الموشي [5]، فقد كانت منطقة الخابور وهي إلى جنوب غربي الموصل أشهر المناطق في إنتاج أجود أنواع القطن في العصور الوسطى ومنها كان يصدر حتى إلى بلاد الروم وغيرها[6]، أما الفرش المسماة بالطنافيس المبهرجة بمختلف الزخارف والصور الحيوانيـــة، فكانت تصنع في الحيـــرة وهي مدينـــة نصرانيـــة قريبــــــة مـــن

---

[1]- القاضي أبو يوسف: المصدر السابق، ص 124، الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص 296.

[2]- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج2، ص 173، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 457.

[3]- الخز: نسيج رقيق يعمل من الصوف والحرير، جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج5، ص106.

[4]- الصولي: أخبار الراضي والمتقي، ص 68.

[5]- الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ص 102، ول ديورانت: قصة الحضارة، ج13، ص 108.

[6]- الإصطخري: المسالك والممالك، ص 53.

بلاد الروم[1]، كما كان الصناع في الأبلة[2] يشتغلون بصناعة ثياب الكتان الرفيعة والحرير، وفي ميسان[3] يصنعون الوسائد وفي الأهواز الدباج والخز.[4]

كما كانت مصر على قدر كبير من الرقي في صناعة النسيج ولا سيما فن زخرفة النسيج، وقد ساعدها ذلك تفرد بعض مدنها بإنتاج الكتان وصناعة القطن وتسويقه على غرار مدينة الفيوم[5]، وظلت الزخارف القبطية غالبة على المنسوجات المصرية أو ما يعرف بفن التطريز، وهو زخرفة النسيج بعد إتمام نسجه بخيوط ملونة غالبا ما تكون خاماتها أغلى من خامات القماش المطرز فيه، وقد استخدمت في هذا التطريز أشكال فنية مختلفة، منها صور حيوانية وآدمية ونباتية وشعائر دينية كالصليب.[6]

وتعد الفيوم هي الأخرى من أبرز مراكز صناعة النسيج في مصر وقد اشتهرت بصناعة الستائر الثمينة، وكذلك مدينة ديبق[7] التي ينسب إليها أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالديبقي[8]، كما كانت الأقمشة التسترية تصنع في محلة تستر[9] الفارسية ذات

1- متز: المرجع السابق، ج2، ص 775.

2- الأبلة: مدينة بالعراق بينها وبين البصرة أربعة فراسخ، يشقها نهرها شمالا وجانبها الآخر على غربي دجلة، فتحها عتبة بن غزوان في عهد عمر بن الخطاب، كانت مرفأ الصين وما دونها، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2002، ج1، ص384- 385، ابن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار، ص8.

3-ميسان: اسم كوة واسعة كثيرة القرى بين البصرة و واسط يسكنها يهود، فتحت في أيام عمر بن الخطاب، المصدر نفسه، ج5، ص 280-281.

4- الجاحظ: الحيوان، ج4، ص 132، المسعودي: مروج الذهب، ج4، ص 55.

5- متز: المرجع السابق، ج2، ص 766.

6 Markus Hattstein, petr Dlenis : Op.Cit.P 120

7- ديبق: قيل دبقا وهي من قرى مصر قرب تنيس وتنسب إليها الثياب الديبقية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 498.

8- الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص 338.

9- تستر: مدينة بالأهواز بينها وبين عسكر مكرم ثمانية فراسخ، فتحها أبو موسى الأشعري -رضي الله عنه-، وهي أرض مرتفعة، ابن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار، ص 140.

صيت وشهرة، وتعد هذه الأخيرة من أكبر مراكز صناعة البسط الفارسية، ومعظم العاملين بها يهودا.[1]

وعلى ما يبدو أن صناعة النسيج كانت منتشرة على نطاق واسع في حواضر الدولة العباسية نظرا لحاجة الإنسان إلى الملابس لحماية جسمه من تقلبات الطقس، ورغبة المترفين من جهة أخرى إلى تأمين زينتهم وأثاث منازلهم، فقد كان الأغنياء يتنافسون في ارتداء الملابس الثمينة ويقبلون على اقتنائها ويجمعونها في خزائن وصناديق اشتهرت باسم خزائن الكسوة[2]، وزاد صناعة النسيج ازدهارا ورواجا اتجاه العباسيين لتحديد لباس خاص ولون خاص يميز رجالهم وموظفيهم، فقد اهتم هلال بن محسن الصابي المتوفي عام 484هـ كاتب الوزير ابن الفرات بتفصيل أنواع الملابس وألوانها المختصة بكل طبقة من رجال الحاشية.[3]

كما أدى كذلك تعاظم طلب الخلفاء ورجال الدولة على الملابس الخاصة إلى انتشار دور الطراز في بغداد[4] وغيرها من حواضر الدولة الخاصة بالخليفة، ويذكر أن الخيزران أم الرشيد استخدمت نصرانيا على دار الطراز في الكوفة.[5]

وكان الطراز أحد رموز السلطة وشعائرها، وقد ضمت دور الطراز العديد من الحرفيين والصناع المهرة وغالبا ما كانوا من أهل الذمة، وكانوا يتقاضون أجورا محترمة، ويتحدث الصابي عن مخصصات القصارين[6] والمطرزين والخياطين ورجال الخزائن في أيام المكتفي (289هـ-295هـ) التي بلغت قيمتها ثلاثة آلاف دينار

1- متز: المرجع السابق، ج2، ص 796.

2- الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج1، ص 315.

3- فهمي سعد: العامة في بغداد، ص 187.

4- الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج1، ص 119.

5- التنوخي: الفرج بعد الشدة، عناية عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، لبنان، 1995، ج1، ص301.

6- القصار: المحور للثياب لأنه يدقها بالقصرة التي هي القطعة من الخشب، وحرفته القصارة، ويقصر الثياب أي يغسل الثوب و يقصر لونه- مبيضه-، ابن منظور: لسان العرب، ج 5، ص 104، الفيومي: المصباح المنير، ج2، ص 505.

في الشهر أي مئة دينار في اليوم الواحد[1]، أما التنوخي فيذكر[2]: "أن رئيس الخياطين في دار الوزير ابن الفرات لم تمض عليه مدة حتى صار صاحب عشرات الألوف"، وقد دفع الثراء الواضح للحرفيين الدولة إلى مراقبة وتنظيم حرفتهم، حيث كان المحتسب يطلب منهم تجويد خياطتهم ولا يمطلوا زبائنهم، وفرض رسم على بضاعتهم وسلعهم، فقد فرض صمصام الدولة أمير الأمراء البويهي (372 هـ- 376هـ) على عهد الخليفة الطائع لله (363هـ- 381هـ) ضريبة العشر على الثياب الحريرية والقطنية سنة 375هـ، وقدر وارد الضريبة بمليون درهم.[3]

ومن المهنيين الذين ارتبطوا بصناعة الغزل والنسيج الصباغون، فقد قامت صناعة الأصباغ إلى جانب صناعة الحياكة لترضي الأذواق المختلفة، فقد اختار العباسيون السواد كما اختار العلويون الخضرة، وكان لكل طبقة اجتماعية أو مناسبة خاصة ألوانها، فصباغة الخيوط والأقمشة مهنة قديمة وقيل أن اليهود أشهر من عمل بها، وأخذها المسلمون عنهم وهذا ما أقرّه الجاحظ في رسالته الأنفة الذكر[4]: "لا تجد اليهودي إلا صباغا أو دباغا".

وكانت عملية الإصباغ في معظمها نباتية حيث استخدم قشر الرمان والزعفران ليعطي اللون الأصفر وكانت النيلة[5] تستعمل لكل أنواع الزرقة، والفوة[6] تستعمل لكل أنواع الحمرة[7]، وكان الصباغون في بغداد يجتمعون في محلة خاصة بهم عرفت بالصباغين في الجانب الغربي، وكان منهم من يستخدم الغلمان الصغار في مساعدته[8]، كما قامت في سوق بغداد مدابغ تعالج الجلود وتصنع فيها المحفظات والأجربة

---

[1]- الصابي: الوزراء، ص 22.

[2]- نشوار المحاضرة، ج1، ص 66.

[3]- أبو شجاع: المصدر السابق، ج3، ص 117-118.

[4]- رسالة الرد على النصارى، ج3، ص 239.

[5]- النيلة: نبات يزرع على ضفاف نهر النيل يستخرج من ورقه مادة زرقاء تستخدم في الإصباغ، إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ص 967.

[6]- الفوة: عشب سيقانه حمر متسلقة وبذوره حمر تعرف بفوة الصباغين، يستخرج منها مادة تستعمل في صبغ الحرير والصوف، ابراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ص 707.

[7]- الدوري: المرجع السابق، ص107.

[8]- الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج1، ص 198.

والأحذية[1]، وكانت الدباغة من المهن المستهجنة في المجتمع العباسي وقد اختص بها عامة اليهود، حيث كانت مدابغ البصرة وبغداد تشتهر بإنتاج نوعين من الجلود الدارش: وهو جلد أسود، واللكاع: وهو جلد أحمر[2]، وكانت هذه الجلود بعضها مخصصة لصناعة الأحذية والنعال والخفاف، فمن جلود الضأن تصنع أحذية تسمى السلف، وهي أضعف من الماعز وأكثر لينا، ومن جلود البقر يصنع حذاء يدعى السبت.[3]

وقد اختص اليهود بصناعة الأحذية وتصليحها وكان لهم سوق خاصة بهم في الكرخ[4]، وأقبل الناس على اقتناء الأحذية وتفنن الحذاؤون في صنعها فكانوا يبطنونها بأنواع جيدة من الأقمشة والجلود، ويذكر الجاحظ: أن الناس في زمانه كانوا يلبسون الخفاف في الصيف كما في الشتاء[5]، كما وجد في خزانة هارون الرشيد أربعة آلاف زوج من الخفاف أكثرها مبطن بالسمور[6] وسائر أصناف الوبر[7]، مما يدل على مدى تطور هذه الحرفة وازدهارها وتمكن أصحابها من تلبية حاجيات وأذواق المجتمع العباسي على اختلاف طبقاته.

صناعة الجوهر والمعادن الثمينة:

ازدهرت صياغة المعادن الثمينة والجواهر في المدن العباسية، وكان الذهب والفضة والأحجار الكريمة من أهم الخامات التي تصنع منها مصوغات الزينة، حيث كان الصاغة يعالجون المعادن والأحجار الكريمة وينقشون عليها أشكال مختلفة في دكاكينهم

---

[1]– الخطيب البغدادي، المصدر السابق،ج6، ص 173.

[2]– الدوري: المرجع السابق، ص 112.

[3]– فهمي سعد: العامة في بغداد، ص 220–221.

[4]– أبو يوسف: المصدر السابق، ص124، الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج11، ص11 .

[5]– الجاحظ: البيان والتبيين، ج3، ص 114.

[6]–السمور:حيوان يشبه ابن عرس تسوى من جلده فراء غالية الأثمان، ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص 378 ، رفائيل نخلة: غرائب اللغة العربية، ص 189.

[7]– فهمي سعد: المرجع السابق، ص 197.

في سوق خاصة ببغداد، وكان الغالب عليهم اليهود[1]، كما نال يهود الأهواز وتستر شهرة واسعة في صناعة الديباج والذهب. [2]

ولعل فن صياغة المعادن والجواهر كان عليه كغيره من المهن مسايرة الترف الذي بلغه المجتمع العباسي خاصة لدى الخلفاء ورجال الدولة وكبار الأثرياء، فقيل أن الخليفة المأمون (198هـ- 218هـ) في ليلة زفافه فرش بساطا حيك من خيوط الذهب[3]، كما احتوى قصر الخليفة المقتدر (295هـ-320هـ) على شجرة مصنوعة من الذهب عليها أطيار وحيوانات مختلفة إهتز إليها رسول ملك الروم إلى المقتدر وستور مذهبة[4]، كما شكل الإقبال على الجواهر والمعادن الثمينة نوعا من الادخار يجابه به الأغنياء أوقات الحاجة، وكان الذهب والفضة والجواهر هي الخامات التي تصنع منها مصوغات الزينة، حيث كان النقاشون يحفرون على هذه المعادن أشكال مختلفة.[5]

ومن ثم فقد ساعدت هذه الحياة المترفة على انتعاش صياغة الجواهر والمعادن الثمينة، إلى حد وصف سوق باب الطاق في بغداد بأنه كبير شاهق[6]، دلالة على ازدهار ورواج هذه التجارة، حيث كانت سوق الحلي والمجوهرات تسطع بالأحجار الكريمة من كل جنس ولون، وقد نال صياغ العراق وبلاد فارس شهرة واسعة، وكان أغلبهم يهود على حد قول أبو يوسف[7]:" أن أكثر الصاغة بالعراق يهود".

صناعة الخمور:

اختص أهل الذمة بصناعة الأنبذة والخمور، حيث يقول الجاحظ[8]: "من تمام آلة الخمار أن يكون ذميا أو يكون اسمه أذين أو مشيا أو شلوم أو مازيار، ويكون أرقط

1- الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج9، ص 462، أبو يوسف: المصدر السابق، ص 120.

2- الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص396، جاك ريسلر: المرجع السابق، ص 149.

3- الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج1، ص 102.

4- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 480.

5- الهمداني: المصدر السابق، ص 82.

6- فهمي سعد: العامة في بغداد، ص 194.

7- كتاب الخراج، ص 120.

8- البيان والتبيين،ج1، ص 92.

الثياب مختوم العنق"، حيث تختلط في هذا النص أسماء فارسية ونصرانية ويهودية، بل كانت شرابا مقدسا عند بعضهم، حيث أجاز النصارى شربها في أعيادهم الدينية كعيد الميلاد والفصح والشعانين[1]، كما أباحت الديانة الزرادشية شربها في عيد المهرجان[2] للفرس[3]، وعدوا منافعها واعتبروها علاجا لبعض الأمراض، إذ أنها تذهب الحشمة والهموم والسموم وتصفي البشرة والدم وتفتح الذهن وتهيج الطعام والشهوة.[4]

وكان أفضل أنواعها تلك التي عتقت في كركين[5] أو التي عتقها يهود سورا، أو تلك التي أنتجت في محلة دير الروم[6]، كما اكتسب نبيذ قطربل شهرة خاصة وهي محلة اختصت بالنصارى يقصدها كبار القوم والراغبون في تناول الخمور وممارسة بعض اللهو[7]، ولعل هذا ما دفع الخليفة المنصور لما رأى وجه طبيبه جورجيوس بن بختشوع قد تغير على إثر طول إقامته في بغداد أن أمر أن يحضر له خمرا من قطربل.[8]

كما أوصى أحد الشعراء خليليه بأن لا يحفر قبره إلا بقطربل حيث الكروم الكثيرة والمشهورة بجودة الخمور فقال:

خليلـــي بالله لا تحفـــــــرا * لي القبـــــر إلا بقطـــربل
خلال المعاصير بين الكروم * ولا تدنياني في السنبـــــل[9]

1– الشباشتي: الديارات، ص 9، 64، الأصفهاني: المصدر السابق، ج22، ص 217.

2– المهرجان: يذكر المسعودي: أن سبب تسميتهم لهذا العيد بهذا الاسم يرجع إلى أن الفرس كانوا يسمون شهورهم بأسماء ملوكهم، وكان لهم ملك يسمى مهر كان يأخذهم بالعنف والشدة، فمات في نصف شهر مهرماه، وسمي ذلك اليوم مهرجان، المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص 103.

3– النويري: المصدر السابق، ج1، ص 188، البيروني: المصدر السابق، ص 222.

4–الجاحظ: رسالة الشارب والمشروب، ج4، ص 203–205، الجاحظ: رسالة في مدح النبيذ وصفة أصحابه، ج3، ص 88–89.

5– كركين: من قرى بغداد ينزلها النصارى، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 515.

6– الصولي: أخبار الراضي والمتقي، ص 279، فهمي سعد: العامة في بغداد، ص 48.

7– التنوخي: نشوار المحاضرة، ج3، ص 107، الجاحظ: الحيوان، ج5، ص 381.

8– ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 184.

9– السنبل: نبات طيب الرائحة، ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص 348.

لعلـــي أسمـــع في حفـــرتي * إذا عصرت ضجة الأرجل[1]

وأخذ أهل الشام عن الروم نوعا من الخمر ممزوجا بالعسل ونقلوا اسمه الرومي وهو الرساطون، لم يكن يعرفه العرب من قبل.[2]

ولعل من الأسباب التي ساعدت على ازدهار صناعة الخمور في بلاد الشام والعراق وبلاد فارس ومصر، هو أن هذه الأمصار كانت غنية بأنواع العنب الجيد وغيره من الفواكه، إلى جانب وجود عدد كبير من النصارى والمجوس واليهود، ومن ثم فإن صناعة الخمور وأماكن شربها كانت في أغلب الأحوال أجنبية في الدولة الإسلامية، كما تعاطى عامة أهل الذمة مهنة الحجامة، ويتحدث التنوخي عن رومي مزين[3] فكان الحجامون يجلسون على الطريق في الشوارع ويتعاطون قص الشعر[4]، إلى جانب بناء السفن حيث كان الخليفة المنصور (136 هـ– 158هـ) يعفي الذميين الذين يعملون في أحواض السفن ولا سيما في مصر من دفع الجزية[5].

وقد تميزت هذه الصنائع والمهن التي ازدان بها العصر العباسي أنها كانت وراثية، وكل صانع يفضل حرفته على جميع الحرف واختصت بالتخصص الدقيق، حيث يروي الجاحظ[6]:" أنه لم تكن له حلقة على وجه بابه وطلب من نجار أن يثقب له موضعها فلما ثقبه قال له: لقد أحسنت الثقب وانظر أي نجار يدق فيها الرزة".

وقد أدى هذا التخصص إلى تكتل أرباب الصنعة الواحدة وانتسبوا إليها كالزجاجين والصباغين والخياطين، ويبدو أن الحاكة بدؤوا بالتكتل منذ القرن الثاني الهجري وكانت

1– أبو نواس: ديوان أبي نواس– خمريات– ، قدم له وشرحه علي نجيب عطوي، دار مكتبة الهلال، بيروت، 2000، ص 293.

2– أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج1، ص 118.

3–التنوخي: نشوار المحاضرة، ج3، ص 43.

4– الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج6، ص 258.

5–محمد عبد الحفيظ المناصر: الجيش في العصر العباسي الأول 138هـ – 232 هـ، دار مجدلاوي، ط1، عمان، الأردن، 2000، ص 187.

6– الحيوان، ج3، ص 276–277.

جماعة منهم في بغداد يقضون لياليهم يسمرون مجتمعين واستضافوا ليلة إبراهيم الموصلي ليغني لهم[1]، كما كان للنساجين قامة يشرفون على أعمالهم.[2]

وقد أجازت الدولة الإسلامية لأهل الذمة إنشاء التكتلات الصناعية بهدف تبادل المنفعة والدفاع عن مصالح الصناع وتنظيم الصنعة، حيث يذكر أن المنصور لما أراد بناء مدينة بغداد وجمع الصناع من أقاليم مختلفة[3]، مما كان له أبعد الأثر في ازدهار الصناعة نتيجة الاحتكاك وتبادل المعرفة.

كما شكلت في الوقت نفسه عنصرا فعالا في المجتمع العباسي وقوة ضغط على السلطة المركزية، حيث استطاع النساجون إحباط ضريبة العشر التي فرضها صمصام الدولة عندما اعتصموا بجامع المنصور وعزموا على منع صلاة الجمعة، وكادت المدينة أن تفتتن فأعفوا من دفع هذا الرسم[4]، رغم التنافس الذي كان يحدث بين أربابها من حين إلى آخر.

وعليه فقد لعبت اليد العاملة من غير المسلمين-أهل الذمة- لما تملكه من خبرة ومهارة دورا كبيرا في النهوض بكثير من الصنائع والحرف التي كانت الدولة الإسلامية تفتقدها، فضلا عن تلبية مختلف حاجيات المجتمع من منتوجات وخدمات، كما ساعدت التغيرات الاجتماعية واختلاط الشعوب وانصهارها في الدولة العباسية واحتكاك العرب بغيرهم من أهل الذمة، إلى تغير نظرتهم إلى الحرف والمهن الصناعية اليدوية، وقد أقدم بعض العرب على تعلم الصناعات على يد أربابها من أهل الذمة، كما عمل الخلفاء العباسيون على نقل الكثير من الصناعات والحرف إلى المدن الكبرى على غرار البصرة والكوفة وبغداد وسامراء، وغيرها من العواصم الجديدة التي جذبت العمالة إليها لتوفر فرص العمل والكسب.

1- الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج6، ص 176.

2- أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ج4، ص 336.

3- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2، ص 392.

4- أبو شجاع: المصدر السابق، ج3، ص 117-118.

وكان من نتائج ذلك أن شهدت الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري نهضة صناعية قل نظيرها جعل ول ديورانت يرى[1]: أن ما بلغته الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري من درجة التقدم الصناعي، لم تتمكن أوروبا الغربية من الوصول إليها قبل القرن السادس عشر الميلادي.

التجارة والمبادلات:

عرّف ابن خلدون التجارة بقوله:"أعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيام كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش، إما انتظار حوالة الأسواق أو نقلها إلى بلد هي فيه أغلى أو بيعها بالغلاء على الآجال وهذا القدر يسمى ربحا"[2]، أما إخوان الصفا فقد عرفوا التجارة بقولهم:" هم الذين يتبايعون بالأخذ والإعطاء وغرضهم طلب الزيادة فيما يأخذونه على ما يعطونه".[3]

وقد عرفت التجارة العباسية ازدهارا منذ نهاية القرن الثاني الهجري، وارتبط ذلك بتقدم المواصلات البرية والبحرية وانتشار مظاهر البذخ والترف، إلى جانب اتساع نطاق الدولة واستقرارها وتشجيعها للتجارة وحركة المبادلات، حيث يذكر اليعقوبي أن الواثق (227هـ-232هـ) أمر بإلغاء ضريبة العشر على البضائع الواردة من البحر الصيني، كما أنه منح للتجار مساعدات نقدية[4]، كما وقف المعتصم بجانب تجار الكرخ بعد الحريق الذي أصاب سوقهم وأعطاهم خمسة ملايين درهم[5]، والأمر نفسه قام به الراضي (322هـ-329هـ) عندما تجدد الحريق في سوق الكرخ عام 323هـ وأصيبت به جماعة كبيرة من التجار فأطلق ثلاثة آلاف دينار مساعدة لهم.[6]

---

[1]- قصة الحضارة، ج13، ص 108.

[2]- ابن خلدون: المقدمة، ص 294.

[3]- رسائل إخوان الصفا، ج1، ص 285.

[4]- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2، ص 483.

[5]- التنوخي: نشوار المحاضرة، ج2، ص 102، الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج4، ص 139.

[6]- الهمداني: المصدر السابق، ص 92، ابن الجوزي: المصدر السابق، ج6، ص 270.

وحضي التجار بمكانة اجتماعية مرموقة داخل المجتمع العباسي دون أن يشكلوا مؤسسة خاصة ذات أنظمة وقوانين تحدد تصرفاتهم على غرار طبقة الصناع والحرفيين، حيث وضعهم أبو يوسف بمعية الصيارفة والأطباء في فئة الميسورين[1]، واتجه التجار لترجمة أهميتهم الاقتصادية إلى أهمية اجتماعية، فأقاموا علاقات مع كبار رجال الدولة وحضيوا بتقدير واحترام كبيرين، فقد وبخ المعتضد (279هـ-289هـ) يوما وزيره عبيد الله بن سليمان لقيامه في مجلسه لتاجر.[2]

ومع ذلك فإن احترام التجار لم يكن ليرفعهم إلى مستوى طبقة الكتاب والوزراء والقضاة، بل اتهموا أحيانا بالخداع والغش والجشع، وتعرضوا للازدراء والاستهجان من قبل بعض فئات المجتمع العباسي، وهذا ما حمل الجاحظ في رسالته في مدح التجار وذم عمل السلطان أن يقف موقف المدافع عن وظيفة التجار في سلم الطوائف المهنية وما تضفيه على أصحابها من مركز اجتماعي أمام أتباع السلطان الذين اعترف بعضهم بفضيلة التجار وتمنوا وضعهم وعيشتهم.[3]

ومن ثم فقد كان التجار يعيشون عيشة سهلة ومترفة نظرا لما يربحونه من أموال، فأقاموا في بيوت جميلة ووفيرة الأثاث يحيط بهم الغلمان لخدمتهم ويرتدون الثياب الحسنة ويتناولون مختلف أنواع الفاكهة ويزينون مجالسهم بالرياحين.[4]

وانقسم التجار إلى فئتين أساسيتين:

فئة كبار التجار ذوي أصحاب رؤوس الأموال الكبرى ويتفرعون إلى ثلاث أصناف:

أ-فئة الراكضة: وتجار هذه الفئة مهمتهم السعي والانتقال في مختلف البلدان لجلب السلع ويشترط فيهم السرعة وحسن التصرف والتبصر.

ب-فئة خازنة: وتعتمد في تجارتها على خزن أنواع معينة من السلع وقت الرخص واعتدال الأسعار وعرضها في الأوقات التي يكثر الطلب عليها بأسعار عالية، وكان على

1- أبو يوسف: المصدر السابق، ص 133.

2- التنوخي: نشوار المحاضرة، ج1، ص 78.

3- الجاحظ: رسالة مدح التجار وذم عمل السلطان، ج4، ص 196.

4- التنوخي: نشوار المحاضرة، ج1، ص 178، 187.

هذه الفئة معرفة أحوال السوق والأسعار والمطلوب وغير المطلوب من السلع وذلك باستطلاع أخبار الطرق.

ج–فئة مجهزة: وهم التجار المقيمون أو المستقرون في بلادهم ولهم وكلاء في البلاد الأخرى لديهم خبرة بالتجارة.

وفئة صغار التجار وهم: الباعة من البقالين والسماكين والسمانين وغيرهم من باعة السلع الغذائية والمواد المصنعة ويتعاملون مع الأهالي والعامة.(1)

وكان تجار أهل الذمة أهم تجار الدولة العباسية ومن بين الأمور التي ساعدتهم على توظيف مواهبهم وعلاقتهم التجارية هو أن خلفاء بني العباس أخذوا بمبدأ حرية التجارة وعدم التدخل في الشؤون التجارية إلا في الظروف الطارئة فازدهرت التجارة في دولتهم وزاد التبادل التجاري من مقدار ثروة الدولة على خلاف ما كانت عليه الدولة الأموية التي كانت تمتلك فئة من الفرسان والمحاربين وأصحاب الاقطاعات، ولم يكن لفئة التجار شأن كبير فيها.(2)

وبذلك ساهم أهل الذمة ولا سيما اليهود في تنشيط الحركة التجارية داخل الدولة الإسلامية وخارجها، بتعاطيهم مختلف أنواع التجارات المعروفة في ذلك الوقت وقد ساعدهم على ذلك تكدس الأموال والثروة في أيديهم، وعلى حد قول الجاحظ: كان النصارى رجال مال في القرن الثالث الهجري(3)، كما كان أغلب الماليين في بلاد الشام يهودا.(4)

وكانت التجارة مركزها الأسواق شأنها شأن الصناعة فقد وصف اليعقوبي السوق الكبرى في بغداد وهي الكرخ التي تقع في جانبها الغربي فقال: ولكل تجارة شوارع وحوانيت معلومة لا يختلط قوم بقوم، ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف على غير صنف ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرها، فكل أهل تجارة منفردون

1– الدوري: المرجع السابق، ص 125–126.

2– متز: المرجع السابق، ج2، ص 784.

3– الجاحظ: البيان والتبيين،ج 3، ص 333.

4–أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج1، ص 325.

بتجارتهم[1]، ولعل التنوع الكبير في الحرف والإنتاج ساعد نوعا ما على ازدهار التجارة فقد أصبحت المدن الإسلامية من أعظم مراكز الصناعة ومن أكبر الأسواق التجارية، ومن بين الأسواق المتخصصة سوق بيع الشراب الذي عرف بسوق الداذي الذي كان يباع فيه الخمور والأنبذة بشكل سري.[2]

وقد اختص أهل الذمة بتجارة بيع الخمور والأنبذة من خلال إشرافهم على الحانات والخمارات التي كانت منتشرة في مختلف مناطق الدولة العباسية، وإن اقتصرت في بداية الأمر على محلاتهم ومناطق تجمعهم ولا سيما في الأديرة، حيث يروي الشابشتي أن الأديرة قد تحولت إلى دور واسعة لشرب الخمور واللهو على غرار دير سمالو ودير الثعالب ببغداد ودير أشمولي بقطربل، ودير طمويه بحلوان بمصر، ودير النجت بدمشق، تقدم لروادها حتى من المسلمين على مختلف طبقاتهم الخمر المعتقة[3]، كما كانت بساتين ضواحي بغداد من كركين وقطربل وعكبر وشط الصراة تمتلئ بالحانات ويلجأ إليها الشعراء والفتيان للشرب.[4]

غير أن هذه الحانات لم تلبث وأن انتشرت في محلات بغداد الماهولة وأسواقها فقامت في الكرخ وباب الطاق وسوق العطش والرصافة[5]، ويذكر أنه كان في بغداد تاجر خمر يدعى إسحاق الواسطي يبيع الخمر ويضع على فوهة الزجاجة ورقا وخاتما كتب عليه اسمه واسم الشراب[6]، وهذا ما يدل على مدى التطور الذي بلغته تجارة الخمور في الدولة العباسية بذكر نوع الشراب ومصدره، وكان أغلب أصحاب هذه الحانات يهودا وكانت تضم السقاة وكانوا عادة من النصارى واليهود والمجوس، كانوا يزينون رؤوسهم بأكاليل الزهر والزيتون وقاعة الشرب بالرياحين[7]، وبذلك تفنن أهل الذمة في تزيين

1- اليعقوبي: البلدان، ص 241،246.

2- الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج1، ص 116، فهمي سعد: العامة في بغداد، ص 253.

3- الشابشتي: الديارات، ص09 ، 16، 30، 137، 194.

4- المصدر نفسه، ص 30، 44، 60، 96.

5- التنوخي: نشوار المحاضرة، ج2، ص 356، التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج2، ص 167،125.

6- فهمي سعد: المرجع السابق، ص 407.

7- الثعالبي: يتيمة الدهر، ج2، ص 170.

أماكن الشرب وتنميقها وتشييع فيها جو البهجة والفرحة لاستمالة الشاربين واللاهين، وكانت هذه الحانات مقصد الشعراء الماجنين حيث ذكروا خمرها ونشوتها وسقاتها.

ومن ثم يتبين لنا أن الخمرة ليست وحدها ذات أصل أجنبي بل أيضا أماكن شربها كانت أجنبية، فضلا عن أصحابها، فإن السقاة كانوا أجانب في أزيائهم وديانتهم إما يهودا أو نصارى أو مجوسا، وفي هذا الصدد يذكر جاك ريسلر[1]: أن الناس يتزودون بالخمر من الأديرة المسيحية وكانوا يمضون لاحتسائها في مطاعم صغيرة يديرها يهود.

وعليه فقد صارت تجارة الخمور وبيعها وطريقة تقديمها تقليدا ملازما لأهل الذمة، حتى رسخ في ذهن شاربها أن الخمر لا يبيعها إلا ذميا، ولعل من الشواهد الدالة على اختصاص أهل الذمة بتجارة الخمور والاشتغال بها ما ورد في خمريات أبي نواس في وصف الحانات والخمارات وسقاتها وطريقة تقديمهم للشراب، حيث يقول في خمار يهودي ذهب ليشتري منه هو وبعض أصحابه خمرا فدار بينه وبينهم حوار طريف تعرف من خلاله على شخصه.

وفتيان صدق قد صرفت مطيهم * إلى بيت خمار نزلنا بـــه ظهـــــرا
فلما حكى الزنار أنا ليس مسلما * ظننا به خيرا فظـــــن بنـــا شـــرا
فقلنا: على دين المسيح ابن مريم؟ * فأعرض مزورا وقال لنا هجـــــرا[2]
لكن يهودي يحبك ظاهـــــــرا * ويضمر في المكنون منه لك الخترا[3]
فقلنا له: ما الاسم؟ قال: سموأل * على أنني أكنى بعمرو ولا عمـــــر
وما شرفتنـــي كنيـــة عربيـــة * ولا أكسبتني لا سناء ولا فخـــــرا[4]

ويقول في خمار نصراني خبير ببذل الدنان[5] أمين الكيل والميزان، قد اعتاد أن يقرأ الإنجيل حول دنانه لتنال خمره البركة والتقديس.

1- الحضارة العربية، ص 149.

2- هجرا: الهجر القبيح من الكلام، ابن منظور: لسان العرب، ج5، ص 253.

3- الختر: الغدر، المصدر نفسه، ج4، ص 229.

4- ديوان أبي نواس، ص 164-165.

5- الدنان: الدن الجرة التي توضع فيها الخمرة وهي أطول رأسا، الفيومي: المصباح المنير، ج1، ص201.

وخمر كعين الديك صبحت سحرة * وقد هم نجم الليل بالخفقان
ندبت لها الخمار فانصاع مسرعا * إلى عدة من خنتـــم ودنان
دراسته الإنجيــل حــول دنانـــه * بصير ببذل الدن والكيلان[1]

ويقول في حانة بها ساقية يهودية:

الشـــرب في ظلـــة خمــــار * عندي من اللذات يا جاري
لا سيمـــا عنـــد اليهوديـــــة * حمراء مثل القمر الساري[2]

وازداد الخمر رواجا وانتشارا في الدولة العباسية بعد أن استباحها الخلفاء والعامة خاصة بعد ذهاب رهبة الدين واشتغال الناس بالغناء والجواري حتى صاروا يشربونها جهارا نهارا.

وقد نقل لنا الثعالبي طرفة عن أبي محمد السرجي الذي كان من ظرفاء الفقهاء أو المحدثين ببغداد، ركب يوما سفينة مع نصراني، فأحضر النصراني شرابه وأراد السرجي أن يجد رخصة في الشراب فقال ما هذه؟ وما أدرك النصراني مراده فقال: خمر اشتراها غلامي من يهودي فقال: نحن أصحاب الحديث نكذب سفيان ابن عيينة[3] ويزيد بن هارون[4] أفنصدق نصرانيا عن غلام يهودي؟ والله ما أشربها إلا لضعف الإسناد ومد يده إلى الكأس وشربها.[5]

ولم يتوقف الكثير من المسلمين على شربها بل اعتبروا جلسات الشرب الناجحة تتطلب حسن اختيار الساقي، وفضلوا أن يكون السقاة نصارى أو يهود، واستهجنوا أن يكون الساقي مسلما واعتبروه خروجا على تقاليد الحانات.[6]

1– ديوان أبو نواس، ص 386–387.

2– المصدر نفسه، ص172–173.

3– سفيان ابن عيينة بن ميمون الهلالي: كان فقيها ومحدثا ومفسرا كبيرا، توفي عام 196هـ، ابن النديم: الفهرست، ص475.

4– يزيد بن هارون: مولى بني سليم يكنى أبا خالد توفي بواسط عام 206هـ وله كتاب الفرائض، المصدر نفسه، ص479.

5– الثعالبي: خاص الخاص، قدم له حسن أمين، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 61.

6– فهمي سعد: المرجع السابق، ص 205.

وقد أدى هذا الإقبال على شرب الخمور إلى تزايد بائعيها والمضاربة في أسعارها، مما عرض منتجيها ومسويقيها من أهل الذمة للملاحقة والمصادرة من قبل السلطة، ففي سنة 333هـ اتهم الجاثليق بأن النبيذ المنتج في دار الروم كان لحسابه وكان له على النباذين سلطة ونفوذ، فصودر على خمسين ألف درهم ثم صودر النباذون وحبسوا[1]، كما صودرت الحانات وأخذ ما فيها سنة 392هـ.[2]

وعليه فباعة الخمر وسقاتها وأماكن شربها كانت في أغلب الأحوال أجنبية-أهل الذمة- وقد ترتب عن ذلك انتقال بعض العادات والتقاليد الأجنبية في الشرب، فضلا عن كثير من الصور الماجنة في البيئة الإسلامية.

ومع نمو طبقة أصناف الحرف ظهرت جماعة واسعة من باعة الطعام يقدمونه لأصحاب الحوانيت في أوقات الصباح الباكر ومن بين هؤلاء الباعة الهراسون الذين كانوا يطبخون هريستهم باكرا ويعرضونها للزبائن عند خروجهم للصلاة الأولى، وكانت الهريسة من الأطعمة المرغوبة في فصل الشتاء حيث كانت سيدات البيوت تشتريها من السوق وتقدمها على موائدها.[3]

وكان الذميون يعملون في إعداد الهريسة ليلا وبيعها صباحا لأن الهراسين من المسلمين يكونون في المساجد إلى طلوع الشمس، وقد وصفها اليعقوبي بأنها من المبيعات الدنيئة وكان يسمح لأهل الذمة والصبيان بالعمل في أوقات الصلاة فيستأجرهم التجار بالقراريط[4] والدوانيق[5] لحفظ الحوانيت إلى غاية

---

[1]- الصولي: أخبار الراضي والمتقي، ص 279-280.

[2]- أبو شجاع: المصدر السابق، ج4، ص 411.

[3]- الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج11، ص 178، التوحيدي: البصائر والذخائر، ج1، ص116، 128.

[4]- القراريط: في لغة اليونان حبة خرنون وهو نصف دانق والدرهم عندهم اثنتا عشر حبة، ويختلف القراط حسب البلاد ففي مكة ربع سدس الدينار، وبالعراق نصف عشرة، الزبيدي: تاج العروس، ج5، ص 203، الفيومي: المصباح المنير، ج2، ص 498.

[5]- الدانق: كلمة فارسية معربة وهو سدس الدرهم، وعند اليونان حبتا خرنون، والدانق الإسلامي حبتا خرنون وثلث حبة، والدرهم الإسلامي ستة عشر حبة خرنون، الزبيدي: المصدر السابق، ج6، ص 349، الفيومي: المصدر السابق، ج1، ص 201.

إفراغهم[1]، وذكر المقدسي أن للهراسين ببغداد مواضع فوق دكاكينهم فيها الحصير والموائد والخدام فإذا أقبل الرجل وجلس دفع دانقا.[2]

كما أفاد أهل الذمة ولا سيما اليهود من ازدهار الحياة الاقتصادية التي عرفتها الدولة العباسية بتزايد الطلب على السلع والبضائع، فركبوا البحار وجابوا الأسواق وسيروا السفن لحسابهم، ويذكر ابن خرداذبة: أنهم كانوا يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا يجلبون الديباج والجلود والرقيق والخزف والسيوف إلى القلزم[3] ومنه إلى شبه الجزيرة العربية، ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من هذه الأخيرة المسك والعود والكافور والدراصيني[4] ثم يتوجهون بتجارتهم إلى بلاد الروم وربما صاروا بها إلى بلاد الفرنجة يبيعونها هناك، ومن أنطاكية مرورا عبر الفرات نحو بغداد[5]، ويذكر كذلك جاك ريسلر[6]: كان اليهود في الشمال وفي الغرب قد اعتنوا كثيرا بتجارة الجملة، وكانوا أصحاب أموال يتقاسمون احتكار التجارة في بحر القلزم مع المسيحيين، وبذلك ساهموا في تنشيط التجارة الدولية بتوفير مستلزمات القطاع الصناعي والحرفي إلى الخامات وإشباع السوق المحلية بمختلف السلع الضرورية والكمالية وتصدير الفائض منها.

1- اليعقوبي: البلدان، ص 261.

2- المقدسي: المصدر السابق، ص 129.

3- القلزم: بضم القاف والزاي مدينة على ساحل البحر الأحمر من أرض مصر وبها سمي بحر قلزم والآن يعرف بالبحر الأحمر، وسمي كذلك بالقلزم لالتهامه من ركبه وهو المكان الذي غرق فيه فرعون، أحمد يعقوب الهمذاني: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، دار اليمامة، الرياض، المملكة السعودية، 1974، ص 03، ياقوت الحمـوي: معجم البلدان، ج4، ص439-440.

4- الدراصيني: كلمة فارسية وهو عبارة عن نبتة تشبه نبتة القرفة، إبراهيم بن مراد: المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985، ج 2، ص368.

5- ابن خرداذبة: المسالك والممالك، تعليق محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1988، ص 131-132.

6- الحضارة العربية، ص 139.

وكانت تجارة الرقيق صفة ملازمة لأهل الذمة وأقاموا لذلك مراكز للإخصاء حيث يذكر متز[1]: كان المسلمون يشترون الخصيان تاركين إثم الإخصاء لليهود والنصارى، ولعل من بين أقوى الأسباب التي أدت إلى انتشار هذه العادة الشنيعة الضرورة التجارية، حيث كان العبد الخصي يساوي أربعة أمثال الخادم العادي، وقد عد الجاحظ محاسن العبد الخصي فقال: "فالمرأة تنازع إلى الخصي لأن أمره أستر وعاقبته أسلم وتحرص عليه لأنه ممنوع منها".[2]

وانقسم الرقيق حسب لونه وأصله فحسب لونه تألف من أبيض وأسود، وكان الأبيض يتألف من عنصرين أساسيين الصقلبي والتركي، وكان الرقيق الصقلبي يرد عن طريق الغرب ويقوم بهذه التجارة اليهود الراذانية[3] الذين يتحدثون عدة لغات العربية والفارسية والرومية وكان هؤلاء يحملون رقيقهم عبر الأندلس التي تضم مركز الإخصاء، ثم يصلون به إلى مصر حيث يجري توزيعه إلى الشام والعراق[4]، والرقيق التركي يتجلى في منطقة فرغانة[5] والشاش[6] وما وراء النهر ومنها يجري توزيعه على الأسواق، حيث يصل منه الكثير إلى بغداد[7]، أما الرقيق الأسود فكان يرد من أماكن عدة من النوبة والحبشة والسودان.[8]

---

[1] – الحضارة الإسلامية، ج2، ص 588.

[2] – الجاحظ: الحيوان، ج1، ص 93.

[3] – الراذانية: كلمة فارسية "راه دانية" تتكون من لفظين راه ومعناها: طريق، ودان معناها: عارف بمعنى عارف الطريق، يوسف رزق الله غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 140.

[4] – ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 131، ابن حوقل: صورة الأرض، ص 106، متز: المرجع السابق، ج2، ص589.

[5] – فرغانة: مدينة في خرسان بينها وبين سمرقند ثلاثة وخمسون فرسخا، بناها أنو شروان ونقل إليها من كل بيت قوما، وفرغانة اسم إقليم موضوع على سبع مدائن، ابن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار، ص 440.

[6] – الشاش: مدينة جليلة وقصبتها بنكث وهي إحدى عمالات سمرقند، وليس بخرسان وما وراء النهر إقليم في مساحتها، وقيل مقدار عرضها مسيرة يومين، المصدر نفسه، ص335.

[7] – الاصطخري: المسالك والممالك، ص 162.

[8] – الجاحظ: رسالة فخر السودان على البيضان، ج1، ص 216، Sourdel : op.cit.P463.

وقد أسهم إقبال البيوت العباسية على اقتناء الرقيق من الجواري والخصيان للنهوض بمختلف الأعمال على ازدهار تجارة الرقيق وانتشارها في مختلف مناطق الدولة الإسلامية، حيث غصت قصور الخلفاء وكبار رجال الدولة بآلاف الجواري والخصيان، فقد روى الطبري[1]: أنه لما تولى الأمين (193هـ-198هـ) الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى في أثمانهم وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره وقيمهم على طعامه وشرابه ورفض النساء الحرائر والإماء، أما المقتدر (295هـ-320هـ) فكان له من الخدم والغلمان أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود[2]، وكان لكل نوع من أنواع الرقيق ميزات خاصة، حيث استخدمت الجواري الروميات خازنات وحافظات للبيوت، والنوبيات لتربية الأطفال[3]، كما امتاز الرقيق من الرجال الهنود بتدبير المنزل لمهارتهم في الصناعات اليدوية، أما خصيان الروم فكانوا الأفضل في حراسة البيوت.[4]

وهكذا صار اقتناء الرقيق مظهرا من مظاهر ترف الحضارة العباسية، حتى الفقراء كانوا يعملون على أن يكون لهم جواريهم وغلمانهم، وأدى ازدهار تجارة الرقيق إلى قيام أسواق واسعة تعرض فيها شتى أنواعه مثل سوق النخاسين الذي كان يقع في أول شارع الكرخ ببغداد[5]، وكذلك ببغداد شارع يسمى شارع الرقيق[6]، كما اعتبرت مصر وجنوب الحجاز وبلاد المغرب أهم أسواق الرقيق الأسود.[7]

وكانت أسواق النخاسة تنشط موسميا ويكثر عرض الرقيق كما يكثر فيها الرقيق الكاسد أو غير المرغوب، مما جعل النخاسون -وكان معظمهم من اليهود- يمارسون حيلهم بتزيين رقيقهم وكم غلام بيع على أنه جارية، هذا مما دفع الدولة لتعمل على مراقبة

1- تاريخ الطبري، ج5، ص 110-111.

2- الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج1، ص 101.

3- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج6، ص 103.

4- الجاحظ: الحيوان، ج1، ص 117، التنوخي: الفرج بعد الشدة، ج4، ص 57.

5- اليعقوبي: البلدان، ص 245.

6- المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص 241، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 479.

7- ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 131-132، المقدسي: المصدر السابق، ص 242.

أسواق الرقيق، فكان على تجار الرقيق عامل من عمال الحكومة يشرف على أعمالهم ويراقب تجارتهم يسمى قيم الرقيق.[1]

كما عرفت أسعار الرقيق الأبيض ارتفاعا في القرن الرابع هجري بسبب انقطاع الثغور وفقدان الأمن فانقطعت تجارته، فبيعت الجارية والخادم من غير صناعة بألف دينار[2]، وبذلك صارت تجارة الرقيق مربحة درت على أصحابها خاصة من أهل الذمة أموالا طائلة مما جلبت لهم حسد الحاسدين، ويذكر ابن قتيبة: أن الشاعر أبو دلامة المتوفي عام 161هـ مر يوما بنخاس يبيع الرقيق فرأى عنده من الجواري الحسان فانصرف مهموما فدخل على الخليفة المهدي فأنشده قصيدة يفضل فيها النخاسة على الشعر مطلعها:

إن كنت تبغي العيش حلوا صافيا * فالشعر أعذبه[3] وكن نخاسا[4]

كما اشتهر أهل الذمة بتجارة السلع الثمينة كالمجوهرات والمصوغات والرياش والثياب الفاخرة وكان أكبر ارتزاقهم من الخليفة وأهله وأهل دولته وسائر الخاصة، فكانوا يحملون مختلف أصناف بضائع الترف كالياقوت والماس من بلاد الهند واللؤلؤ والحرير من الصين[5]، ويذكر متز[6]: أن رجلا يهوديا هو الذي كان يقبض اللؤلؤ الذي كان يستخرج من شواطئ جزيرة العرب.

ومن ثم فقد تم ربط مختلف أسواق الولايات العباسية وغيرها من الأسواق المجاورة في أوروبا وشرق إفريقيا وبلاد الصين بحاضرة الخلافة بغداد إلى أن أضحت سوق المعمورة تلتقي فيه جميع التجارات والمنتوجات ومركزا ماليا تتحدد فيه أسعار

1– أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج1، ص 84.

2– المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 24، الاصطخري: المسالك والممالك، ص 45.

3– أعذبه: أعذب عن الشيء امتنع عنه، ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص 584.

4– ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج1، ص 250.

5– ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص 131، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 302، 307، Edouard perroy : OP.cit.P97

6– المرجع السابق، ج2، ص 296.

البضائع والسلع، وعليه فقد أخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية، وصارت بغداد والإسكندرية هما من يقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر[1].

ولعل من الشواهد الدالة على مكانة هؤلاء التجار من أهل الذمة في تنشيط حركة التجارة في الدولة العباسية أن في سنة 264هـ قُتل عدد غير قليل من التجار اليهود والنصارى والمجوس اثر تمرد داخلي عرفته مدينة كانتون[2] الصينية فأدى إلى انقطاع الحرير عن بلاد العرب[3]، كما احتكروا بعض الأسواق على غرار مدينة اليهودية التي تقع على مقربة من أصفهان والتي عدت القسم التجاري لهذه المدينة الفارسية الكبرى[4]، ومن بين العوامل التي ساعدت تجار أهل الذمة على رواج تجارتهم واتساع نطاقها هو احتكاكهم المباشر بالأسواق وحسن معاملة أمثالهم من التجار ومعرفة الحساب، فضلا عن علاقاتهم الواسعة.

حيث كان في مصر جالية من اليهود العراقيين يشتغل بعض أفرادها وكلاء لنظرائهم التجار العراقيين ومن أمثلة ذلك يعقوب بن كلس الذي صار وزيرا للخليفة الفاطمي العزيز (365هـ-386هـ) فقد كان يهوديا بغداديا بدأ حياته في القاهرة وكيلا للتجارة[5]، وكذلك شأن اليهوديان أبو سعيد إبراهيم وأبو نصر هارون أصلهما من مدينة تستر الفارسية استوطنا في مصر -القاهرة- حيث كان أبو سعيد يتاجر بالتحف وكان أبو نصر صيرفيا دلالا للبضائع التي ترد من العراق.[6]

1- متز: المرجع السابق، ج2، ص 785، Sourdel : op.cit.P324

2- كانتون: وقيل خانقوا مدينة عظيمة في الصين على نهر عظيم أكبر من دجلة يصب في بحر الصين، وبين هذه المدينة والبحر مسيرة ستة أيام أو سبعة تشتهر بإنتاج الحرير، وقبلة السفن الواردة من البصرة وعمان والهند، ابن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في أخبار الأقطار، ص 210.

3- المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 140.

4- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 518، متز: المرجع السابق، ج2، ص 296.

5- الدوري: المرجع السابق، ص 154.

6- يوسف رزق الله غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ العراق، ص 142.

أما المسيحيون من الطائفة الآرامية فقد سمح لهم وضعهم الديني بتعاطي التجارة من خلال التسهيلات التي لاقوها من قبل بني نحلهم خارج الأسواق الإسلامية، كما كانت للطائفة الأرثوذكسية علاقات تجارية مع بيزنطة.[1]

وبذلك كان نشاط تجار أهل الذمة عاملا في نمو التجارة الدولية والتي ساهمت بدورها في نشوء موانئ إسلامية ذاع صيتها وأكسبت شهرة عالمية، حيث ازدحمت بها السفن الغادية والرائحة، وتكدست فيها السلع، ونشأت فيها وكلات مصرفية وجمركية، فقد برزت عدن كنقطة ارتكاز بين الهند والصين ومصر وكانت ترد إليها السفن المحملة بالسلع الآسيوية والأوروبية مما أدى إلى انتعاش التجارة وتدفق الأموال عليها، وقد أثنى المقدسي على دورها التجاري فقال: "أن من الناس من دخلها بألف درهم فرجع بألف دينار، ومنهم من دخلها بمئة فرجع بخمسائة".[2]

كما كانت الإسكندرية أهم موانئ بحر الشام-البحر الأبيض المتوسط- تنقل إليها التجارة الآتية من أوروبا إلى بحر القلزم[3]، أما البصرة فقد بلغت شهرتها ومكانتها التجارية جعلت ابن حوقل لا يسهب في ذكرها، فكانت البضائع تحمل إليها من مختلف بلدان الأرض وكانت الأبلة مرفأها ومركزها التجاري[4]، كما كانت الطرق في العصور الوسطى تتفرع من الموصل إلى بلاد الشرق الأقصى عبر أصفهان وإلى بلاد الروم عبر آمد شمالا وإلى بلاد الشام مرورا بنصيبين أو إلى الجنوب عبر حلب إلى حمص وحماة ودمشق إلى أيلة ثم مصر، وقد عدّها ياقوت الحموي أنها باب العراق ومفتاح خراسان ورأس طريق أذربيجان[5].

1- Edouard perroy : OP.cit.P 97

2- المقدسي: المصدر السابق، ص 426.

3- الإصطخري: المصدر السابق، ص 40، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص 221.

4- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 214، Sourdel : op.cit.P318

5- الإدريسي: المصدر السابق، ج2، ص 660، 664، ابن حوقل: المصدر السابق، ص 195، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 258.

وبقدر ما تعزز دور أهل الذمة التجاري في القرن الرابع الهجري وتمكن بعضهم من الوصول إلى مراكز عليا بتعاطيهم مع رجال الدولة فقد كانت أيديهم موضوعة على المال فسمح لهم وضعهم هذا بالوصول إلى الوزارة[1]، وعلى قدر الإكبار والمحاباة فقد لاقى هؤلاء التجار المضايقات والابتزاز من رجال الدولة، ففي سنة 332هـ وقع على تجار بغداد ظلم عظيم، فر على إثره جماعة من اليهود والمجوس إلى بلاد الشام، كما صادر بعض رجال الدولة تجار اليهود[2]، وفي سنة 323 هـ أشعل الحنابلة النار في محلات الكرخ فأدى ذلك إلى احتراق ثمانية وأربعين صنفا، وربما يعود سبب هذه النقمة إلى تمادي التجار الذميين في احتكار السلع والتلاعب بأسعارها.[3]

غير أن ذلك لم يؤثر على حركة التجارة ورواجها بل بالعكس استفادت خزانة الدولة من هذا الرخاء بتعاظم إيراداتها عن طريق الجباية والرسوم التي كانت تفرض على مختلف التجارات وقد ساعدت إصلاحات الدولة على تدفق المزيد من الأموال لا سيما بعد أن اقترح أبو يوسف على الخليفة الرشيد (170هـ-193هـ) أن يولي المكوس قوما من أهل الصلاح والدين وأن يأمر بمعاملة الناس بالحسنى فلا يأخذون من التجار أكثر مما ينبغي[4]، فقد بلغت الجباية في عهد الرشيد في كل سنة نحو خمسمائة مليون درهم من الفضة وعشرة ملايين دينار من الذهب حسب ما أورده المسعودي.[5]

وفي الأخير نخلص أنه كان لنهضة التجارة في العصر العباسي أثر كبير في تجهيز الصناعة بمختلف المواد الخام والسلع اللازمة للإنتاج، بالإضافة إلى وجود طبقة ثرية في المجتمع العباسي ساعدت على ازدياد الطبقة العاملة وازدهار الصناعة، فصناعة وتجارة الجوهر مثلا ما كان لها أن تنهض لولا وجود فئة اجتماعية ذات قدرات مالية على شراء مثل هذه المصوغات الثمينة، وإن كان لأهل الذمة دور بارز فيما بلغته التجارة

---

[1]- جاك ريسلر: المرجع السابق، ص 139.

[2]- الصولي: المصدر السابق، ص 251، أبو شجاع: المصدر السابق، ج3، ص282.

[3]- الهمداني: المصدر السابق، ص 92.

[4]- أبو يوسف:المصدر السابق، ص 132.

[5]- المسعودي: مروج الذهب، ج3، ص 157.

العباسية، فإن الدولة الإسلامية تعد عاملا مساهما في توسعها من خلال ما وفرته من أمن ودعم التجار، فضلا على أنها المستهلك الأساسي للسلع.

وإن لم يكن للعرب في بادئ الأمر دور تجاري ملحوظ لانصرافهم إلى الأمور العسكرية إلا أنهم لم يلبثوا أن اندمجوا مع غيرهم من أهل الذمة وجاروهم في أعمال التجارة إلى أن صار من الصعب التمييز بين التجار العرب وغير العرب في القرن الرابع الهجري، ويفسر متز ظاهرة انتعاش التجارة في العصر العباسي إلى التحول الذي أصاب المجتمع العباسي في القرن الثاني الهجري بحيث صارت التجارة من أهم أركان الحياة الاقتصادية ومظهر من مظاهر قوة المسلمين وعزتهم، بحيث كانت سفنهم وقوافلهم تجوب مختلف أنحاء العالم.(1)

المعاملات المالية:

كان من آثار الحركة التجارية التي عرفتها الدولة العباسية أن نشأ أسلوبا جديدا في المعاملات المالية ليواجه هذه الحركة الكبيرة لتدفق الأموال من جميع أنحاء الدولة العباسية وخارجها، فقد تطور نظام المعاملات المالية بشكل واضح بعد نشوء البيوتات المالية والمصارف في الدولة العباسية منذ أوائل القرن الرابع الهجري بشكل رسمي، وكأي نظام وليد التطور الاقتصادي والاجتماعي للدولة حيث بدأ بفكرة الصراف الذي يكسب دخله من مبادلة العمولات المعدنية بعضها ببعض وتحويل النقود وصرفها لأغراض التجارة.(2)

حيث كانت الكوفة من أعظم المدن شهرة للصيرفة وأمورها وكان لها فضل كبير في تقدم فن الصيرفة(3)، وكان للصيارفة محلة خاصة في سوق الكرخ ببغداد تدعى عون(4)، أما سوق الصرافين بمدينة أصفهان كان يحتوي على مئتي صراف حيث كانوا يجلسون في سوق واحد يسمى سوق الصرافين.(5)

1- متز: المرجع السابق، ج2، ص 785.

2- الزبيدي: تاج العروس، ج6، ص 164، الدوري: المرجع السابق، ص 165.

3- المرجع نفسه، ص 166.

4- مسكويه: تجارب الأمم، ج1، ص 247.

5- متز: المرجع السابق، ج2، ص 794.

واستطاع الصيارفة من خلال هذه الأسواق تقديم خدمات جليلة للتجار، حيث كانوا همزة وصل بين الأفراد ودار ضرب العملة وبيت المال وكذلك تحويل النقود، ولعل الشيء الذي ساعد على ازدهار مهنة الصيرفة في الدولة العباسية هو أن التعامل بالعملات كان يتم عن طريق العد، لذلك كانت قيمة العملة ومعدل التبادل بينها يتوقف على كمية المعدن النفيس ونقائه، كما أن سعر الصرف بين الدرهم والدينار يتأثر أيضا بمستوى أسعار المعدنيين الذهب والفضة في الأسواق.[1]

وكانت الدولة العباسية حريصة على الاحتفاظ بسلامة العملة وجودتها حيث كان يتم تحديد نسبة ثابتة من الوزن بين وحدة الذهب ووحدة الفضة وكان لا يقبل من سداد العامة إلا الجيد من النقود المضروبة، وقد أنشأت لذلك ديوان الجهبذة الذي تولاه إبراهيم بن أيوب النصراني[2]، ويبدو أن النصارى تولوا مهمة الجهبذة في بغداد منذ القرن الثاني الهجري، وكانت الدولة العباسية قد عهدت إلى هؤلاء الجهابذة بتمييز الزائف من النقود التي تجبيها، لخبرتهم المالية الواسعة وغالبا ما كانوا من أهل الذمة مقابل رواتب لهم عن خدماتهم لبيت المال.

ومع تقدم التجارة وظهور فائض من النقود ظهرت بيوتات مالية أو شركات باتفاق عدد كبير من الصيارفة فيما بينهم واستطاعوا أن يوسعوا عمليات الصيرفة إلى قبول الودائع وتسليف الأموال والقيام بعمليات استثمارية عن طريق المضاربة وتحقيق الأرباح لأصحاب الودائع[3]، كما تحول بعض الجهابذة من كتاب الخراج والعمل بالجباية وتميز النقود إلى أصحاب بيوتات مالية، حيث كانوا يقومون بقرض المتعاملين معهم واستفاء أموالهم عند قيامهم بجباية أموال الدولة وكثيرا منهم من احتفظ بالوظيفتين معا، حيث كان الصيارفة اليهود في بغداد يقرضون رجال الدولة[4]، كما اتهم خالد البرمكي بأنه أودع

1- الدوري: المرجع السابق، ص 165.

2- المرجع نفسه، ص 159.

3- المرجع نفسه، ص 166-167.

4- جاك ريسلر، المرجع السابق، ص 139.

مالا عند جهبذ نصراني أيام الخليفة المنصور[1]، وعليه فقد اشترك الجهبذ والصراف في وظيفة وعمل هذه البيوت المالية إلى أن صارا اسمان لمسمى واحد.[2]

وقد اختص أهل الذمة ولا سيما اليهود والنصارى بأعمال الصيرفة والجهبذة وبخاصة مع نهاية القرن الثالث الهجري عندما أصدر المقتدر (295هـ-320هـ) أمرا سنة 296هـ بألا يستخدم أحدا من أهل الذمة إلا في الطب والجهبذة[3]، وهذا ما ذهب إليه الجاحظ بقوله[4]: "أن أغلب الصيارفة في أواخر القرن الثالث الهجري نصارى"، كما تمكن العديد من أثرياء اليهود من الوصول إلى مركز ثابت بتعاطيهم مع رجال الدولة، حيث تمكن سهل بن نظير في منتصف القرن الثالث الهجري بالاحتفاظ بوظيفة الجهبذة وحفيده سهل جهبذا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.[5]

ومن الأدلة الدالة على تفرد اليهود الاتجار بالعملة في الدولة الإسلامية أنه لما فرضت الحكومة الإسلامية على بطريرك الإسكندرية جزية باهظة في أواخر القرن الثالث الهجري حصل على المال اللازم بأن باع أحد اليهود جزء من أملاك الكنيسة، وكان اليهود من بين الصيارفة بقصبة مصر.[6]

وإن كان إقبال أهل الذمة واستئثارهم بأعمال الجهبذة والصيرفة قابله في الوقت نفسه عزوف التجار المسلمين عن هذه الأعمال في بادئ الأمر تجنبا لشبهة الربا التي حرمها الإسلام تحريما قاطعا، لكن مع ازدهار التجارة سرعان ما انخرط المسلمون فيها وانتشروا في جميع المدن التجارية الهامة.

وتعاطى رجال الدولة العباسية وكبار تجارها مع هذه البيوت المالية وأصحابها، فقد استطاع الوزير علي بن عيسى بن الجراح وزير المقتدر بالله (295 هـ- 320هـ) استرجاع من الجهبذين اليهوديين يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران مبلغ مئة ألف

1- الصابي: الوزراء، ص 90، الجهشياري: المصدر السابق، ص 100.

2- الدوري: المرجع السابق، ص 158 ، 164.

3- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج3، ص 165، Louis Gardet : OP.Cit.P 83.

4- رسالة الرد على النصارى، ج3، ص 239.

5- التنوخي: نشوار المحاضرة، ج1، ص31.

6- متز: المرجع السابق، ج2، ص 796.

درهم كان أودعها ابن الفرات عندهما في وزارته الأولى (296هـ-299هـ)[1]، كما بلغ ما أودعه من أموال المصادرات في وزارته الثالثة (311هـ-312هـ) لدى هارون بن عمران الجهبذ اليهودي ثمانية ملايين وأربعين ألف دينار[2]، كما اعترف الجهبذ إبراهيم بن يوحنا للوزير ابن الفرات سنة 311هـ أنه كان عنده حينئذ مئة ألف دينارا لحامد بن عباس[3]، واستخدم أبو عبد الله البريدي وزير الخليفة المتقي (329هـ-350هـ) جهبذين إسرائيل بن صالح وصالح بن نظير وكان أولهما موضع ثقته.[4]

وفي سنة 311هـ أمر الوزير ابن الفرات عندما استدعي للوزارة للمرة الثانية كتب رقعة إلى هارون بن عمران الجهبذ اليهودي بأن يدفع ألفي دينار إلى علي بن عيسى من وارد ضيعته الخاصة ليستعين به على أمره[5]، واستمرت عائلة الجهبذ هارون بن عمران اليهودي في ممارسة أعمال الصيرفة، حيث يروي الصولي أن الأمير بجكم قبض على علي بن هارون سنة 329هـ وعذبه وأخذ منه مئة وعشر ألاف دينار ثم أمر بقتله.[6]

ولعل ما يفسر اندفاع كبار رجال الدولة من وزراء وكتاب على إيداع أموالهم لدى الجهابذة هو خشية تعرض أموالهم للمصادرة بعد انقضاء مهامهم على غرار ما حدث للوزير ابن الفرات الذي صودرت أمواله من قبل خلفه الوزير علي بن عيسى، كما وجدوا في هذه البيوت المالية الملاذ لتنميتها واستثمارها، وبخاصة أنها كانت تمنح هامشا من الربح ما يكفي للإقبال عليها.

1- الصابي: الوزراء، ص 90-92، مسكويه: تجارب الأمم، ج1، ص 66.

2-المصدر نفسه،ج1، ص 128.

3- المصدر نفسه، ج1، ص 95، الصابي: الوزراء، ص 148، التنوخي: نشوار المحاضرة، ج1، ص 103.

4- مسكويه، المصدر السابق، ج2، ص 52.

5- المصدر نفسه، ج1، ص 112.

6- الصولي: المصدر السابق، ص 148.

غير أن تعرض الجهابذة إلى التفتيش والمساءلة بعد عزل زبائنهم من كبار رجال الدولة مثل ما حدث لهارون بن عمران، دفع بعض الموظفين إلى إيداع أموالهم دون تسجيلها في سجلات الجهبذة على غرار ما فعل ابن الفرات الذي استطاع استرجاع بعض أمواله التي أودعها في وزارته الأولى دون أن ينتبه خلفه[1]، هذا الفعل قد يفسر مدى الثقة التي كانت قائمة بين بعض رجالات الدولة وهؤلاء الجهابذة من أهل الذمة، أو قد تعود إلى رابطة المصلحة والمنفعة.

وقد أفاد هؤلاء الصيارفة والجهابذة من أهل الذمة الكثير من الودائع التي يتسلمونها من كبار رجال الدولة والقروض التي يمنحونها للتجار وحتى للدولة حينا، حيث كانت هذه البيوت تتقاضى على ما تقوم به من خدمات الحفظ والتسجيل هامشا من الربح أو ما يعرف برسم الخدمة، وفي هذا الصدد يروي التنوخي[2]: "أن رجلا قدم رقعة إلى صراف فقال له هذا الأخير: يا سيدي أنت الرجل المسمى بالتوقيع؟ فقلت: نعم قال: أنت تعلم أن أمثالنا يعاملون للفائدة وربحنا يعطي في مثل هذا ما ينفق في كل دينار درهما"، وكان الجهبذين اليهوديين يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران يأخذان ربح ثلاثين دينارا في كل مئة.[3]

وبذلك فقد جنوا أرباحا كثيرة لكثرة الفائض الذي يأخذونه وأضحوا مصدر الثروة والمال في الدولة الإسلامية، وازدادوا احتراما ومكانة حتى عد الجاحظ الصيرفة من المهن التي تجلب الثراء والغنى بقوله[4]:" ألا ترون أن الأموال كثيرا ما تكون عند الكتاب وعند أصحاب الجوهر وعند الصيارفة"، فقد كان علي بن هارون الجهبذ اليهودي مترفا غنيا يعيش في قصر فخم على نهر الصراة[5]، وزادتهم هذه المكانة الاقتصادية رفعة اجتماعية، حيث يذكر ابن الجوزي[6]: أن يهودي وجد مع مسلمة فضربه صاحب

1– مسكويه: المصدر السابق، ج1، ص 44.

2– التنوخي: نشوار المحاضرة، ج1، ص 201.

3– متز: المرجع السابق، ج2، ص 802.

4– الحيوان، ج4، ص 434 .

5– الصولي: المصدر السابق، ص 199.

6– المنتظم، ج6، ص 293.

الشرطة، وكان اليهودي غلاما لجهبذ يهودي، ووجد من الجهابذة من أصر على معاقبة صاحب الشرطة حتى ضرب وسط حشد من اليهود مما أغضب العامة فأحدثوا أمورا قبيحة.

كما ساهم وضعهم المالي في دعم خزينة الدولة من حين لآخر، فقد استعان الوزير علي بن الفرات في وزارته الأولى (296هـ-299هـ) بالجهبذين اليهوديين يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران لدفع رواتب بعض كتابه على أن يستردا مالهما من جهبذة الأهواز[1]، وعلى ما يبدو فإن معاملات الوزير ابن الفرات مع هذين الجهبذين اليهوديين كانت باسمه الشخصي وليس باسم الدولة، على اعتبار أنه لم يبدأ في تعيين جهابذة رسميين لتسليف الدولة ما تحتاجه من أموال إلا في سنة 301هـ.

ويعتبر الوزير علي بن عيسى أول من شجّع على إنشاء مصرف شبه رسمي للدولة حيث دعته ظروف الارتباك المالي خلال وزارته الأولى (301هـ-304هـ) أن يقترض من الجهبذين اليهوديين يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران في أول كل شهر مئة وخمسين ألف درهم على أن يسترد مالهما من خراج الأهواز[2]، وكان ذلك إيذانا بإنشاء مصرف رسمي اشترك في إنشائه الجهبذان اليهوديان، وظل قائما في فترة طويلة واستطاع أن يحوز على ثقة التجار وأصحاب رؤوس الأموال، بل عملت الدولة على تدعيمه والحفاظ على استقراره حتى تظل ثقة التجار قوية بجهابذته، ومن ثم الحفاظ على نشاطه واللجوء إليه وقت اللزوم، حيث يذكر التنوخي: أن الجهبذين اليهوديين قام بالإشراف على جهبذة الدولة وتأمين الأموال مدة ستة عشر سنة.[3]

وعليه فقد انتشرت البيوتات المالية والمصارف في حواضر الدولة العباسية وساهمت في تنشيط المعاملات المالية والحياة الاقتصادية، كما لجأ العباسيون في بعض الأوقات إلى الاقتراض ولا سيما في وقت تجهيز الجيوش والحملات العسكرية، ففي سنة 324هـ فرض على التجار الجهابذة أن يقدموا الأموال للدولة على سبيل القرض[4]،

1- متز: المرجع السابق، ج2، ص 779.

2- الصابي: الوزراء، ص 92، Louis Gardet : OP.Cit.P 84.

3- التنوخي: نشوار المحاضرة، ج8، ص 42، الصابي: المصدر السابق، ص 93.

4- الصولي: المصدر السابق، ص 76.

والأمر نفسه حدث مع أمير الأمراء بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي (379هـ- 403 هـ) لما كان في واسط طلب من أبي علي الموفق مالا فقصد هذا الأخير ابن فضلان اليهودي وطلب منه قرضا فلم يعطه، فقرر بهاء الدولة مصادرة بعض التجار والجهابذة اليهود قدرا من المال[1]، وكذلك الشأن نفسه مع الخليفة المعتضد بالله (279هـ- 289هـ) عندما أراد تجهيز جيش فعجز عن ذلك فأخبر بمجوسي له مال عظيم فاستدعاه يستقرض منه فلما حاوره خل سبيله ولم يستقرض منه.[2]

وإن كانت هذه البيوت المالية والمصارف مهمتها الاتجار في المعادن النفسية وتزويد التجار والدولة برؤوس الأموال وتقبل الودائع، فإن أصحابها في الوقت نفسه ساهموا بقدر كبير في انتشار وتطوير المعاملات المالية الائتمانية، ولا سيما أن المعاملات المالية الضخمة كانت تستدعي وسائل للدفع مأمونة من الضيّاع خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص، وكان من بين وسائل معاملات الائتمان السفاتج[3]، وتعتبر السفتجة أهم أداة للمعاملات المستندة إلى الائتمان وهي عبارة عن حوالة خطاب يذكر فيه قيمة معينة من المال قابل لأن يصرف في أي مكان من عملاء جهابذة الشخص الذي حرر السفتجة وكانت النقود المذكورة في السفتجة تدفع في أي بلد من البلاد.[4]

وقد نظم الجهابذة العمل بالسفاتج حتى صارت في القرن الرابع الهجري سمة أو علامة في الحياة الاقتصادية، حيث أقبل التجار على استخدام هذه الوسيلة لانجاز عملياتهم التجارية، وقد كان لكبار التجار وكلاء أو عملاء معروفين في الأسواق الكبرى يقومون بتسلم هذه السفاتج مقابل أجر معين[5]، كما أضحت السفاتج من الأهمية الاقتصادية في الدولة العباسية إلى أن صارت الوسيلة المفضلة لإرسال أموال الجباية من الولايات إلى بغداد، وكان الإخشيد صاحب مصر قد أرسل إلى نائب له ببغداد سفاتج بثلاثين ألف دينار

1- أبو شجاع: المصدر السابق، ج3، ص 282.

2-ابن الجوزي: المصدر السابق، ج2، ص 324.

3- السفتجة: وهي أن يعطي مالا لآخر وللآخر مال في بلد المعطي ، فيوفيه إياه ثم فيستفيد أمن الطريق، الفيروزآبادي: المصدر السابق، ج1، ص 194.

4- الزبيدي: المصدر السابق، ج2، ص 59، البستاني: دائرة المعارف، ج10، ص 749.

5- ابن كثير: البداية والنهاية، 12، ص 225.

سلمها للوزير ابن مقلة[1]، كما ورد للوزير علي بن عيسى عام 313هـ سفاتج بأموال العامة من الشام ومصر قدرت بـمائة وسبعة وأربعين دينار.[2]

وكان الوزير علي بن عيسى إذا احتاج إلى مال وليس له وجهة استلف من كبار التجار على سفاتج، مثل ما فعل مع الجهبذين اليهوديين يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران فكان يدفع لهما دانقا ونصف دانق فضة في كل دينار[3]، وكانت هذه السفاتج تسحب عادة من الصرافين والتجار وكانت تصرف في أوقات محدودة، أما إذا تأخر صرفها صرفت بعمولة.[4]

وكان الصك الوسيلة الثانية من وسائل الائتمان، فهو عبارة عن ورقة مالية تثبت فيها دين أو قرض أو استحقاق مالي له أجل معين[5]، وانتشرت الصكوك كإحدى وسائل الائتمان في المعاملات التجارية فكان إذا اشترى رجلا عقارا كضيعة مثلا كتب صكا بشرائها[6]، كما كان التجار الرحالة يستودعون عند وكلاءهم من جهابذة أموالا نقدية ويأخذون تعهدا بعدم التصرف في هذه المبالغ إلا بإذن صريح منهم بموجب الصكوك، وكان هؤلاء الجهابذة من أهل الذمة يصرفون هذه الصكوك لأصحاب الأموال المودعة عندهم نظير مبلغ معين من المال.

ويروي التنوخي[7]: أنه كان لسليمان بن وهب وزير المعتمد (256هـ-279هـ) وابنه عبيد الله جهبذا خاصا يدعى ليث فكانا يودعان النقود عنده ويكتبان الصكوك عليه، ولما عزل سليمان من الوزارة قبض خلفه إسماعيل بن بلبل على ليث ليأخذ ما أودع أهل وهب عنده من نقود، واكتشف في داره بئر فيها ثمانين ألف دينار، فلما سأل الجهبذ: هذا

1- متز: المرجع السابق، ج2، ص 792.

2- ابن الأثير: المصدر السابق،ج8، ص 159، مسكويه: المصدر السابق، ج1، ص 146.

3- التنوخي: نشوار المحاضرة، ج8، ص 41، الصابي: الوزراء، ص 93.

4- الدوري: المرجع السابق، ص 169.

5- ابن منظور: لسان العرب، ج10، ص 456-457، الدوري: المر جع السابق، ص 170.

6- متز: المرجع السابق، ج2، ص 792.

7- نشوار المحاضرة، ج8، ص 57.

البئر مالك أو مال أصحابك؟ فأجاب: بل مالي، وأنا رجل تاجر، كما يذكر مسكويه[1]: أنه في سنة 315هـ وجه عبد الله البريدي دراهم كانت لأبي السلاسل[2] مع جهبذه فأخذها ووافقه على أن يصك بما كان عند الجهبذ، وكان التجار في مدينة البصرة يودعون أموالهم ونفائسهم لدى الصيارفة ويأخذون منهم وصلا أو رقاعا بها، وعندما يشتري التاجر شيئا يعطي حوالة على الصراف ويقوم هذا الأخير بصرفها[3]، وكان تجار الأقمشة والصيارفة وتجار الجملة يجتمعون في سوق خاصة من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى المساء للمفاوضة في القضايا التجارية وتصفية الحسابات بينهم.[4]

ومن خلال هذه النصوص يتبين لنا أن استخدام الصكوك والسفاتج في العقود والمعاملات المالية كان واسع النطاق في الدولة العباسية من خلال بيع السلع وشرائها وإيداع الأموال وسحبها، كما تبرز لنا مدى سيطرة الجهابذة والصيارفة من أهل الذمة على المعاملات المالية وتسهيل تجارة الائتمان من خلال تحويلهم للنقود وتسوية الحسابات، فضلا عن دورهم الكبير في التخفيف من مشكلة شح الأموال المتداولة بحوالاتهم، كما يدل هذا التطور كذلك على مدى رقي الفكر المالي الذي عرفته الدولة العباسية والذي أرسى دعائمه جهابذة أهل الذمة باعتبارهم خبراء ماليين، والذي صار يتماشى والتطور الاقتصادي بما يحفظ المشروعات التجارية ومقوماتها.

ونتيجة لسهولة التعامل التجاري ازدهرت التجارة وترسخت مكانة التجار، وصار التجار المسلمين وغير المسلمين-أهل الذمة- يجوبون مختلف مناطق العالم وأضحت معظم الموانئ الإسلامية من أغنى الموانئ وأكثرها ثراء وإقبالا من مختلف تجار العالم.[5]

1- مسكويه: المصدر السابق، ج1، ص 158.

2- أبو سلاسل: كان عامل على أهل بادوريا بالأهواز ولاه عليها علي بن عيسى، الصابي: المصدر السابق، ص 373.

3- متز: المرجع السابق، ج2، ص 794.

4- الدوري: المرجع السابق، ص 166.

5- ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص 131، متز: المرجع السابق، ج2، ص 794.

وبقدر ما ساهمت هذه البيوت المالية في ازدهار التجارة والمعاملات المالية، بقدر ما وسعت من دائرة المضاربة التجارية والتي كانت سببا في تراكم الثروة في أيدي أصحابها ومتعامليهم، ويروي الجهشياري[1]:"أن رجلا من أهل الذمة –نصراني– اشترى سمكة بثلاثين درهما فأتى به المسيب صاحب الشرطة إلى الخليفة المنصور فقال له: من أنت؟ قال: رجلا من أهل الذمة فقال: بكم ابتعت هذه السمكة؟ فقال: بثلاثين درهما وقال: كم عيالك؟ قال: ليس لي عيال وكم عندك من المال؟ قال: ما عندي شيء، قال: يا مسيب خذه إليك فإن أقر بجميع ما عنده وإلا فمثل به، فأقر بعشرة ألاف درهم، فقال: كلا إنها أكثر فأقر بثلاثين ألف دينار وقال له: من أين جمعت هذا المال؟ قال: يا أمير المؤمنين كنت جارا لأبي أيوب سليمان بن سليمان كاتبك فولاني جهبذة الأهواز فأصبت هذا المال، فقال المنصور: الله أكبر هذا مالنا اختلته وأمر المسيب بحمل المال إلى بيت المال فأطلق سراحه".

وما يستشف من هذه الحادثة أنها توضح لنا سبب ثراء هذه الطبقة –الجهابذة– باعتبار أن أرصدة أموال هذه المصارف كانت بالأساس من رأسمال الجهابذة أنفسهم التي جمعوها من وظائفهم في الدولة أو من عملياتهم التجارية–المضاربة–، وإن اعتقد البعض أن ما كان يأخذه الجهابذة كأجر مقابل كتابة الودائع وتوثيقها على حفظ الأموال يعد خارجا عن دائرة الربا متى كان ذلك بالتراضي المشروع بين الطرفين، وإن المتعاملين إنما أودعوا أموالهم في هذه البيوت رغبة في تنميتها وإعطائها لمن يحسن استثمارها نظير نسبة معلومة من الربح يتفق عليها مقدما، وبذلك فقد أباح كثير من الفقهاء المضاربة يسرا على الناس وتبادلا للمنافع[2]، وهذا ما يفسر تشجيع الدولة للصيارفة والجهابذة في إنشاء البيوتات المالية والمصارف وتعاملها معهم على غرار الوزير علي بن عيسى.

وعليه فقد تطور هؤلاء التجار من أهل الذمة وصاروا خبراء ماليين تعتمد عليهم الدولة في أمورها المالية إلى أصحاب بيوتات المال ومصارف، أثر كبير في توسع أعمال الجهبذة وسببا في إنشاء أول مصرف رسمي سنة 301هـ عن طريق الوزير علي بن عيسى، وبذلك ساهمت هذه المصارف والبيوتات المالية في تداول الأموال التي كانت

1– الوزراء والكتاب، ص 144.

2– ابن قدامة: المغني، كتاب الشركة، ج3، ص 3 ، 86.

تشكل العمود الفقري للحياة الاقتصادية، فلا التجارة ولا غيرها من الفعاليات الاقتصادية كان بالإمكان أن تسير بدون رأسمال.

ومن ثم فقد لعبت هذه الأسواق والبيوتات المالية دورا كبيرا في حياة الدولة العباسية اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا في بعض الأحيان، كما ساهم التقدم والترف الذي أصاب المجتمع العباسي في ازدهار الحياة الاقتصادية ومن ثمة ازدهار الحضارة الإسلامية العباسية.

الخاتمـــــــــة

يمكن لنا بعد أن وصلنا إلى نهاية البحث أن نشير إلى جملة من النتائج التي توصلنا إليها والتي حاولت تقديمها على شكل النقاط الآتية:

- أن سياسة التسامح الديني وانفتاح الدولة العباسية على مختلف رعاياها دون تعصب أو إقصاء ساعد على تمكين أهل الذمة من احتلال مواقعهم في المجتمع العباسي وعلى تحقيق الأمن الاجتماعي وبلوغ النهوض الحضاري.

فكثرة المتصرفين من أهل الذمة في الدولة العباسية ووصول عدد منهم إلى مراكز الحكم الكبرى من وزراء ورؤساء الدواوين، وغزارة إنتاجهم الثقافي دليلنا على ما ندعي وما كان للظلم والاضطهاد وعدم المساواة أن يسمح بتقلد مثل هذه المناصب النوعية والرفيعة وبأن ينتجوا فيبدعوا، ويدحض في نفس الوقت بعض آراء المتحاملين حول اضطهاد أهل الذمة في دار الإسلام.

- أما ما عرف بالتضييق على أهل الذمة في بعض فترات الدولة العباسية وإلزامهم القانون الإسلامي ، فهي أمور اقتضتها أسباب سياسية وأمنية من تثبيت دعائم الحكم أو النظام العام لم يستثن منها حتى الطوائف الإسلامية ، فإذا كان المتوكل العباسي قد أبعد غير المسلمين عن مناصب الدولة هو نفسه قد سوى ضريح الإمام الحسين – عليه السلام– ومنع الناس من إتيان قبره[1] – العتبات المقدسة–.

- وأن هؤلاء المتصرفين من أهل الذمة بقدر ما خدموا الدولة الإسلامية وتمدنها وكانوا عقلها وعينها بقدر ما زادتهم هذه المناصب ترفعا وتكبرا وثراء إلى درجة صارت العامة تستعظم مناصب النصارى وتشعر بالنقص حيالهم وتقر بثرائهم وسببا في غضبها وثورتها.

ولعل السبب نفسه الذي دفع المتوكل من الحط من قدرهم بإلزامهم الغيار وبعض الإجراءات التمييزية ، وربما الجاحظ سعى إلى الهدف نفسه عندما كتب رسالته الرد على النصارى من إسقاط الهالة الأسطورية التي أحاطوا بها أنفسهم بزعمهم أنهم مصدر العلوم والعبقرية وأن كثيرا من العلوم لا تصلح إلا بهم.

- كما لا ينكر أحد دور هؤلاء النقلة السريان الذين كان أغلبهم من اليعاقبة والنساطرة في تاريخ الفكر الإسلامي، لكن هذه الأهمية تبقى محدودة حيث استطاع العلماء المسلمون

---

[1]– الطبري : المصدر السابق، ج5، ص 312.

من تصحيح العديد من النقول وكذلك تحوير العديد من النظريات والقواعد العلمية بعد استيعابهم لكتب اليونان على غرار الرازي وابن سينا.

- وما يقال عن فضل نخب أهل الذمة في البناء المؤسساتي والنشاط الثقافي والإقتصادي في الدولة العباسية ، ففي الحقيقة أن هذا الفضل مشترك فما كان لهؤلاء القيام ما قاموا به لولا المكانة التي حظيوا بها والحرية التي عاشوا في كنفها ورعاية الخلفاء لهم ومنحهم الأموال ، بل أن الكثير من التراجمة المحترفين هدفوا إلى كسب المال لا حبا للعلم على غرار حنين بن إسحاق .

- كما أن قدمهم كانت راسخة في مختلف الصنائع وكان لهم فضل النهوض بالعديد منها في الدولة العباسية، كما سمحت مواهبهم وعلاقاتهم التجارية من توسيع نطاق التجارة الإسلامية وتلبية حاجيات أسواقها وتعاظم إيرادات الدولة رغم مآخذهم الربوية والاحتكارية.

- وبقدر ما ساهم تضلعهم في المعاملات المالية في ترقية النظام المالي للدولة العباسية بإنشاء البيوت المالية وتسهيل تجارة الائتمان وإقراض الدولة من حين إلى آخر، بقدر ما احتكروا تداول الأموال ووسعوا من دائرة المضاربة ، فلا تجارة ولا غيرها من الفعاليات الاقتصادية كان بالإمكان أن تسير بدون رأس مال ، مما جعل منهم جماعة ضغط لها وزنها في النظام السياسي والاقتصادي للدولة العباسية .

- كما مثّل أهل الذمة حلقة وصل وجسر ربط بين الحضارات القديمة والمجاورة والحضارة الإسلامية من خلال عملية النقل وترجمة العديد من العلوم وتدريسها حتى صار نشاطهم الثقافي رافدا من روافد الثقافة العربية الإسلامية التي بلغ إشعاعها أصقاع العالم، غير أنه في الوقت نفسه كان دورهم خطيرا بما أوصلوه من كتب البدع والزندقة والدعوة إلى أهوائهم الدينية والتي كانت سببا في تشويش عقول العامة، كما أورثوا العرب طريقة النطق السرياني لعدد كبير من الألفاظ السريانية بدليل أن العرب سموا اليونان لا بالاسم اليوناني " هيلين" بل اسم السرياني " يونان".

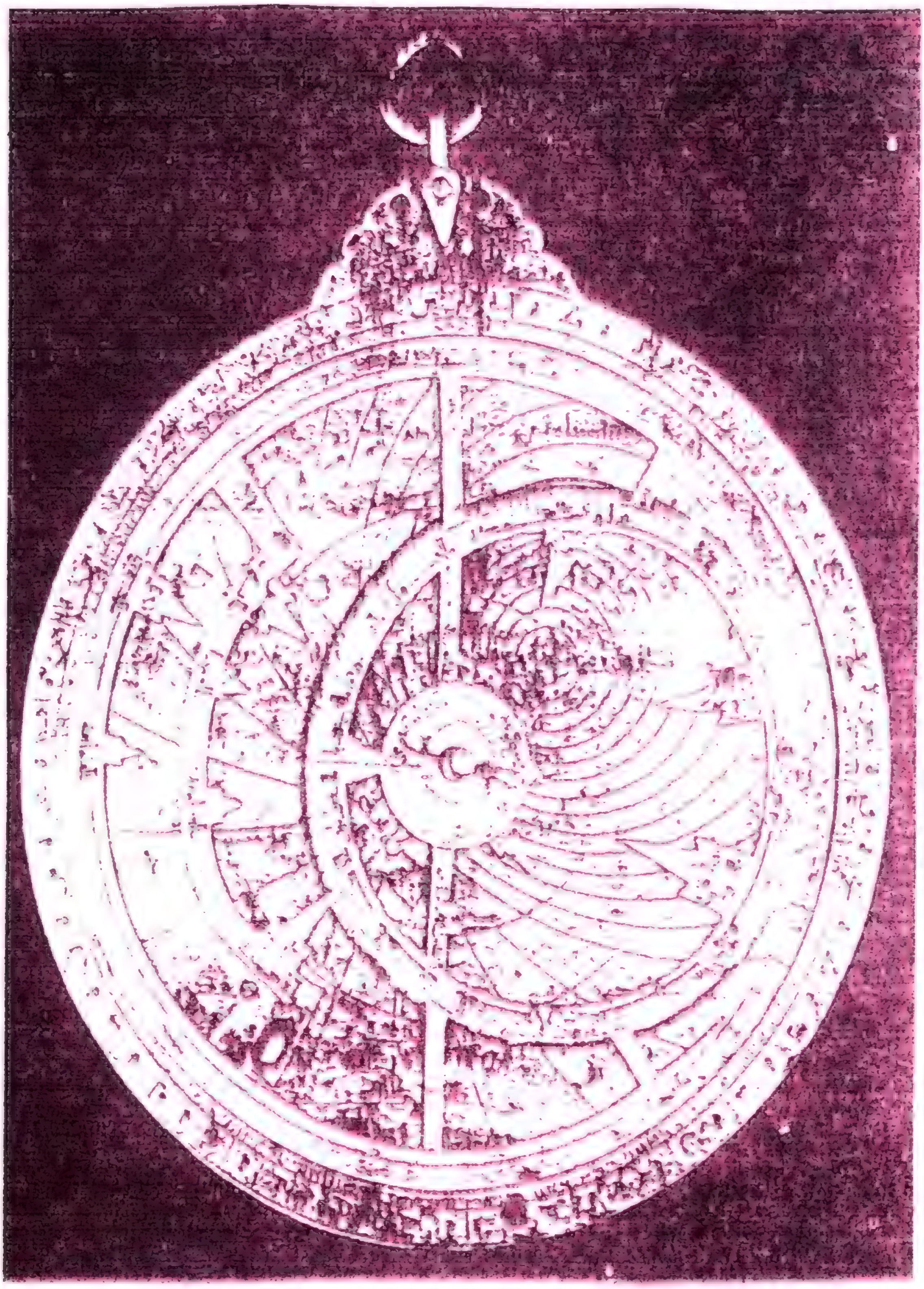
- وإن كانت كتبهم الدينية التي هدفت إلى إبراز أهوائهم ونصرة مذاهبهم، فهي في السياق نفسه ساهمت في إنضاج النزعة العقلية لدى المسلمين وتسلحهم بالمنطق وفن الجدل.

ونستخلص مما سبق أن ما بلغته الحضارة الإسلامية في العصر العباسي من تطور ونضج ورقي هو بالأساس ناتج عن تنوع الجسم الاجتماعي والتمازج الثقافي وتقبل الغير والتسامح الديني الذي بلغ أرقى مظاهره وصوره يعد نموذج حي يجب أن يتطلع إليه عالم اليوم الذي يتميز بتصادم الحضارات.

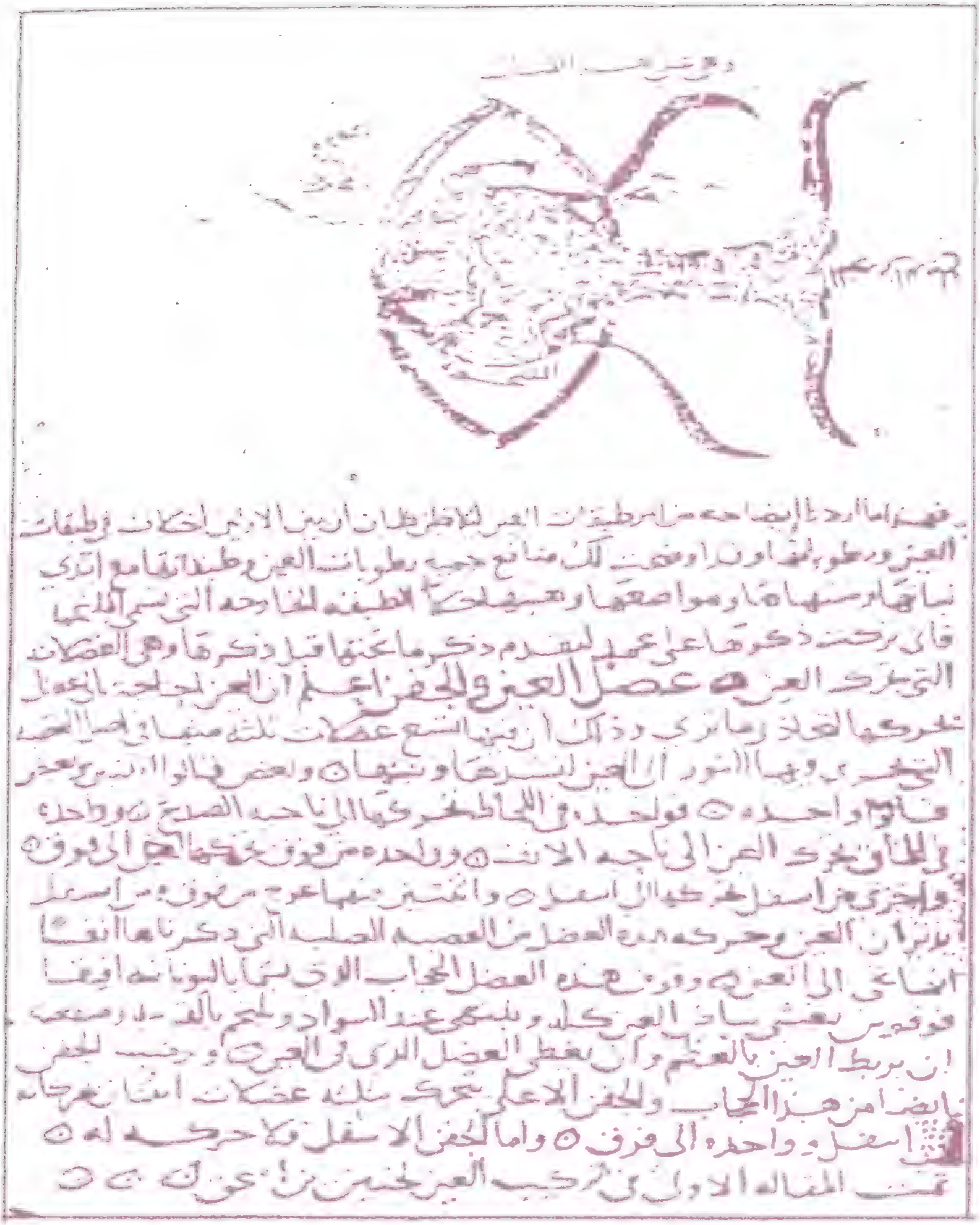
الملاحـــــــق



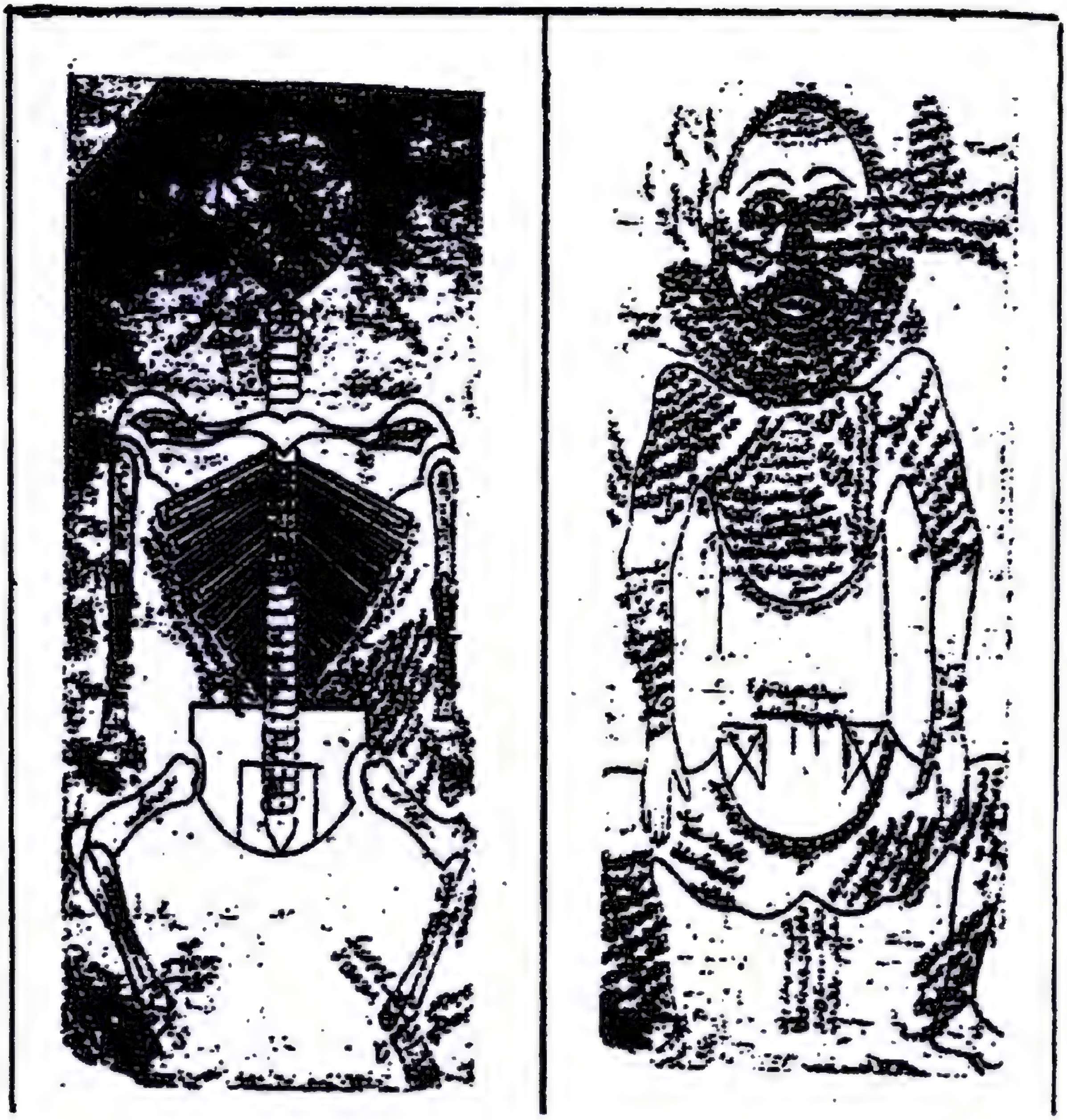
برهان نظرية فيثاغورث بعد التعديلات التي أدخلها ثابت بن قرة الحراني البغدادي (ت 260هـ/873م) ، طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية : الحضارة الإسلامية نشأتها في المشرق وانتقالها إلى الأندلس، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2004، م 1، ص 359.



اسطرلاب من النحاس الأصفر يستخدم في رصد الفلك منقوش عليه اسم صانعه " بسطوس"،
Chronique illustrée de l'histoire du monde le moyen âge, société des périodiques, Larousse, Paris, France , p 180.



العشر مقالات في العين ، لحنين بن اسحاق العبادي وهي نموذج لعضلات العين ،
طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عبية: المرجع السابق، ج1، ص 358.



رسمان توضيحيان يمثلان تشريح العين ، عن كتاب تذكرة الكحالين

لعلي بن عيسى (ت 430 هـــ / 1039 م) ، المرجع نفسه، ص 387

الفهـــارس العامـــة

1- فهـــرس الآيات القرآنية

الآيـــــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ﴾	التوبة	10	03
﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ إلى قولـــــه: ﴿ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾	التوبة	05	05
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّابِئُونَ وَٱلنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾	المائدة	69	15-6
﴿ إِنَّا هُدْنَـــآ إِلَيْكَ ﴾	الأعراف	156	07
﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْـــهُ ﴾	النساء	171	11-10
﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِيۤ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّه ﴾	آل عمران	52	11
﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوۤاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾	المائدة	72	13
﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوۤاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ﴾	المائدة	73	14
﴿ لآ أُحِبُّ ٱلآفِلِينَ ﴾	الأنعام	76	15
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّابِئِينَ وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوۤاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾	الحج	17	15
﴿لاَّ يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ من دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوۤاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي ٱلدِينِ وَأَخْرَجُوكُم من دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَــئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾	الممتحنة	9-8	21

﴿ قَاتِلُواْ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلاَ بِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَلاَ يُحَرِمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَق مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾	التوبة	29	23
﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾	القيامة	11	48
﴿ وَٱجْعَل لي وَزِيراً منْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾	طه	31–29	48
﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ﴾	الأنعام	31	49

2- فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	الحديـــــث
03	"يسعى بذمتهم أدناهم"
05	"إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما"
06	"لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد"
27-18	"سنوا بهم سنة أهل الكتاب"
19	"من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وأن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما"
23-20	"من ظلم معاهدا وانتقصه وكلفه فوق طاقته وأخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه فإني حجيجه يوم القيامة"
25	"أخرجوا المشركين من جزيرة العرب"

3- فهـــــرس الأعلام

(أ)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

- يونس بن أبي فروة: 93.

4- فهـــــرس القبائـــــل:

5- فهارس الأماكن الجغرافية

(أ)

(ب)

(ر)

(س)

(ش)

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

-أولا: المصـــادر

- ثانيا: المراجع العربية الحديثة والمعرّبة

- ثالثا: الرسائل والدوريـــات

- رابعا : الموسوعات ودوائر المعارف

-خامسا: المعاجم والقواميـــس

- سادسا: المراجع باللغة الأجنبية

- سابعا: الدوريــــات الأجنبيـــة

أولا : المصـــــادر

1-القرآن الكريم

2-ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم (ت 668 هـ/ 1269م): **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت) .

3-ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت 630 هـ/ 1233م): **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري،ج4،6،7،8،9، دار الكتاب ،ط3، بيروت، لبنان، (د.ت).

4-ابن بسام، محمد بن أحمد (القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي): **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، بعناية حسام الدين السامرائي ، مطبعة المعارف، بغداد ، 1968.

5-ابن ثغري بردي، كمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت 874 هـ/1469م): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، علّق عليه محمد حسين شمس الدين، ج 2، 3، 5، دار الكتب العلمية ، ط 1، بيروت، لبنان، 1992.

6-ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ/ 1201م): **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا، ج 6، 13،12 دار الكتب، بيروت، لبنان، (د.ت).

7-ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد المعروف بابن حزم الظاهري (ت456هـ/ 1063م): **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق إبراهيم نصر عبد الرحمن عميرة،ج1،3، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1985.

8-ابن حزم: **المحلى**، تحقيق أحمد محمد شاطر،ج9، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ت).

9-ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت 368هـ/ 990 م): **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1979.

10-ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300هـ/ 912م): **المسالك والممالك**، تعليق محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1998.

11-ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ/1406م): **المقدمة**، دار صادر، ط1، بيروت، لبنان، 2000.

12-ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون** أو **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج3، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 2003.

13-ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ/1282 م): **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، ثمانية اجزاء، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977.

14-ابن دستورية، عبد الله بن جعفر بن دستورية بن المرزبان الفارسي (ت 347 هـ/ 958م): **كتاب الكتاب** ، تحقيق ابراهيم السامرائي وعبد الحسين الفتلي، دار الكتب الثقافية، ط1، الكويت، 1977.

15-ابن سينا، الحسين عبد الله ابن سينا أبو علي شرف الملك (ت 428هـ/ 1036م): **قانون الطب**، ج1 ، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).

16-ابن طباطبا ، محمد بن علي العلوي المشهور بابن الطقطقي (ت 709هـ/ 1309م): **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار بيروت، بيروت، لبنان، 1966.

17-ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر الكاتب (ت 280 هـ/ 892م): **تاريخ بغداد**، تصحيح زاهد بن الحسين الكوثري، وعنى بنشره وراجع أصله عزت العطار الحسيني، مأخوذ عن النسخة الخطية ، متحف لندن، 1949.

18-ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت 328هـ/ 929م): **العقد الفريد**، تحقيق عبد القادر شاهين، ج 6، المكتبة العصرية، ط2، بيروت، لبنان، 1999.

19-ابن عبد المنعم، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري (ت 900 هـ / 1494م): **الروض المعطار في خبر الأقطار** ، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، لبنان، 1975.

20–ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون بن توما الملطي (ت685هـ/ 1286م): **تاريخ الزمان**، ترجمة الأب اسحاق أرملة، دار النشر، بيروت، لبنان، 1991.

21–ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول**، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2001.

22–ابن قتيبة، محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276 هـ/ 889م) : **أدب الكتاب**، شرحه علي ناعور ، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988.

23–ابن قتيبة: **عيون الأخبار**، تعليق داني ابن منير آل زهوي ، ج 1، المكتبة العصرية، ط1 ، بيروت، لبنان، 2003.

24–ابن قدامة، أبو جعفر محمد عبد الله بن أحمد بن محمد (ت 620هـ/ 1223م): **المغني ويليه الشرح الكبير**، ج7 ، 10 ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1983.

25–ابن القفطي، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم(ت646هـ/ 1248م) : **إخبار بأخبار الحكماء** ، مكتبة المثنى، القاهرة، مصر، (د.ت).

26–ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 751هـ/ 1350م) : **أحكام أهل الذمة**، تحقيق يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، ج1، 2، دار ابن حزم، ط1، بيروت، لبنان، 1997.

27–ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت 774هـ / 1372م) : **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الرحمن اللاذقي و محمد غازي بيضون، ج3، 10، 11،12، دار المعرفة، ط2، بيروت، لبنان، 1997.

28–ابن المعتز ، عبد الله (ت 296هـ/ 908م): **ديوان ابن المعتز** ، دار بيروت، بيروت، لبنان، 1980.

29–ابن النجار، محب الدين أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل محمود بن محمد (ت 643هـ / 1245م): **ذيل تاريخ بغداد**، صححه قيصر فرح، ج 4، 14، 17، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ت).

30–ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم(ت 771هـ/1369م): **لسان العرب**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ت).

31–ابن منظور: **لسان اللسان تهذيب لسان العرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

32-ابن النديم، محمد بن اسحاق (ت 385هـ/ 995م): **الفهرست**، تحقيق ناهد عباس عثمان، دار قطري، ط1، الدوحة، قطر، 1985.

33-أبو جعفر النحاس، أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس (ت338هـ/949م) : **عمدة الكتاب** ، عناية بسام عبد الوهاب الجاني، دار ابن حزم، ط1، بيروت، لبنان، 2004.

34-أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (ت 410هـ / 1019م) : **الإمتاع والمؤانسة**، صححه أحمد أمين وأحمد الزين، ج 1، 2، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1953.

35-أبو حيان التوحيدي: **البصائر والذخائر**، تحقيق وداد القاضي، ج1، 6، 9، دار صادر، ط1، بيروت، لبنان، (د.ت).

36-أبو شجاع، محمد بن الحسن بن ظهير الدين الروذراوري (ت488هـ/1095م) : **ذيل تجارب الأمم وتعاقب الهمم**، بعناية هـ. ف أمدروز، القاهرة، مصر، 1916.

37-أبو عبيد القاسم، بن سلام الهروي (ت 224هـ / 838م) : **كتاب الأموال** ، شرحه عبد الأمير علي مهنا، دار الحداثة، ط1، بيروت، لبنان، 1988.

38-أبو الفدا، اسماعيل بن علي بن محمد بن عمر الملقب بعماد الدين (ت732هـ/ 1331م) : **تاريخ أبي الفدا** أو **المسمى المختصر في أخبار البشر**، تعليق محمود ديوب، ج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1998.

39-أبو نواس، الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح(ت 198هـ/814 م): **ديوان أبي نواس – خمريات**-، شرحه وقدم له علي نجيب عطـوي، مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 2000.

40-أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم الأنصاري (ت 182هـ/ 798 م): **كتاب الخراج**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).

41-إخوان الصفاء (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي): **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء** ، ج1، دار بيروت، بيروت، لبنان، 1957.

42-الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس- المعروف بالشريف الإدريسي (القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي): **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، ج 1، 2 ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2002.

43-الاصطخري، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد (ت 341هـ / 952م) : **المسالك والممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، ومراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، القاهرة، مصر، 1961.

44-الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت 356هـ / 967م) : **الأغاني**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ج 8، 9، 10،16، 17،19، 22، دار الثقافة ، بيروت، لبنان، (د.ت).

45-البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت 194هـ / 809 م): **صحيح البخاري**، كتاب الجزية والموادعة، الباب العاشر، م2، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، (د.ت).

46-البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت 429هـ / 1037م) :**الفرق بين الفرق** ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).

47-البكري، أبو عبيد الله بن أبي مصعب بن عبد العزيز بن محمد (ت487هـ/ 1094 م) : **المسالك والممالك** ، تحقيق جمال طلبة، ج 1، 2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2003.

48-البهوتي ، منصور بن يونس بن إدريس (ت 1046هـ / 1636م): **كشاف القناع عن متن الإقناع**، مراجعة هلال مصيلحي هلال ، ج3، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1982.

49-البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي (ت 440هـ/ 1048م): **الآثار الباقية عن القرون الخالية** ، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).

50-البيهقي، الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين (ت 458 هـ / 1056م): **السنن الكبرى**، ج 8، 9، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، 1992.

51-التنوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت 384 هـ/994م): **نشوار المحاضرة في أخبار المذاكرة**، تحقيق عبود الشالجي المحامي، ج1، 4، 8 ، دار صادر، ط2، بيروت، لبنان، 1995.

52-التنوخي: **الفرج بعد الشدة** ، بعناية عبود الشالجي،ج1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1978.

53-الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت430هـ/ 1939م): **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج2،1، دار الفكر، ط2، بيروت، لبنان، 1973.

54-الثعالبي: **خاص الخاص**، قدم له حسن أمين، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت).

55-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255هـ / 868م): **الحيوان** ، تحقيق يحي الشامي، ج 4، 6، مكتبة الهلال، ط3، بيروت، لبنان، 1997.

56-الجاحظ: **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د.ت).

57-الجاحظ: **البخلاء**، المكتبة الثقافية، ط2، بيروت، لبنان، (د.ت).

58-الجاحظ: **رسائل الجاحظ** ، شرح وتعليق محمد باسل عيون السود، م 1، 2 ، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2000.

59-الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت 331هـ / 942 م): **الوزراء والكتاب**، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأنباري وعبد الحفيظ شلبي ، شركة الأمل للطباعة، القاهرة ، مصر، 2004.

60-حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت 1067هـ/1656م): **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ستة أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992.

61-الحنبلي، عبد الحي بن العماد (ت 1089 هـ/ 1678م) : **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

62-الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت 463هـ/ 1070م) : **تاريخ بغداد**، ج1، 4،3، 7، دار الفكر للطباعة، القاهرة، مصر، (د.ت).

63-الدميري، كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى (ت 808هـ / 1405م): **حياة الحيوان الكبرى**، قدم له ووضع حواشيه أحمد حسن بسج ، ج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1994.

64-الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت 748هـ / 1347م): **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ج19، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت، لبنان، 1998.

65-الذهبي: **العبر في خبر من غبر** ، تحقيق أو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

66-الذهبي : **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** ، تحقيق محمد البجاوي ، ج2، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ت).

67-الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج15، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان،(د.ت).

68-الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي (ت 604هـ / 1207م): **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين**، تعليق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب، ط1، بيروت، لبنان، 1986.

69-الرازي: **التفسير الكبير** ، ج11، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1990.

70-الزركلي، خير الدين (ت 1397هـ /1976م) : **الأعلام** ، **قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، دار العلم للملايين، ط16، بيروت، لبنان، 2005.

71-الرملي، شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد حمزة (ت 1004هـ/ 1595م): **نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج** ، ج4، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، 1993.

72-السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل (ت 483 هـ / 1090م) : **شرح كتاب السير الكبير** ، ج5 ، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1998.

73-الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت 388هـ / 998م): **الديارات**، تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف ، بغداد، العراق، 1951.

74-الشافعي، أبو عبد الله محمد بن ادريس (ت 204 هـ / 819م) : **كتاب الأم**، أخرج أحاديثه وعلق عليه محمد مطرجي، ج4، دار الكتب ، ط1، بيروت، لبنان، 1993.

75-الشربيني، شمس الدين محمد بن الخطيب (ت 977هـ / 1569م): **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**، ج4، دار المعرفة، ط1، بيروت ، لبنان، 1997.

76-الشرواني وابن القاسم: **حواشي الشرواني وابن القاسم على تحفة المحتاج بشرح المنهاج**، ضبطه عبد العزيز الخالدي، ج12، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 1996.

77-الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت 548هـ/ 1153م) : **الملل والنحل**، تحقيق سيد كيلاني، ج1، 2، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986.

78-الشوكاني، أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد (1250هـ/ 1834م): **الفتح القدير**، ج 5، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ت).

79-الصابي، أبو اسحاق ابراهيم بن هلال (ت 380هـ/ 990م) : **المختار من رسائل الصابي** ، بعناية شكيب أرسلان ، دار النهضة الحديثة، بيروت، لبنان، (د.ت).

80-الصابي، أبو الحسن هلال بن المحسن (ت448هـ / 1056م) : **الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب، القاهرة، مصر، 1958.

81-صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد (ت 462هـ/ 1069م) : **طبقات الأمم**، تحقيق حياة العيد بو علوان ، دار الطليعة ، ط1، بيروت، لبنان، 1985.

82-الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ /1362م) : **الوافي بالوفيات**، اعتناء احسان عباس ، ج7، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).

83-الصولي ، أبو بكر محمد يحي (ت 335هـ / 946م) : **أخبار الراضي بالله والمتقي بالله**، هيورث دن ، دار المسيرة ، ط3، بيروت، لبنان، 1983.

84-الطبراني، الحافظ أبي القاسم بن سليمان بن أحمد (ت 360 هـ / 970م) : **المعجم الكبير** ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ج23، مطبعة الزهراء الحديثة، ط2، الموصل، العراق، 1984.

85-الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ / 922م): **تاريخ الأمم والملوك** أو **المسمى بتاريخ الطبري**، ج 1، 2، 4، 5، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2001.

86-الطبري: **جامع البيان في تأويل آي القرآن** المعروف **بتفسير الطبري**، ج6، 29، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1992.

87-الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين (ت 458هـ/ 1065م) : **الأحكام السلطانية**، تصحيح محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983.

88-القرافي، شهاب الدين أبي العباس أحمد (ت 684هـ / 1285م) : **أنوار البروق في أنواء الفروق**، تحقيق أحمد سراج وعلي جمعة محمد، ج2، دار السلام، ط1، القاهرة، مصر، 2001.
89-القرطبي، عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت 435هـ / 1043م) : **الجامع لأحكام القرآن الكريم**، ج1، 2، 8، 10، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1985.
90-القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت 821 هـ / 1418م) : **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** ، تعليق محمد حسين شمس الدين ، ج1، 2، 5، 6، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، 1987.
91-الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود (ت 587هـ/ 1191م): **كتاب بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع** ، ج7، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
92-الكتبي، محمد بن شاكر (ت 764 هـ / 1362م): **فوات الوفيات** ، تحقيق احسان عباس، ج1، 2، 3، دار صادر، بيروت، لبنان، 1973.
93-الكتبي: **عيون التواريخ** ، تحقيق عفيف نايف حاطوم، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1996.
94-الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت 450 هـ / 1058م) : **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
95-الماوردي: **الوزارة أو أدب الوزير** ، تحقيق سليمان داوود، وفؤاد عبد المنعم أحمد، دار الجامعات المصرية ، ط1، الاسكندرية، مصر ، 1976.
96-المرادي، أبو بكر محمد بن الحسين الخضرمي (ت 489هـ / 1095م): **كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة** ، تحقيق رضوان السيد ، دار الطليعة، ط1، بيروت، لبنان، 1981.
97-المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت 384هـ/ 964م) : **معجم الشعراء**، تصحيح وتعليق ف. كرنكو ، مكتبة القدس، القاهرة، مصر، 1937.
98-المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 346هـ/ 957م): **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، شرحه مفيد قميحة، ج 2، 3، 4، دار الكتب العملية، ط1، بيروت، لبنان، (د.ت).

99-المسعودي: **التنبيه والإشراف** ، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت) .

100-مسكويه ، أبو علي أحمد بن محمد (ت 421 هـ / 1030م) : **تجارب الأمم وتعاقب الهمم** ، اعتنى بتصحيحه أمدروز ، ج 1، 2 ، مكتبة المثنى، بغداد ، العراق ، (د.ت) .

101-المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 388هـ / 998م) : **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، تعليق محمد الأمين الصناوي ، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2003.

102-المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 845 هـ/ 1441م) : **الخطط المقريزية أو المواعظ و الاعتبار في ذكر الخطط والآثار** ، وضع حواشيه خليل المنصور، ج1، 4، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1998.

103-النووي، أبو زكرياء يحي بن شرف (ت 676هـ / 1277م) : **روضة الطالبين** ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، ج8، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

104-النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ / 1332م) : **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، ج1، 6، 7، 8، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1933.

105-الهمداني، محمد بن عبد الملك (ت 512هـ / 1118 م) : **تكملة تاريخ الطبري**، تحقيق ألبرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية ، ط2، بيروت، لبنان، 1961.

106-الهمذاني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت 334هـ/ 945م): **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، دار اليمامة، الرياض، السعودية، 1974.

107-ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/ 1228م) : **معجم الأدباء** ، تحقيق احسان عباس، ستة أجزاء، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1993.

108-ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1990.

109-اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح(ت 384 هـ / 994م): **تاريخ اليعقوبي**، ج1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1995.

110-اليعقوبي: **البلدان** ، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2002.

ثانيا : المراجع العربية الحديثة والمعربة

1-إبراهيم الفيومي: **تاريخ الفكر الديني الجاهلي**، دار الجيل، ط1، بيروت، لبنان، 1999.

2- أحمد أمين: **فجر الإسلام**، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1975.

3-أحمد أمين: **ضحى الإسلام**، ج1، دار الكتاب العربي، ط10، بيروت، لبنان، (د.ت).

4-أحمد باشا: **التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة**، دار المعارف، ط 2، القاهرة، مصر، 1984.

5-أحمد سوسة: **ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق**، مطبعة سعد، ط1، بغداد، العراق، 1978.

6-أحمد عبد الرزاق أحمد: **الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، مصر، 1997.

7-أحمد عيسى: **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، دار الرائد العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1990.

8-أدم متز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ج 1، 2، الدار التونسية، تونس، 1986.

9-بدران أبو العينين بدران: **العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين في الشريعة الإسلامية واليهودية والمسيحية والقانون**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1984.

10-بطرس البستاني: **أدباء العرب في الأعصر العباسية**، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1969.

11-جاك ريسلر: **الحضارة العربية**، ترجمة خليل أحمد خليل، عويدات، ط1، بيروت، لبنان، 1993.

12-جان موريس فييه: **أحوال النصارى في خلافة بني العباس**، ترجمة حسني زينه، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1990.
13-جورجي زيدان: **تاريخ أدب اللغة العربية**، دار مكتبة الحياة، ج1، بيروت، لبنان، 1983.
14-جورجي زيدان: **تاريخ التمدن الإسلامي**، م1، 2، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت).
15-حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، ج4، مكتبة النهضة، القاهرة، مصر، 2001.
16-حسن ظاظا: **الفكر الديني اليهودي**، دار القلم، ط4، دمشق، سوريا، 1999.
17-دي بور: **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1954.
18-زيغريد هونكة: **شمس العرب تسطع على الغرب** أو **أثر الحضارة العربية في أوروبا** ، رجمة فاروق بيضون و كمال دسوقي، راجعه مارون عيسى الخوري، دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1981.
19-زينب العاملي: **معجم أعلام النساء**، تحقيق منى محمد رياد الخراط، مؤسسة الريان، ط1، بيروت، لبنان، 2000.
20-سليم الحلو: **الموسيقى النظرية** ، دار مكتبة الحياة، ط2، بيروت، لبنان، 1972.
21-شاكر مصطفى: **التاريخ العربي والمؤرخون**، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، لبنان، 1979.
22-شفيق الجراح: **دراسة في تطور الحقوق الرومانية**، المطبعة الجديدة، دمشق، سوريا، 1978.
23-شكري فيصل: **المجتمعات الإسلامية في القرن الأول نشأتها ومقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي**، دار العلم للملايين، ط3، بيروت، لبنان، 1973.
24-شوقي ضيف: **تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول والثاني**، ج3، 4، دار المعارف، ط4، القاهرة، مصر، 1981.
25-طيبة صالح الشذر: **ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ**، دار قباء، القاهرة، مصر، 1998.

26-عبد الحسين مهدي عبد الرحيم: **الخدمات العامة في بغداد (400 هـ - 656هـ/ 1009 - 1258م)** ، دار الشؤون الثقافية، ط1، بغداد، العراق، 1987.

27-عبد العزيز الدوري: **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري**، دار المشرق، ط2، بيروت، لبنان، 1986.

28-عبد اللطيف حمزة: **الأعلام في صدر الإسلام**، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، مصر، 1971.

29-عثمان موافي: **التيارات الأجنبية في الشعر العربي " منذ العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**"، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، مصر (د.ت).

30-عرفان عبد الحميد: **دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، بغداد، العراق، (د.ت).

31-عز الدين فراج: **فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، (د.ت).

32-عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: **دراسات في تاريخ الدولة العباسية**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1999.

33-عفيف بهنسي : **الفن العربي الإسلامي في بداية تكوينه**، دار الفكر العربي، ط1، دمشق، سوريا، 1983.

34-علي أحمد الطايش: **الفنون الزخرفية الإسلامية المبكرة في العصرين الأموي والعباسي**، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة، مصر، 2000.

35-علي عبد الله الدفاع: **الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي**، جون وايلي، نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية، 1979.

36-علي منصور: **الشريعة والقانون الدولي**، مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر ، 1965.

37-عمر فروخ: **تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون**، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان، 1972.

38-غوستاف لوبون: **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، 1948.

39-فامر: **تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي**، ترجمة فتح الله المحامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت).

40-فتحية النبراوي: **تاريخ النظم والحضارة الإسلامية**، دار الفكر العربي، ط8، القاهرة، مصر، 1998.

41-قدري حافظ طوقان: **تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك**، دار الشروق، بيروت، لبنان، (د.ت).

42-كارل بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، ج4، دار المعارف، القاهرة، مصر ، 1975.

43-كارل بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيلة فارس أمين ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين ، ط15، بيروت، لبنان، 2002.

44-كرلو نلينو: **علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى**، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، 1911.

45-لويس شيخو: **شعراء النصرانية بعد الإسلام**، ج2، دار المشرق، ط2، بيروت، لبنان، 1967.

46-محمد أبو ريان: **تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام**: دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1976.

47-محمد أبو زهرة: **تاريخ الجدل**، دار الفكر العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1990.

48-محمد سلام مدكور: **معالم الدولة الإسلامية**، مكتبة الفلاح، ط1، الكويت، 1983.

49-محمد عبد الحفيظ المناصر: **الجيش في العصر العباسي الأول " 132هـ-232هـ"**، دار مجدلاوي للنشر، ط1، عمان، الأردن، 2000.

50-محمد عبد الرحمن مرحبا: **الجامع في تاريخ العلوم عند العرب**، منشورات عويدات، ط2، بيروت، لبنان، 1988.

51-محمد كامل ليلة: **المبادئ الدستورية العامة والنظم السياسية**، دار الكتاب العربي، ط1، القاهرة، مصر، (د.ت).

52-محمود المقداد: الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي، دار الفكر،ط 1، دمشق، سوريا، 1988.

53-مرغوليوث: **دراسات عن المؤرخين العرب**، ترجمة حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، مصر، 2001.

54-نبيه عاقل: **تاريخ عصر الرسول -صلى الله عليه وسلم- والخلفاء الراشدين**،مطبعة أبي العلاء، دمشق، سوريا، 1976.

55-هربرت ريد: **الفن والمجتمع**، ترجمة فارس متري طاهر، دار العلم، بيروت، لبنان، (د.ت).

56-ول دايريل ديورانت: **قصة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محفوظ، ج13، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1971.

57-يحي أحمد الكعكي: **معالم النظام الاجتماعي في الإسلام**، دار النهضة العربية، ط2، بيروت، لبنان، 1992.

58-يحي هويدي: **دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية**، دار الثقافة للنشر، ط3، القاهرة، مصر، 2002.

59-يوسف رزق الله غنيمة: **نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق**، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، بور سعيد، مصر، 2001.

ثالثا: الرسائل والدوريات

1- مصطفى بيطام: **مظاهر المجتمع ومظاهر التجدد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول (132هـ- 232هـ)** ، رسالة ماجستير في الأدب القديم، معهد الآداب، جامعة قسنطينة، 1985.

2- محمد اليعقوبي: **النشأة الإسلامية لمصطلح علم الكلام والفلسفة الإسلامية**، مجلة الحضارة الإسلامية، المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية، وهران، العدد 03 نوفمبر 1997.

3- وهبة الزحيلي: **العلوم الشرعية بين الوحدة والاستقلال**، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد03، نوفمبر، 1997.

رابعا : الموسوعات ودوائر المعارف

1-أحمد الشنتناوي وآخرون: **دائرة المعارف الإسلامية** ، راجعها محمد مهدي علام، م 9، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).

2-أحمد راتب عرموش وآخرون: **موسوعة الأديان الميسرة- الأديان القديمة-**، دار النفائس، بيروت، لبنان، 2002.
3-بطرس البستاني: **دائرة المعارف**، ج8، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).
4-جيرار جهامي: **موسوعة مصطلحات العلوم عند العرب**، ج1، 2، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، لبنان، 1999.
5-روني وايلي: **موسوعة أعلام الفلسفة**، مراجعة جورج نخل، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1992.
6-محمود محمد محفوظ وآخرون:**الموسوعة العربية الميسرة**، ج4، دار الجيل، ط2، بيروت، لبنان، 2001.
7-**موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين**، حققها جلال شوقي وحسين مؤنس وآخرون، ج1، دار مطابع المستقبل، القاهرة، مصر، (د.ت).

خامسا: المعاجم والقواميس

1- إبراهيم بن مراد : **المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية**، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985.
2- إبراهيم مصطفى وآخرون: **المعجم الوسيط**، ج2، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا، 1989.
3- رفائييل نخلة اليسوعي: **غرائب اللغة العربية**، المطبعة الكاثوليكية، ط2، بيروت، لبنان، 1960.
4- الزبيدي محمد مرتضى: **تاج العروس**، دار صادر ، بيروت، لبنان، (د.ت).
5- عاصم محمد رزق: **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، مصر، 2000.
6- الفيروزآبادي: **القاموس المحيط**، دار العلم للجميع، (د.ط)، بيروت، لبنان، 2004.
7- الفيومي أحمد بن محمد بن علي (770هـ/ 1368م): **المصباح المنير**، ج1، 2، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ت).
8- نضال نصر الله: **معجم الأطباء**، دار الريان الجامعية، ط1، بيروت، لبنان، 2004.

9- يوسف خياط: **معجم المصطلحات العلمية والفنية**، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، (د.ت).

سادسا: المراجع باللغة الأجنبية

1- CHIKH BOUAMRANE, Louis Gardet : **Panorama de la pensée islamique**, Edition Sind Bad, Paris, 1984.
2- DOMINIQUE, et JANINE SOURDEL : **la civilisation de l'islam classique**, Arthaud, Paris, 1968.
3- EDOUARD PERROY : **Histoire générale des civilisation le moyen âge**, Tome3, Presse universitaires de France, Paris, 1961.
4- HENRY DEMORRANT : **Histoire des arts décoratifs des origines a nos jours**, Bibliothèque des guides Bleues, librairie, Hachatte, Paris, 1970.
5- HUGH HONOUR, JOHN FLAMING : **Histoire mondiale de l'art**, Bordas, Bruxelles, 1984.
6- LOUIS GARET : **La cité musulmane (vie sociale et politique)**, librairie philosophique, J.Vrin, Paris, 1976.
7- MARKUS HATTSTEIN, PETER DLEINIS : **Art et civilisation de l'islam**, Kone manne, Cologne, 2000.
8- NABHANI KORIBAA : **les philosophes de l'islam**, SNED, Alger, 1980.
9- VON GRUNE BAUM : **L'islam médiéval histoire et civilisation**, Payot, Paris, 1962.

سابعا : الدوريات الأجنبية

1- **Chronique illustrée de l'histoire du monde le moyen âge,** société des périodiques, Larousse, Paris, (s .d).
2- ARMAND ABEL **: la Polémique damascenienne et son influence sur les origines de la théologie musulmane,** L'élaboration de l'islam, colloque de Strasbourg, presse universitaire de France, Paris, juin 1961.
3- FRANCESCO GABRIELI **: La Zandaqa « au 1er siécle abbasside,** colloque de Strasbourg, presse universitaire de France, Paris, juin 1961.
4- LOUIS GARDET **: Philosophie et religion,** colloque de Strasbourg, presse universitaire de France, Paris, juin 1961.